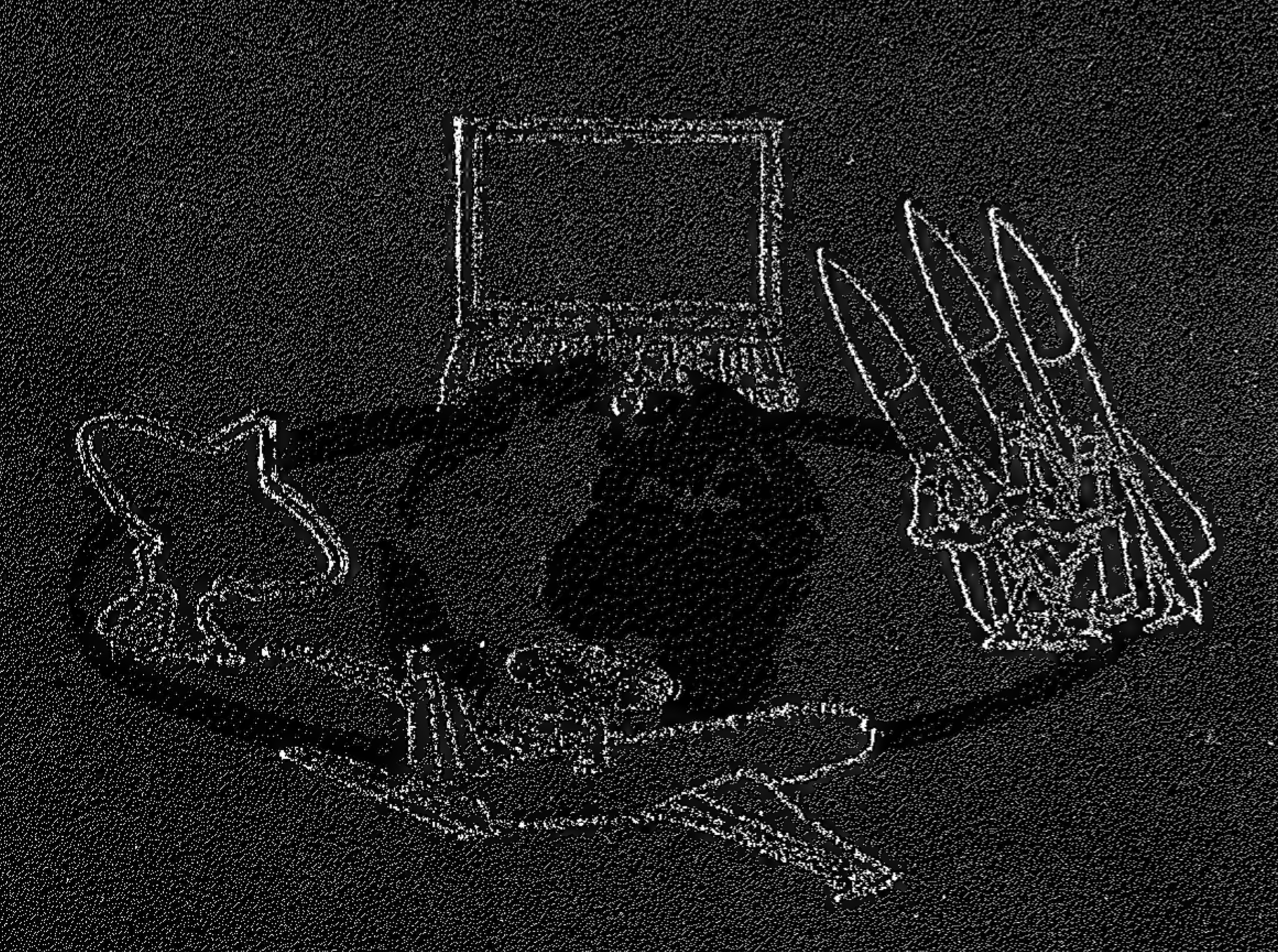
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والإستخبارات في العالم



NOBILIS



موسوعة عالم المخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العالم

وقائع مخابراتيَّة

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

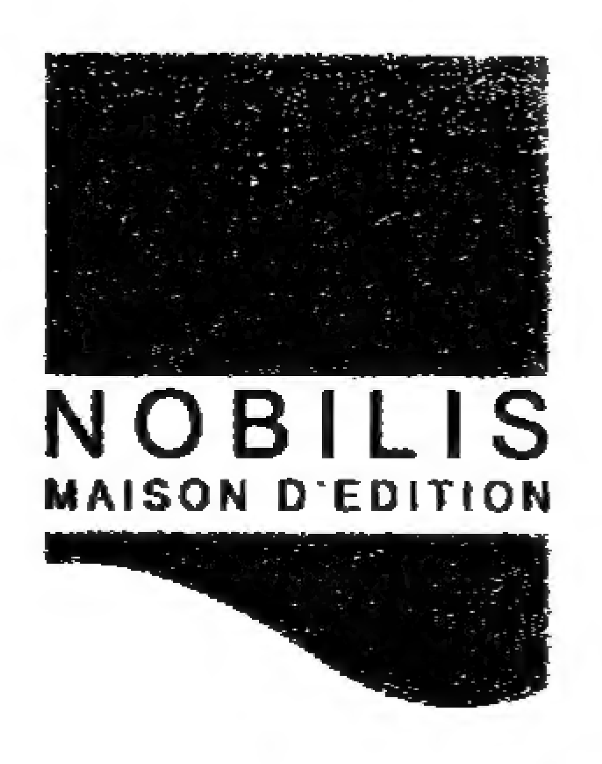
مَوسُوعَة

عَالَــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الثَّالث والعشرُون

وقَائع مخَابَراتيَّة



إسم المَجموعَة	: عَالَــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	: وقَائع مخَابَرَاتيَّة
الجزء	: الثَّالث والعشرون
المؤلِّف	: أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	: بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الجاسوس السويسريّ الذي لم يعرف مصادر معلوماته

لم تكن المجلة الشهرية المنتظمة التي كانت تصدرها "داي انتشيدونغ"، وهي منظمة كاثوليكية ليبرالية خلال الثلاثينيات، تحتل مرتبة عليا على قائمة القراءة عند معظم المواطنين السويسريين. ومن خلال استخدام أعمدة سوداء من حروف مطبعية كثيفة، فإن كل عدد منها كان مليئًا بمقالات مملة تتناول، على نحو بليد في الغالب، مواضيع سياسية وكنائسية. وباستثناء حوالي ٢٠٠ عضوًا أو أكثر قليلاً في "داي انتشيدونغ"، فلم يكن هناك أحد يبدي اهتمامًا بالمجلة.

ولكن في سنة ١٩٣٦، أصبحت المجلة فجأة مفعمة بالحيوية والنشاط بسبب كتابات مشارك جديد، وهو مغترب ألماني بدا كأنه يملك قدرة مذهلة على فهم الأحداث في ألمانيا. وبدأت مقالاته في هذه المجلة المغمورة في إثارة الانتباه، ذلك أنه بدا يعرف تفاصيل غير منشورة على صفحات مطبوعات أخرى: مناورات سياسية داخل السلطة النازية، وبرامج التنمية الاقتصادية، والأهم من هذا كله، تفاصيل عن برنامج هتلر السري لإعادة التسليح.

كان المؤلف، رودولف روسلر، يعيش في المنفى في "لوسيرن"، حيث هرب في العام ١٩٣٣ بعد طرده من وظيفته عند ناشر مسرحي بسبب آرائه المعادية للنازية. وفي ما يتعلق بمظهره العام، فهو بدا مثل المفكر الأوروبي: قصير القامة ونحيفًا، بنظارة طبية سميكة، وغارقًا في التفكير معظم الوقت. وهو رجل هادئ، وقادر على

الاستبطان، وكان يعاني من الربو، وهو داء أصاب رجلاً خجولاً من قبل ثم جعله منطويًا على نفسه على نحو شديد.

ومهما كانت شخصيته غير جذابة، فإن هذا الرجل صاحب السلوك المعتدل أصبح في وقت لاحق واحدًا من أعظم الجواسيس في التاريخ، أو ربما لم يكن كذلك. وهذا هو الغموض الذي يشكل جوهر أسطورة روسلر.

لم يكن هناك شيء في خلفية روسلر يوحي بشهرته المستقبلية. وكان مثالاً نموذجيًا بدرجة كافية لذلك النوع المعروف من ألماني ليبرالي. وكان روسلر ولد في أوغسبيرغ، ثم انضم إلى الجيش الألماني عند اندلاع الحرب في العام ١٩١٤، حينما كان عمره ١٧ عامًا. وتمكن من النجاة بحياته خلال أربع سنوات كجندي مقاتل، ولكن التجربة أوجدت فيه مقتًا دائمًا للحرب وللروح الحربية في ألمانيا. ولأنه كاثوليكي مخلص، فإن روسلر اتخذ قرارًا بتكريس نفسه للقضاء على هذين الشرّين.

بعد الحرب، قرر روسلر استكمال دراسته، وانضم إلى الجامعة في برلين لدراسة القانون، معيلاً نفسه كصحافي. وأصبح جزءًا من حلقة من المثاليين الكاثوليك من ذوي الآراء المتطابقة، حتى أنّ أحدهم، وهو رفيق دراسة في جامعة برلين، كان له تأثير عميق على حياة روسلر.

كان جافيير شنايير، وهو سويسري من عائلة غنية على نحو معتدل، شاطر روسلر شعوره بالقلق تجاه نهوض النازيين. وقبل عودة شنايير، العضو البارز في مجلة "داي انتشيدونغ"، إلى وطنه، نصح صديقه روسلر بعدم وجود مستقبل له في ألمانيا، ولذلك يتعين عليه أن يهاجر إلى سويسرا. ولكن روسلر قرر البقاء ومواصلة العمل في المجلة. وفي العام ١٩٣٣، إثر طرده من وظيفته عند الناشر المسرحي، عرف روسلر أنه كان رجلاً مشبوهًا. وبعد توصله إلى استنتاج أنه لم يعد آمنًا في

ألمانيا، هرب إلى لوسيرن بناء على اقتراح شنايبر وأسس دار نشر صغيرة تدعى "فيتا نوفا" لنشر الأدب الكاثوليكي. وظل على اتصال، مع ذلك، مع بعض أصدقائه من ذوي الآراء المتطابقة في ألمانيا النازية، الذين حاولوا كبت مشاعرهم المعادية للنازية من خلال تولي وظائف في وزارات حكومية.

كان يمكن أن يبقى روسلر صاحب دار نشر مغمورة، قانعًا بإنتاج أعمال من المناظرات الفلسفية الملتوية المحبوبة عند المتدينين الكاثوليك، لولا حدوث ذلك التغيير في حياة صديقه شنايبر.

ففي سنة ١٩٣٩، جرى استدعاء شنايبر، الضابط الاحتياط في الجيش السويسري، لتأدية الخدمة العسكرية، في فرع الاستخبارات العسكرية. وتحدث شنايبر إلى رئيسه، الميجر هانز هوسمان، عن روسلر، المغترب الألماني الذي كان يكتب مقالات دقيقة جدًّا عن التطورات في ألمانيا، وعلى ما يبدو عن تلك الشبكة من أصدقائه القدامى في ذلك البلد. ووقّع هوسمان عقدًا مع روسلر بتعيينه محلّلاً، وهذا يعني قيامه بتحليل كل التقارير الاستخباراتية والمعلومات الآتية من مصادر معنية حول ألمانيا، ثم كتابة تقارير تحليلية عن مضامينها.

لم يكن روسلر يعرف حقيقة الأمر، ولكنه بات الآن جزءًا من لعبة استخباراتية معقدة. وكانت سويسرا، من واقع حقيقة الاستراتيجي الميؤوس منه الذي لا يسمح لها بالدفاع في مواجهة أي غزو ألماني، عقدت العزم على البقاء محايدة. وتحقيقًا لهذه الغاية، قامت الاستخبارات السويسرية بعدة أدوار في الوسط، ذلك أنها تعاونت إلى حد ما مع الألمان، ولكنها في الوقت نفسه تسامحت مع عمليات استخباراتية بريطانية وسوفياتية هائلة على أراضيها، في ظل تفاهم ضمني بعدم محاولة أي من البريطانيين أو الروس جعل هذه الارتباطات واضحة أو تنفيذ أيّ عمليات من شأنها تعريض الأمن

السويسري للخطر. وكانت النتيجة وجود منطقة حرة للاستخبارات، حتى أن أجهزة استخبارات عشرات من الدول كانت تدير عمليات مدروسة في سويسرا، في حين أن السويسريين تظاهروا بعدم معرفتهم لمثل هذه العمليات، مع أنهم تعاونوا بشكل ما معهم جميعًا. وكان هذا كله بمثابة مسرح للاستعراضات الاستخباراتية.

وكانت العملية الاستخباراتية الأكبر والأعظم نشاطًا في سويسرا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية هي شبكة سوفياتية كبيرة تابعة لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، ومعروفة لدى الألمان بأنها "الثلاثة الحمر"، وكانت في الواقع تتكون من ثلاثة راديوهات. وكان الراديو الأهم في "الثلاثة الحمر" تحت إدارة ساندور رادو، الشيوعي الهنغاري والعميل السابق في وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، الذي كان معنيًّا بجمع المعلومات الاستخباراتية عن القوة العسكرية في ألمانيا. وكان ساندور رادو يجد صعوبة في الحصول على مثل هذه المعلومات الاستخباراتية إلى أن فاتحه هوسمان على نحو سري بعرض مذهل: الضابط في الاستخبارات السويسرية لديه شخص ألماني له مصادر معلومات جيدة في ألمانيا ويمكنه تزويد السوفيات بمعلومات استخباراتية رفيعة المستوى حول التطورات العسكرية الألمانية. والبعض من هذه المعلومات الاستخباراتية قد يحظى باهتمام السويسريين، ولكن البقية، التي تعالج الخطط العسكرية الألمانية في أوروبا الشرقية، تحظى باهتمام السوفيات على ما يبدو.

ووافق رادو على العرض شاكرًا، وبدأ سيرك الاستخبارات في سويسرا يتخذ منعطفًا جديدًا. ومن خلال تعاونه على نحو خفي مع الاستخبارات السوفياتية، فإن هوسمان وجد قناة خفية لنقل المعلومات الاستخباراتية حول ألمانيا دون إثارة غضب الألمان. وحتى لو اكتشف الألمان هذا التسرب، فليس هناك ارتباط واضح مع الاستخبارات السويسرية. وقام رادو بتسجيل اسم روسلر على قائمة الرواتب الشهرية

للمستخدمين العاملين لحساب "الثلاثة الحمر". وفي معرض سعيه لاختيار اسم رمزي لهذا المصدر الجديد، اهتدى رادو إلى اسم "لوسي"، لأن روسلر كان يقيم في لوسيرن.

دخل روسلر إلى عالم التجسس تحت ذلك الاسم الرمزي. وفي بادئ الأمر، مع ذلك، فإنّ لوسي جعل مركز موسكو عصبيًا على نحو شديد. وهناك سبب واحد لذلك وهو أن روسلر أبلغ رادو أنه سوف يقوم بتزويد المعلومات الاستخباراتية إلى الاستخبارات السوفياتية على شرط أن لا يذكر أبدًا اسم مصادره. وفي ظل الظروف العادية، ما كان يمكن أن تتقبل وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU أي معلومات استخباراتية بدون أن تعرف مصدرها الحقيقي للتحقق منه، وإلا فسوف يكون من السهل على العدو تمرير معلومات استخباراتية مضللة. وقررت وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU أن تتبنى موقف "انتظر لترى" في الوقت الحاضر على الأقل، معلقة اتخاذ قرار نهائي حول مدى الثقة تجاه لوسي ما بعد قراءة تقاريره الأولى.

إتضح أن هذه التقارير جيدة جدًا، وبدأت في أن تكون أفضل حينما شرع روسلر في إرسال كميات كبيرة على نحو مذهل من المعلومات الاستخباراتية التفصيلية. وشعر رادو بارتباك: من أين يأتي هذا الناشر المغترب الألماني المغمور بمثل هذه المعلومات الاستخباراتية؟ روسلر لم يكن يقول على نحو مباشر، ولكنه كان يلمّح إلى أن لديه أصدقاء سابقين في ألمانيا يتولون الآن مناصب رفيعة في القيادة العليا العسكرية الألمانية ويقومون بتزويد المعلومات إلى رجل يشاطرهم أفكارهم السياسية. وفي بعض الأحيان، كان روسلر يذكر مصادره بأسماء رمزية شخصية مثل وولتز وإنجي.

في نظر رادو، الخبير في لعبة الاستخبارات، فإن هذا لم يكن يعني شيئًا. وكانت معلومات روسلر الاستخباراتية جديدة دائمًا، وهذا يعني أنه يحصل عليها ساخنة من

مصادرها، وهذا هو الصحيح، وهو ما ينبغي قوله. ومن الواضح أنه كمغترب معادٍ للنازية، لا يستطيع الذهاب إلى ألمانيا، ومن ناحية أخرى، فإن الرسائل البريدية بطيئة جدًا، حين الأخذ في الاعتبار سخونة هذه المعلومات الاستخباراتية، ولذلك هناك تفسير واحد فقط يمكن أن يكون صحيحًا: مصادر روسلر تقوم بإرسال المعلومات الاستخباراتية عن طريق الراديو. ولكن هذا بعيد الاحتمال، ففي دولة البوليس النازي، حيث تخضع كل الرسائل اللاسلكية للرقابة على نحو شديد، هل يمكن أن يقوم خائنون من ذوي المستويات العليا بتحمل المخاطرة بالبقاء على الهواء لمدة ساعات في المرة الواحدة من أجل إرسال معلوماتهم الاستخباراتية؟

لم يكن رادو يملك إجابة على هذا السؤال، ولكن المسألة كانت معقدة جدًا، واستمرت معلومات روسلر في التدفق على نحو متزايد من حيث الكمّ والنوع، وفي ١٧ حزيران - يونيو ١٩٤١، جاء مسرعًا إلى الراديو حاملاً قنبلة استخباراتية: الألمان سوف يقومون بغزو الاتحاد السوفياتي في غضون أيام. وفي اليوم التالي، كانت هناك قنبلة أكبر: ترتيب كامل للوحدات القتالية التي سوف تقوم بالغزو، ابتداء من التشكيلات الرئيسية وانتهاء بالكتيبة الواحدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن روسلر قام بتزويد الاسم الرمزي للغزو (بارباروسا) والتوقيت الدقيق للغزو.

وكما بات معروفًا حتى الآن، فإن هذا كان المصدر الاستخباراتي الرئيسي الخامس الذي قام بتزويد تحذيرات دقيقة وتفصيلية عن الغزو الألماني، وكلها تجاهلها ستالين. وتلقى رادو رسالة توبيخية من مركز موسكو يحذره فيها من مغبة تمرير مثل هذه المعلومات الاستخباراتية "المضللة". ولكن موقف المركز تغير فجأة في صباح ٢٢ حزيران - يونيو، حينما بدأ الألمان هجومهم، بالتوقيت الدقيق والقوة العسكرية الدقيقة، تمامًا مثلما كشف عنها روسلر قبل بضعة أيام. وفي تلك

اللحظة، جرى ترفيع روسلر إلى عميل الاستخبارات النجم، وتلقى رادو أوامر بالحصول منه على كل ما لديه.

تقبّل روسلر الخدمة: ومن خلال تيار متدفق من المعلومات الاستخباراتية الهائلة في كل يوم تقريبًا كان روسلر يقوم بتزويد معلومات دقيقة حول أوامر هتلر التي تحكم الاتجاه الاستراتيجي للقوات الألمانية، علاوة على قوتها وموقعها وحجم كل الوحدات الألمانية في الجبهة الشرقية. والشيء الذي لا يمكن تصديقه هو أن روسلر قام بتزويد تقارير، وهي تقارير ربما أمكن الحصول عليها من مراكز القيادة في وكالة الاستخبارات الألمانية مباشرة، حول ما كانت الاستخبارات الألمانية تقوم بإبلاغه إلى هتلر عن المواقع الروسية وحجم القوات والخطط العسكرية. وحين أخذ هذا كله بعين الاعتبار، يمكن القول إن هذا الأمر ارتقى إلى مرتبة انقلاب مثير في الاستخبارات، ذلك أن الروس لم يكونوا يعلمون فقط عن القوة والخطط الدقيقة عند أعدائهم، وإنما أيضًا كانوا يعلمون عن مجال ودقة استخبارات الأعداء. ولم يحدث شيء من هذا القبيل أبدًا من قبل، ولم يتكرر منذ ذلك الحين.

من خلال رغبتهم الشديدة في جعل هذه "الوزّة الذهبية" تواصل وضع البيض، لم يحاول الروس ممارسة الضغوط على روسلر لحمله على الكشف عن كيفية حصوله على مثل هذه المعلومات التي لا تصدق. وكما لاحظت وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، ففي بعض الأحيان كان روسلر يقوم بتزويد معلومات استخباراتية تكتيكية حيوية مثل الخطط الألمانية ومحاور الهجوم حتى قبل أن تتلقى الوحدات القتالية البرية الألمانية أوامرها ببدء مسيرة الزحف. والشيء المهم هنا هو أن روسلر كان دقيقًا على نحو ثابت، ذلك أنه كان يتجنب تضمن معلوماته الاستخباراتية بكلمات مثل "من المتوقع" أو "ربما". ولو كان روسلر قال إن فيلقًا معينًا من المدرعات الألمانية سوف

يقوم بالهجوم في الساعة السادسة صباحًا في يوم معين وفي مكان معين، فإن الروس كانوا يعرفون أنهم يمكنهم المراهنة على أن فيلق الدبابات الألمانية سوف يقوم بالفعل بمثل هذا الهجوم. وقام روسلر أيضًا بتزويد أرقام تفصيلية عن الخسائر الألمانية الفعلية في الرجال والمعدات... وهي أرقام مغايرة لما يكشف عنه علانية بالطبع.

مع حلول أوائل العام ١٩٤٣، حينما بدأ تيار الحرب في الجبهة الشرقية في التحول إلى صالح السوفيات، والفضل الكبير يرجع إلى مصدرهم المحير في سويسرا، بدأ روسلر في تقديم تقارير عن الاستعدادات الألمانية السرية للقيام بآخر وأعظم لعبة بالنرد في الجبهة الشرقية. ومع اقتراب الربيع، كشف عن بعض التفاصيل الأخرى: حالما يسمح الطقس، سوف يقوم الألمان بهجوم كبير في الجبهة الجنوبية، بالقرب من بلدة كيرسك. ومن خلال حشد مئات الآلاف من الجنود والجزء الأعظم من المدرعات الألمانية، تقرر وضع خطة للضرب من بين الخطوط الروسية ثم القيام بعملية تطويق مزدوجة هائلة للقوات الروسية التي قوامها مليون جندي. وهذه العملية التي حملت الاسم الرمزي "زيتادل" في حالة نجاحها، سوف تلحق هزيمة بالاتحاد السوفياتي لن يشفى منها أبدًا. وعلاوة على ذلك، فمن شأنها استعادة الهيمنة العسكرية الألمانية بعد كارثة ستالينغراد.

وبتحذيرهم مسبقًا، فإن الروس قاموا باتخاذ الإجراءات الضرورية للدفاع في مواجهة الهجوم الألماني، وفي الوقت نفسه وضعوا خططًا لهجوم مضاد من شأنه تطويق المطوقين. وفي ما يتعلق بالمفاهيم الاستخباراتية، فإن هذا أسلوب في العمل محفوف بالأخطار، ذلك أن الأساس المنطقي الوحيد للاعتقاد بأن مثل هذا الهجوم الألماني بات وشيكًا جاء من جاسوس واحد. ولكن إيمان موسكو في لوسي كان في ذلك الوقت مطلقًا، وعلى ذلك الأساس قامر الروس بأنه على صواب.

وكما برهنت الأحداث، فإن روسلر، كالعادة، كان على صواب. وبدأ الهجوم الألماني في الزمان والمكان المحدّدين، وبالنتيجة، كان الروس ينتظرون. ومن قبل كانوا أقاموا دفاعات إلى ٧٠ ميلاً في العمق، وهي دفاعات كانت تعج بالمدافع المختفية المضادة للدبابات والمجموعات الصائدة للدبابات. وفي غضون أسبوعين، تمكن الروس من تحطيم الهجوم والقضاء على القوة العسكرية الهجومية الألمانية في الجبهة الشرقية. ومنذ ذلك الحين، تحول الألمان إلى الدفاع، ولم يتمكنوا أبدًا من الهجوم مرة أخرى. وفي حرب ضد عدو متفوق من حيث العدد، فإن ذلك كان يعني هزيمة مؤكدة.

كان انتصار الاستخبارات بالقرب من بلدة كيرسك آخر انتصارات روسلر، وبعد وقت قصير من بداية تقهقر الألمان، قام السويسريون فجأة بالتحرك ضد شبكات "الثلاثة الحمر" وإلقاء القبض على جميع العملاء والجواسيس النافعين. وتمكن رادو من تجنب الاعتقال من خلال الاختباء، بينما ترك روسلر، الذي كان يعتبر رسميًا جاسوسًا نافعًا يعمل لحساب الاستخبارات السويسرية، وشأنه. ومع أن روسلر لم يعد يملك وسائل لإرسال معلوماته الاستخباراتية إلى موسكو، فإن الحقيقة هي أن خدماته لم تعد ضرورية. وفي واقع الأمر، فمنذ أن انقلب تيار الحرب في الجبهة الشرقية على نحو لا رجعة فيه، فلم تعد هناك حاجة أخرى إلى "الثلاثة الحمر". ومن المثير للدهشة بدرجة كافية هو أن الشبكة حالما بدأت في فقدان الكثير من أهميتها، قامت الاستخبارات السويسرية باختيار اللحظة المناسبة لإغلاقها. وكان الألمان، العارفون بوجود شبكة "الثلاثة الحمر" منذ فترة عن طريق أدواتهم الاعتراضية للإشارات اللاسلكية، مارسوا ضغطًا على السويسريين منذ أكثر من عام لإغلاق هذه الشبكة.

ومع هذا، فإن نهاية لوسي تركت اللغز العظيم بدون إجابة: كيف تمكن هذا الناشر الألماني الخجول من جمع أشد الأسرار العسكرية الألمانية حيوية؟ وحينما سئل، قال

روسلر: "لست أعرف مصادري". ومع أنه ساد الظن على نطاق واسع أن هذا القول كان يشكل إعتزام روسلر حماية شبكة من الخائنين الألمان الذين قاموا بتزويده بالمعلومات الاستخباراتية، فبعد انقضاء حوالي ٣٠ عامًا بدأت تظهر بعض الدلائل الحيوية التي تفيد أن روسلر كان صادقًا في قوله.

الدليل الأول ظهر في أكداس سجلات الاستخبارات الألمانية التي كشفت عن أنّ مراقبي الراديوهات الألمان راقبوا بدقة حركة الإشارات اللاسلكية من ألمانيا إلى سويسرا، المعروفة بأنها مكان العمليات الاستخباراتية الرئيسية لدول الحلفاء. ووفق هذه السجلات، وجد الألمان أنه ليست هناك حركة ألمانيا - سويسرا تقريبًا، وإنما كان هناك فيضان حقيقي يتحرك من سويسرا إلى الناحية الشرقية. وشعر الألمان بالحيرة: من الواضح أن الشبكات في سويسرا، التي تقوم بإرسال رسائلها على الهواء لمدة ٢٤ ساعة في اليوم تقريبًا، لديها الكثير من المعلومات الاستخباراتية. من أين جاءت بهذه المعلومات إذن؟

الدليل الآخر الأشد أهمية ظهر في السبعينات، حينما أصبحت التفاصيل الأولية عن عملية "أولترا" البريطانية لفك رموز الشيفرة معروفة على نحو علني. ومن بين هذه التفاصيل هناك حقيقة مثيرة للانتباه:

في أوائل سنة ١٩٤١، واستنادًا إلى عمليات "أولترا" لفك رموز الشيفرة، قام البريطانيون بتحذير ستالين من أن هتلر يخطط لغزو الاتحاد السوفياتي. وهذا يعني أن البريطانيين كانوا يقرأون حركة الرسائل اللاسلكية العسكرية رفيعة المستوى الألمانية في ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك، فمن المعروف أن البريطانيين، من واقع شعورهم بالإحباط تجاه رفض ستالين تصديق معلوماتهم الاستخباراتية، شرعوا في إيجاد وسيلة أخرى لنقل استخبارات "أولترا" إلى الاتحاد السوفياتي مع المحافظة على المصدر.

وهذه المهمة قام بها كلود دانسي من جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، ومن خلال أنشطة دانسي وارتباطاته جاء لوسي إلى حيز الوجود.

ومهما كانت الأسئلة التي ربما ما زالت موسكو تريد الإجابة عليها حول روسلر، فإن مثل هذه الأسئلة أصبحت بلا مبرر يوجبها في العام ١٩٤٦ بسبب لوسي نفسه. وخلال الحرب كان روسلر يتقاضى حوالي ٨٠٠ دولار في الشهر من الروس مقابل خدماته، وهو مبلغ كبير في الأربعينات. ووضع روسلر كل سنت في دار النشر، ولكن مع نهاية الحرب، تعرض مشروع دار النشر إلى الفشل. وتحدث روسلر إلى كارل سيدلاشيك، العميل التشيكي المحنك الذي يعمل لحساب الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين. ووقع سيدلاشيك مع روسلر عقدًا لجمع المعلومات الاستخباراتية عن المواقع العسكرية الأميركية في ألمانيا، وانتظر وصول المعلومات الاستخباراتية الرائعة التي كان لوسي يقدمها إلى وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU.

ولكن، لم تكن مثل هذه المعلومات الاستخباراتية، ذلك أن تلك المصادر الرفيعة المستوى التي جعلت لوسي يومًا أسطورة إختفت على ما يبدو.

ومن موقعه في سويسرا، فإن أفضل ما يمكن أن يفعل روسلر هو جمع معلومات استخباراتية متدنية الدرجة جدًا، وهي معلومات اعتبرها التشيكوسلوفاكيون معلومات غير مثيرة للاهتمام. ومع هذا، فهم أبقوا عليه براتب شهري قدره ٤٠٠ دولار، على أمل حصولهم على معلومات استخباراتية أفضل.

ولكن المعلومات الاستخباراتية الأفضل لم تأت. وفي سنة ١٩٥٢، جرى إلقاء القبض عليه، ذلك أنه كان يرسل معلوماته الاستخباراتية إلى التشيك عن طريق ميكروفيلم موضوع في طرد بريدي يحتوي على مواد غذائية ومعنون إلى صندوق بريد دوسلدورف. وذات يوم، قام مكتب البريد بفتح طرد بريدي بسبب خطأ في كتابة

العنوان، وتبين أن هناك ميكروفيلمًا موضوعًا في مرطبان العسل. وبعد إلقاء القبض عليه في سويسرا، صدر حكم متساهل على روسلر بالسجن لمدة عام على أساس أنه لم يرتكب عملاً تجسسيًا ضد سويسرا. (ومن المفيد القول هنا أن هوسمان، صديقه القديم، تدخل بهدوء وقال كلمة طيبة إلى السلطات السويسرية). وخلال محاكمته، أصر روسلر على القول إنه لم يكن الجاسوس السوبر مثلما صوّرته أجهزة الإعلام. واعترف روسلر بتمرير معلومات استخباراتية إلى السوفيات خلال الحرب في سبيل المساعدة في هزيمة ألمانيا النازية، ولكنه كرر القول: "لست أعرف مصادري".

في نظر الروس، فإن هذه السلسلة من الظروف شكلت دليلاً نهائيًا على أن روسلر عمل كقناة للبريطانيين. ومن الواضح أن هذه "المصادر رفيعة المستوى" الملفقة، مثل وولتر وإنجي لم تكن موجودة، وروسلر نفسه رفض إلقاء أي ضوء على هذه المسألة، وحتى موته بالسرطان في ١٩٦٢ كان يفضل البقاء لغزًا محيرًا. واستمر في نشر بحوث دينية كثيفة، غير أن أيًا من هذه البحوث لم يقدّم دليلاً واحدًا على دوافعه الخاصة به، باستثناء تركيزه الشديد في كل أعماله على مسألة الخير والشر. ومن الواضح أن لوسي اعتبر نفسه خبيرًا في هذه المسألة[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٩) ص٣٣٣ ـ ٣٤٣.

يوشيو كوداما، وريواتشي ساساكاوا

أُصيب "يوشيو كوداما Yoshio kodama" الإرهابيّ ومجرم الحرب والجاسوس والعميل السرّي وعرّاب الوسط الياباني بذبحة قلبيّة خلال شهر كانون الثاني ـ يناير من عام ١٩٨٤، نُقل على أثرها إلى مستشفى طوكيو حيث توفّي هناك عن عمر يناهز الاثنين وسبعين عامًا، مخلّفًا وراءه ماضيًا مليئًا بالأحداث. ويدلّنا بيان نشر عن الشخصيّات التي توفّيت خلال تلك الفترة صادر عن الصحافة اليابانيّة والدوليّة، على أن كوداما كان ينتسب إلى الشركة الأميركيّة "لوكهيد Lockhed" الخاصّة بأنظمة الطيران.

ظلّ الشريف يوشيو كوداما يُعتبر، لمدّة طويلة، على أنّه "العميل السرّي" لشركة صناعات الطائرات الأميركيّة الموجودة في اليابان، وفي العالم أجمع، من خلال تورّطه في فضيحة واسعة تقوم على أساس إعطاء عدد من كبار الموظّفين في الدولة مبالغ تصل إلى ملايين الدولارات مقابل أن تقوم حكوماتهم بتزويد قوّات الجيش التابعة لهم، بطائرات اللوكهيد.

بقي يوشيو كوداما، رغم جميع إسقاطات هذه القضيّة، يتمتّع حتّى آخر يوم من عمره بسلطة تميّزه في جميع أنحاء طوكيو. إذ إنّ الحكومات تتغيّر في حين يظلّ كوداما، من خلال تفضيله البقاء خلف الكواليس السياسيّة على الظهور إلى نور الحياة

السياسيّة، واحدًا من هؤلاء الذين صنعوا وخرّبوا هذا العالم. ويعود عدم تمكّن كوداما من تولّي المناصب الرفيعة في الأوساط الحكوميّة، إلى أنّه بقي في نظر الجميع يُعتبر واحدًا من مجرمي الحرب السابقين. كان الأميركيّون قد أدرجوا إسمه خلال عام ١٩٤٥ على قائمة لائحتهم السوداء، وضمن الفئة أ Class A.

لقد سبق لكوداما أن اشتهر قبل بداية الحرب العالميّة الثانية، باشتراكه في العمل مع مجموعة إرهابيّة مسؤولة عن عشرات من حوادث قتل رجال السياسة اليابانيّة والقضاة الشديدي الاعتدال، تلك الحوادث التي أودت إلى دخوله السجن لأوّل مرّة. ثمّ جاءت الحرب العالميّة الثانية لتتيح المجال أمامه لاكتشاف النشاطات الأخرى التي تعطي مردودًا أكبر، حيث يعود جزء من ثروته الشخصيّة الضخمة إلى تلك الحقبة التي جاءته مع غيرها بالأموال عن طريق بيع معلومات عسكريّة إلى القوّات المسلّحة اليابانيّة التي غزت الصين.

وما إن بلغ كوداما الثلاثين من عمره، حتّى أصبح يمتلك ثروة حقيقيّة ضخمة مكوّنة من ألماس وبلاتين، استولت قوّات الاحتلال الأميركيّة في اليابان على نصفها في حين كان النصف الآخر منها هو الأساس في تألقه الساطع مباشرة بعد انتهاء الحرب.

ها هو يوشيو كوداما يشهد يوم استعادة اليابان للهراكيري، وهي الطريقة اليابانيّة في الانتحار ببقر البطن تخلّصًا من العار... وقد شهد ذلك في حادثة الأميرال "أونيشي"، وهو الرجل الذي قام بتنظيم جماعات "الطيران الانتحاري" حيث شوهد يضغط على كفّيه الملوّثين بالدم، مباشرة بعد رؤيته الأميرال يغرز سيفه في بطنه... وقد علّق حول هذا الموضوع في مذكّراته قائلاً: "إنّني لم أستطع منع نفسي من البكاء".

تمّ إرسال كوداما إلى السجن مع كوداما مع عشرات من مجرمي الحرب التابعين للفئة أ Classe A بعد توقيفهم من قبل الأميركيّين، حيث أخذ ينتظر دوره في الإعدام شنقًا، ذلك الانتظار الذي استمرّ مدّة ثلاثة أعوام، قام أخيرًا الأميركيّون خلالها باتّخاذ قرار أنّ إبقاء كوداما حيًّا سيفيدهم أكثر من موته.

كان بإمكان الشريف يوشيو كوداما، في حقيقة الأمر، تقديم ما يهمّ المحتلّين ويفيدهم. إضافة إلى أنّ تجارة الأسلحة والحرب، أتاحا المجال أمامه للسير بأولى خطواته في عالم الاستخبارات والجاسوسيّة. ذاك الذي دفعه، على سبيل المثال، ليقدّم لبلاده المعلومات الدقيقة حول تحرّكات المجموعات الصينيّة، وبذلك أخذت تجربته تزداد ضرورة وفائدة بالنسبة للأميركيّين، الذين وقفوا، آنذاك، في وجه التيّار الاشتراكي السائد في قارّة أوروبّا، وهكذا لم يتردّد كوداما أبدًا، بعد خسارة بلاده، في وضع خدماته تحت تصرّف وإمرة عدوّه السابق.

لم يقدّم يوشيو كوداما إلى المحكمة إطلاقًا، وذلك على الرغم من اعتباره واحدًا من مجرمي الحرب. بل على العكس تمامًا، فقد قام بعد خروجه من السجن، بالاشتراك في تنفيذ العديد من العمليّات السريّة إمّا لصالح مقاطعة الدولة الأميركيّة أو لصالح المخابرات الأميركيّة المركزيّة CIA. وها هم الأميركيّون ينفّذون، يوم إطلاق سراحه، حكم الإعدام بأشهر الشخصيّات التي اعتقلوها، إنّه رئيس الوزراء السابق الجنرال "توجو". إنّه تنفيذ حكم رمزي، إذ إنّه، كما سنرى لاحقًا، لم يكن كوداما هو السجين الوحيد التابع للفئة أ الذي أتيح له استغلال الفرصة، وبذلك ما إن جاء عام ١٩٤٨ حتّى كنّا على شفا بداية حرب باردة.

أصبح الياباني يوشيو كوداما، بعد خروجه من السجن، واحدًا من أقوى الرجال في اليابان. وكان قد بلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا. إذ إنّه أقام، خلال

وجوده في السجن، علاقات صداقة متينة، ويبدو أنّه أخذ الآن يستفيد مـن ثـروات غير محدودة.

كان هناك استحالة معرفة ما إذا كانت هذه الأموال التي حصل عليها آنذاك جاءتـه من ثروته الحربيّة، أو، حسب ادعاء الصحافة اليابانيّة، عن طريق المخـابرات السـريّة الأميركيّة. مهما كان الأمر، فقد قام كوداما، حسب اعترافه هـو نفسـه، بتمويـل الزعيم الجديد لحزب الأحرار ""إيشيرو هاتوياما"، الذي سيتولّى، فـي مـا بعد، منصب رئيس وزراء اليابان. إضافة إلى أنّ القصّة تعود إلـى أنّ كوداما نفسـه كـان اختصاصيًّا فـي مجال تمويل الشركات التي تدير الحملات الانتخابيّة، تلك الشركات التي ستديرها لاحقًا الحكومات اليابانيّة. وهكذا أصبح كوداما مع بدايـة الستّينات الـروح الشيطانيّة لشـركة لوكهيد في اليابان. وكان عليـه دفـع عـائدات كبيرة لأصدقائـه مـن المخـابرات السـريّة الأميركيّة... وقد قدّمت له الشـركة، فـي الحقيقـة، مـا يزيـد عـن سبعة ملايين دولار، بهدف الاستفادة من علاقاتـه مـع الأوسـاط السياسـيّة... وتـمّ بفضلـه بيـع حوالـى ٢٣٠ غوّاصـة إلـى اليابـان مـن طـراز "ستارفايترز"، وعـدد ممـاثل مـن طـراز "أوريونـز" و"تريستار".

أوضح التحقيق الرسمي أنّه تمّت هذه العمليّة تحت إشراف المخـابرات الأميركيّـة CIA إذ كانت موافقة الوكالة مطلوبة وضروريّة في كلّ عمليّـة تحويـل... وأُعلـن عـن قضيّة كوداما بعد انتشـار فضيحـة لوكهيـد حيـث أعيـد بهـذه المناسـبة فتـح العديـد مـن المآسي والمشاكل بينما أخذت فترة ما بعد الحرب في اليابان بعدًا أشدّ قلقًا وتوتّـرًا ممّـا قدّمتـه القصـص والروايـات الرسـميّة. إذ تـمّ الكشـف عـن التوظيـف الأجنبـي لبعـض مجرمي الحرب وعن الكيفيّة التـي استخدمها الأميركيّون لتغطيـة مـاضيهم، فـي حـال رغبتهم بذلك.

تسلّم الأميركيّون مباشرة عند وصولهم إلى بلاد الشمس الساطعة هديّة ستكون لاحقًا هامّة جدًّا بالنسبة له، هي عبارة عن ملفّات مرتّبة تمامًا ومصنّفة على أكمل وجه، خاصّة بالاستخبارات اليابانيّة المسمّاة "كيمبتي Kemptai" (البوليس العسكري السرّي) والـ"توكو Tokko" (الشرطة الخاصّة الرفيعة المستوى التابعة لوزارة الداخليّة). وقد أُعطي هذا الكمّ من المعلومات الحقيقيّة إلى الكولونيل "ت. ب. دايفيز"، وهو الرئيس المحلّي للاستخبارات العسكريّة الأميركيّة. وستتيح هذه الملفّات المجال أمام الأميركيّين للتغلغل داخل جهاز المخابرات اليابانيّة السريّة، التي سيطلق عليها منذ ذلك التاريخ إسم "وكالة الأمن الشعبي والوكالة الوطنيّة للشرطة". ولكن لن تسير هذه العمليّة بلا شكّ، دون التسبب بإثارة بعض المشاكل، إضافة إلى احتياج الأميركيّين إلى الأخصّائيّين. تُرى أين سيعثر الأميركيّون على أمثال هؤلاء الاختصاصيّين إذا لم يعثروا عليهم بين مجرمي حرب الفئة أ؟ وهكذا فإنّ استرداد هؤلاء المجرمين سيعمل لصالح الحقيقة، كما أثبتت رواية العقيد "شيرو إيشي" قائد الفوج ٧٣١ من الجيش الأمبراطوري الياباني أثناء فترة غزو الصين.

أخذ الجيش الياباني بالانتشار خلال عام ١٩٣١ على شاطئ الـ"ماندشوري"، وجاء الفوج ٧٣١ الأمبراطوري ليتّخذ أماكن مقرّاته الجديدة داخل مدينة "هاربين" الصينيّة. ثمّ ما لبث أن تمّ تكليف هذا الفوج، بعد مرور فترة زمنيّة، بمراقبة معسكر السجناء هناك حيث بدأ العلماء اليابانيّون، مع بداية عام ١٩٣١ إجراء تجارب بهدف تطوير الأسلحة البيولوجيّة. كانت "خنازير التجارب" تعود في أصلها إلى سجناء صينيّين، أصبحوا خلال عام ١٩٤٢ روسيّين وأميركيّين اعتقلهم اليابانيّون. وقد قدّر وفاة ثلاثة آلاف سجين أثناء فترة إجراء هذه التجارب إذ كان اليابانيّون يريدون على الخصوص معرفة ما إذا كانت مقاومة الأمراض المميتة تتعلّق بأصل وجنسيّة المريض، لذا فقد

قاموا بتطعيمهم التيفوس والكوليرا والطاعون والسفلس... في حين اختصّت تجارب أخرى بما يتعلّق بمقاومة الغرغارينا، والموت من شدّة البرد، والغمر في مياه الغليان...

ثمّ جاء وصول قوّات الجيش الأحمر إلى هاربين خلال شهر آب ـ أغسطس ١٩٤٥، ليضع نهاية للتجارب التي يجريها شيرو إيشي. وقد انتبه اليابانيّون كثيرًا قبل مغادرتهم معسكرهم إلى إزالة كلّ أثر لوسائل تعذيبهم، حيث سُمّمت جميع الخنازير التي بقيت على قيد الحياة بالغازات، وذلك من جرّاء نسف الجنود اليابانيّين للمكان والأبنية فيه بواسطة الديناميت. وأخيرًا فرّت غالبيّة الـ ٣,٦٠٠ عضو من الفوج، بمن فيهم شيرو ايشي، إلى اليابان، في حين لم يتوصّل السوفيات إلاّ لاعتقال البعض منهم فقط، وهم الذين حكم عليهم مباشرة على أنّهم مجرمو حرب.

لم تحضر الصحافة الغربيّة إجراءات تلك المحاكمة... ترى هل كان ذلك بتأثير من قوّات الاحتلال في اليابان؟ لم يكن الأميركيّون خلال تلك الحقبة يتردّدون أبدًا في التحدّث عن "الدعاية السوفياتيّة"، وخاصّة بعد التصدّي لموضوع تواجد معسكر هاربين والتجارب التي أدّت لوجوده.

في حين كانت حقيقة هذا الصمت لقوّات الاحتلال تكمن في اتّفاق سابق أبرم مع شيرو إيشي بحيث أصبحت مصطلحات السوق واضحة جدًّا: لن يكون هناك محاكمة لإيشي ومجموعته في حال تعاملهم مع الأميركيّين وتقديمهم نتائج "أبحاثهم"، وسيكونون "محترمين جدًّا"... وما إن جاء عام ١٩٥٩ حتّى توفّي الشريف شيرو إيشي على فراشه في منزله.

بعد مرور ٢١ عامًا على حدوثها، انتشرت القضيّة، وذلك عندما قامت مجلّة Bulletin of the Atomic Scientists بنشر مقالة عنوانها "الحرب الجرثوميّة اليابانيّة:

خنق الأميركيّين لجريمة حرب"، بقلم الأخصّائي الياباني الذائع الصيت "جـون بوويـل"، في حين قام الكاتب اليابـاني "سايشـي موريمـورا" عـام ١٩٨٢ بنشـر كتـاب حـول هذه القضيّة، يؤكّد فيه قائلاً: "يتمتّع غالبيّة الباحثين في وحدة هاربين حاليًّا بمكانة هامّـة فـي الأوساط الطبيّة اليابانيّة، لدرجة أنّ البعض منهم يدرس فـي كـلّ مـن جامعـات الدولـة والجامعات الخاصّة... وتشير الصحافة الأميركيّة إلى قيام المستشار السياسي للجـنرال "ماك آرثر" المدعو "وليـام سيبالد"، والـذي لـم يكـن فـي الحقيقـة إلاّ السـفير الأميـركي الحقيقي في اليابان، بلعب دور بارز في تزييف الحقيقـة. وقـد تدخّـل فـي شـهر كـانون الثاني ـ يناير ١٩٤٩ أمام مجلس الحلفاء للحديـث عـن مشـكلة تجـارب هـاربين، مبعدًا الشبهات عن الاتّهامات السوفياتيّة.

يدّعي سيبالد عدم معرفته بوجود محاكم بمثابـة أدوات بيـد السـوفيات، وتعمـل فـي مواجهة الجنود المعتقلين. كان من الصعب تصديق هذا الأمر باعتبار أنّ وليـام سـيبالد واحد من الخبراء النادرين في اليابان، الذين يحملون الجنسيّة الأميركيّة. إضافة إلى أنّ إيمانه الصادق بمبدئه يجعل الادّعاء حوله في أنّه واحد من الذيـن سـاهموا فـي محادثـة مجرمي الحرب اليابانيّة بعيدة عن الشبهات...

غادر وليام سيبالد البـلاد عـام ١٩٤٥، متوجّهًا إلـى اليابـان، برفقـة الجنـرال مـاك آرثر... أي إلى أرض يعرفها حقّ المعرفة، باعتبار أنّـه سبق أن عـاش وعمـل عليهـا خلال الأعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٩، حيث اشتغل في بادئ الأمر كملحق بحـري ثمّ محـام. ثمّ ها هو يشاهَد مع نهاية الحرب العالميّة الثانية، وهو يعـارض مغـادرة البـلاد لتوجيـه رجال الشرطة له تهمة التجسّس لصالح الولايات المتّحدة الأميركيّة.

أصبح سيبالد مباشرة بعد هجوم "بيرل هاربور" فـي عـام ١٩٤١ عضـوًا فـي قسم المخابرات الملاحيّة الأميركيّـة التـابع للشـرق الأقصـى. وقـد قـام سـيبالد آنـذاك وأثنـاء

استقراره في واشنطن، بتقديم مخطّطات لإعادة بناء اليابان من جديد مباشرة بعد انتهاء الحرب.

لم يكن سيبالد هو الوحيد المتعامل مع الأميركيّين، بل اشترك معه عشرة من كبار الموظّفين والصناعيّين ليشكّلوا معًا ما يُطلق عليه عادة إسم "عصابة اليابان" وكان هدفهم الضغط على الحكومة الأميركيّة من أجل المحافظة على النظام الياباني الإمبريالي.

أمّا بالنسبة إلى سيبالد، فقد عُيّن، من خلال تأثير هذه "العصابة اليابانيّة" كموظّف في مقاطعة الدولة، حيث تمّ تكليفه بإعادة بناء أمبراطوريّة الشمس الساطعة. كما أوكلت إليه مهمّة القيام بوظيفة نائب ومستشار للجنرال ماك آرثر. وما يزال تاريخ "عصابة اليابان" قيد الكتابة. ولكن توصّل البعض إلى الحصول على معلومات قليلة حول العدد الدقيق لأعضاء هذه العصابة، من دون معرفة أيّ شيء حول المصالح الاقتصاديّة التي يمثّلها... تلك المصالح التي كانت تمثّل، بلا شكّ، كبرى الشركات الصناعيّة الأميركيّة. ولكن من المؤكّد تمامًا تحرّك الجميع من خلال شعور واحد مقاوم للشيوعيّة، دفعهم إلى الدفاع عن القيم التقليديّة اليابانيّة، اجتمع عليه مجرمو الحرب في الفئة أ.

يُعتبر الصحافيّ "هاري ف. كيرن" واحدًا من بين المسؤولين في هذه العصابة والمديرين لها، وهو يتمتّع بشخصيّة غريبة الأدوار، عمل كجاسوس ثمّ عاد متأخرًا للعمل في مجال السياسة والقضايا. وقد شغل منصب رئاسة زاوية "الأخبار الأجنبيّة" في مجلّة نيوزويك الأسبوعيّة، إضافة إلى علاقته بالمخابرات الأميركيّة السريّة في مجال تطويع عمّال سريّين من حوله وفي مجال عمله، حيث أوكل، على سبيل المثال، رئاسة مكتب النيوزويك في طوكيو إلى جندي سابق في السفارة البريطانيّة في اليابان،

كان قد اتُّهم بأنّه عمل للمخـابرات البريطانيّـة، لـذا فقد كـان أوّل قرار لـه هو تشغيل عملاء الـ CIA الثلاثة. أضف إلى أنّه كان يعتبر "ماكس بيشوب" واحدًا من مستشـاريه الرئيسيّين، بيشـوب ذاك الـذي كـان يديـر خـلال عـام ١٩٤٩ العمليّـات السـريّة التابعـة لمجلس الأمن الوطني.

كان وليام سيبالد ورجاله هـم الذين وضعـوا السياسـة التـي أعدّهـا "هـاري كـيرن" حـيّز التنفيـذ. تلـك السياسـة التـي تضـمّ العديـد مـن الاختصـاصيّين فـي مجـال الاستخبارات أمثـال "أوتيـس كـاري" المولـود فـي اليابـان وابـن مراسـل أمـيركي، أو "إدوارد زايدينشـتيكر" جنـدي الاسـتخبارات فـي مجـال البحريّـة والأخصّـائي فـي الحرب النفسيّة.

أمّا في واشنطن، فكان سيبالد يستفيد من دعـم ومسـاندة كبـار الموظّفين لـه أمثـال السكرتير المساعد للدولـة "روبيرت لوفيـت"، وسـكرتير الجيـش "كينيـث رويـال"، والسكرتير المساعد في الجيش الجنرال "وليام درابر"، إضافـة إلـى تعاملـه الدبلوماسـي مع الجميع، من خلال معارضته لسياسة الجنرال دوغلاس ماك آرثـر المعدّلـة بطريقـة شديدة الفعاليّة والتأثير، مع عدم تعريض نفسه ورجاله للصعوبات والمشاكل.

لم يكن الجنرال ماك آرثر بعيدًا، آنذاك، أبدًا عن أن يصبح الهدف الأساسي لهاري كيرن وأصدقائه من "عصابة اليابان"، حيث تمّ التعارف بينهم مع بداية عام ١٩٤٨ مـن خلال تأسيس المجلس الأميركي حول اليابان المسمّى ACJ، الذي سيقدّم لهم مجموعـة تمارس ضغطًا على السلطات العامّة لإنجاح مصالح خاصّة، هدفهـا نشـر أفكارهـا فـي جميع أنحاء واشنطن. إضافة إلى قيام الوطنيّين المقتنعين بالحرب البـاردة التـي نشـبت مع الاتّحاد السوفياتي والـ ACJ بتجميع ممثّلي الشركات الأميركيّة حولهم، وخاصّة تلك الشركات التي تمتلك مصالح ضخمة في اليابان. وبذلك لم يصـادف كـيرن أيّ صعوبـة

في أن يجمع وراءه جميع قوّة الوسط المتحفّظ تجاه قضايا وشؤون الولايات المتّحدة الأميركيّة.

وهكذا فقد اشتهر كيرن بمواقفه العنيدة والثابتة، بل وحتّى الفاشيّة. إذ ألم تقم مجلّة نيوزويك عام ١٩٤٢ وبأمر منه، بنشر مديح لموسوليني من خلال عبارة "إنّه ذاك الذي أنقذ إيطاليا من الشيوعيّة"؟ هذا وتوصّل كيرن أيضًا إلى الحصول على دعم الصحيفة للجنرال فرانكو... وبذلك نجد أنّ "عصابة اليابان" أرادت جعل اليابان دولة قويّة، متينة وثابتة، ومعارضة للشيوعيّة. ورأت أنّ الوسيلة الأفضل لتحقيق ذلك تكمن في تنفيذ عمليّتي تغيير بسيطة داخل النظام الأمبراطوري الياباني. هذا التغيير المعارض في جذوره لسياسة الحكومة الأميركيّة الرسميّة أثناء حقبة نهاية الحرب العالميّة، ولوضع ومركز رئيس قوّات الاحتلال في اليابان آنذاك، الجنرال ماك آرثر.

توصّل كيرن وحلفاؤه على مدى عامين كاملين إلى تحويل خطّ سير السياسة الأميركيّة في اليابان، لدرجة أنّه تمّ إهمال الفعاليّات الموالية لماك آرثر فقط بعد مرور عدّة سنوات على استرداد اليابانيّين لبلادهم.

هذا وقد نجحت "عصابة اليابان" أيضًا في تحرير القسم الأكبر من النخبة اليابانيّة المتورّطة في سياسة النظام الفاشيّ. هؤلاء الذين أصبحوا "رجالاً تابعين للأميركيّين"، شكّلوا بعد الحرب ما يسمّى بالنخبة اليابانيّة الجديدة. إضافة إلى أنّ عمل كيرن ذاك جعله لقمة سائغة في فم المخابرات المركزيّة CIA التي فوّضت عنه واحدًا من جنودها هو "كيرمت روزفلت".

***

لم يتوقّف مجرمو الحرب السابقون عن البحث، بكلّ حريّة، لاستعادة سلطتهم بعد الحرب. ولكن تعتبر حالة بحث "توبوسوك كيشي" هي الحالة الأكثر لفتًا للأنظار. كيشي ذاك الذي انتُخب عام ١٩٥٧ رئيسًا لوزراء اليابان بعد حصوله على منصب وزير التجارة والأغذية في الحكومة التي تولّى رئاستها "توجو". ويعود الفضل في انتخابه رئيسًا للوزراء إلى أصدقائه السابقين في المعركة، ثمّ إلى بعض الشخصيّات أمثال يوشيو كوداما الذي قام بتمويل حملته الانتخابيّة، وإلى كيرن وأصدقائه المقرّبين منه جدًّا.

هذا ويعود النجاح الأكبر للـ ACJ بالتأكيد، على منعهم خلال السنوات ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ حلّ وإعادة تنظيم جميع القوى المندمجة الصناعيّة اليابانيّة المسمّاة "تسايباتسو"، وهي عمليّة شديدة الحذر. وها هو ماك آرثر المتحرّك، على ما يبدو، من مركزه كزعيم، يقوم خلال شهر حزيران ـ يونيو ١٩٤٧ بحلّ أكبر قوّتين تابعتين للتسايباتسو، هما: "ميتسوي بوسمان"، و"ميتسوبيتشي شوجي"، حيث ركب كيرن، آنذاك، الطائرة متّجهًا إلى اليابان بهدف الضغط والتأثير على الجنرال ومن حوله. في حين كانت مجلّة نيوزويك تدخل ميدان المعركة خلال نفس الفترة، وذلك من خلال نشرها المقالات المتعدّدة وتقديمها "الإدعاءات" حول اليابان بعد الحرب العالميّة الثانية.

كان هناك أيضًا خلال الشهر نفسه، السكرتير المساعد الجديد في الجيش، الجنرال "درابر"، الذي وصل إلى اليابان بهدف تقديم الدعم والمساعدة لسياسة "العصابة". ومن الجدير ذكره هنا، أنّه سبق لهذا الرجل أن حصل على لقب "الاستراتيجي الاقتصادي في الحرب الباردة"، وذلك أثناء ممارسته عمله كرئيس للقسم الاقتصادي في الحكومة الأميركيّة بألمانيا المحتلّة. وكان هناك مهمّة أميركيّة أخرى، ينفّذها "واضع نظريّات آخر عن الحرب الباردة" هو "جورج كنان"، وذلك من خلال زيارته لماك آرثر في

شهر آذار ـ مارس ١٩٤٨، تلك الزيارة التي دعمت جميع الدعايات التي قادتها "عصابة اليابان".

لكن ما إن جاء عام ١٩٤٨، حتّى تحقّق النصر. إذ لم يتمّ حلّ المندمجات الصناعيّة، إضافة إلى تبرئة جميع مجرمي الحرب تقريبًا. في حين لم ينسَ الأميركيّون إتمام حياكة القصّة وذلك من خلال تنفيذ حكم الإعدام شنقًا بسبعة من مجرمي الحرب التابعين للفئة أ، كان قد صدر الحكم بشأنهم مسبقًا. أمّا بالنسبة للثمانية عشر الآخرين، الذين كان يُنتظر صدور الحكم بشأنهم، فقد تمّ بكلّ بساطة إطلاق سراحهم... ومن بينهم "نوبوسك كيانتشي" وكوداما، ورجل ثالث كانت اليابان تنتظر سماع أخباره... إنّه "ريوانتشي ساساكاوا Ryoichi Sasakawa"...

... بدأ الحظّ السعيد، مع بداية الثمانينات، يحالف مواطنًا يابانيًّا عاديًّا، لدرجة أنّه تعرّض لجملة من الدعاية التلفزيونيّة، مباشرة بعد استلامه مركزه الوظيفيّ، بحيث أنّه تمكّن من رؤية العجوز القصير الذي يزيد عمره عن الثمانين عامًا وهو يتفاخر باستحقاقات حزبه السياسيّ "البحر الأزرق والأرض الخضراء". أمّا إسم هذا الرجل فهو "ريواشي ساساكاوا"، الذي كان يتمتّع آنذاك بمركز مرموق بين المستثمرين العشرة، الخاصّين والاشتراكيّين المختلطين، ضمن إعلانات البلاد المتلفزة. وتقدّر ثروة ساساكاوا بما يقارب المليار دولار، منها ٦٠ مليون في العمل، و٥٠٠ مليون سيولة، والباقي مستثمر ضمن مؤسّسات مختلفة.

هذا هو السبب الذي مكّن ساساكاوا من التأكيد بمنتهى الكبرياء التي اعتاد عليها قائلاً: "إنّني الفاشي الأكثر ثراء في العالم".

لكنّ ما يجهله الشعب اليابانيّ هو أنّه في حال تمكّن ساساكاوا من السماح لنفسه بالادّعاء والتبجّح، فذلك يعود بالتأكيد إلى الأميركيّين.

كان ساساكاوا صديقًا ليوشيو كوداما، وزميلاً لشيرو إيشي، أثناء اعتقاله، إذ إنّه كان مثلهما واحدًا من مجرمي الحرب التابعين للفئة أ، الذين أطلق الأميركيّون سراحهم بسبب الحرب الباردة.

وُلد ساساكاوا عام ١٨٩٩ في "مينو" بالقرب من "أوساكا"، ودخل مجال السياسة مباشرة بعد إنهائه الخدمة الإلزاميّة، وأخذ يوطّد اعتقاداته باليمين المتطرّف ضمن السياسة اليابانيّة، وذلك باعتبار أنّه قام خلال عام ١٩٢٧ بتأسيس الشركة الوطنيّة للدفاع "كوكوبوشا"، تمّ قام بتأسيس حزب مجموعة الشعوب الوطنيّة "كوكوسوي تايهوتو" خلال عام ١٩٣١. ونجد يوشيو كوداما من بين الأعضاء الآخرين المؤسّسين لهذا الحزب الفاشيّ.

لم يمنع النشاط السياسيّ ساساكاوا آنذاك من تكوين ثروة بواسطة سياسة اليابان في الانتشار العسكري ضمن كلّ من منشوريا والصين، حيث قام، في بادئ الأمر، بتشجيع هذه السياسة من خلال منظّماته ليحصل، في المرحلة الثانية، على جميع الفوائد الاقتصاديّة للحالة. ولكن ها هو ساساكاوا يذهب خلال عام ١٩٣٦ إلى أبعد من ذلك، حيث تمّ توقيفه بتهمة التورّط في فضائح مختلفة. وقد وجّهت إليه الشرطة تهمة تأسيس نوع من نقابات الإجرام، قائمة على أساس ابتزاز الأموال والمعاقبة في حال التبليغ عن الخيانة المرتكبة ضدّ مصالح الأمبراطوريّة.

قام ساساكاوا أيضًا بتأسيس قوّة طيران خاصّة مؤلّفة من ٢٠ طائرة ومطار خاصّ في أوساكا سيقدّمه لاحقًا إلى الجيش. وها هو يحلّق عام ١٩٣٩ على متن واحدة من طائراته إلى إيطاليا، ليقابل هناك الديكتاتور موسوليني، كما قام آنذاك بنهب ملايين الدولارات من التجّار الصينيّين والأثرياء بمساعدة كوداما وبعض من النصّابين المقرّبين من حزب "كتلة الشعوب الوطنيّة"، مفسّرًا ذلك على أنّه كان يتوقّع المساهمة

في حرب ضدّ الصين. وتمّ خلال عام ١٩٤٢ انتخاب ساساكاوا في "دييت"، مع برنامج سياسيّ يطالب فيه بتنفيذ العديد من العمليّات الحربيّة داخل أراضي جنوب شرق آسيا.

لم تتوقّف نشاطات ساساكاوا عند هذا الحدّ، إذ إنّ اسمه احتلّ مكانًا هامًّا في قائمة مجرمي حرب الفئة أ. وقد أُبقي القبض عليه وزُجّ في السجن، حيث وجد صديقه في السلاح يوشيو كوداما، وتقاسم الزنزانة معه على مدى ما يقارب الثلاثة أعوام. كما أقام، بشكل خاصّ، علاقات وطيدة مع العسكريّين الأميركيّين الذين لم يتوانوا أبدًا عن إبداء رأيهم والتعبير عن إعجابهم بمعارضته للشيوعيّة. وربّما يكون هذا هو السبب الذي دفعه إلى التصريح في ما بعد قائلاً: "لقد كانت مدّة إقامتي في السجن فترة إجازة من الله تعالى".

تعود ادّعاءات ساساكاوا وأفكاره المعارضة للشيوعيّة إلى ماضيه كمجرم حرب، تلك الصفة التي استفاد منها، مثله مثل باقي مجرمي الحرب السابقين، لإطلاق سراحه، الذي تمّ أيضًا بتأثير من الجنرال "وليوبي" اليميني المتطرّف والذي كان مسؤولاً عن استخبارات القوّات الأميركيّة... وهكذا فلم يفقد ساساكاوا أيّ من حدّة فكره الفاشيّ. إذ عاد خلال عام ١٩٥٤ إلى الانضمام لجمعيّة الفضائل العسكريّة "بوتوكو كاي" التي استعادت نشاطها. تلك الجمعيّة التي كانت تمثّل بعد حقبة ما بعد الحرب، واجهة لمجموعة لا بأس بها من التأثير العسكري، وكان فيها ثلاثة آخرون من مجرمي الفئة أ، كان من بينهم مدير أكبر شركة يابانيّة لصناعة الذخيرة "ميتسوبيشي"، وواضع نظريّة "تعدّد الجنسيّات العسكريّة" ورئيس الوزراء "يوشيدا شيكيرو"، الذي كان يدير أولى عمليّات إعادة عسكرة ما بعد الحرب.

ها هو رايوانشي ساساكاوا يدّعي، بعد مرور عشرين عامًا، أنّه كان يترأس جيشًا خاصًّا مؤلّفًا من ثمانية ملايين جندي... ربّما تكون كلمة "جيش" هنا ليست دقيقة، ولكن

ما هو مؤكّد عدم المبالغة في رقم العدد. وقد يكون هذا العدد ناتجًا، حسب بعض المراقبين، من مجموع أعضاء ثلاثين منظّمة كان يترأسها ساساكاوا. فهناك، على سبيل المثال، نوادي تعليم الكاراتيه التابعة له والتي تضمّ حوالى مليون منتسب، إضافة إلى أولئك المكرّسين خصيصًا للرقص بالسيف والذين بلغ عددهم ما يقارب المليوني ونصف مليون متدرّب... والجدير ذكره هنا هو أنّ أحدًا من هؤلاء لم يتردّد في الموت في سبيل ريوانتشي ساساكاوا، ولم يكن أمامه إلاّ خطوة واحدة ليجتاز بكلّ فرح وسرور حدّ الحياة إلى الموت...

إنّ هناك من بين جميع الجمعيّات التي كان يرأسها ساساكاوا بعض ممّن يعلنون بشكل واضح عن أفكارهم اليمينيّة المتطرّفة. هذا ما كان عليه الحال مع الفيدراليّة الدوليّة للانتصار على الشيوعيّة IFFVOC التي كانت تضمّ ١٦٠ ألف عضو، معظمهم من جيل الشباب المسلّح تسليحًا كاملاً.

ظلّ ريوانتشي ساساكاوا بصفته صديقًا محترمًا لـ"صان ميونغ مون" يشغل منذ عام ١٩٦٣ منصب واحد من مستشاري كنيسته الوحدويّة. ولم يكن حتمًا من باب الصدفة اعتبار ساساكاوا الممثّل الياباني لشبكات عديدة موالية للفاشيّة "مون" ومجموعة الشعوب الآسيويّة المعارضة للشيوعيّة APACL والمجموعة العالميّة المعارضة للشيوعيّة WACL. وكان من عادة ساساكاوا التعليق، عند الحديث عن المجموعة الأخيرة بالقول: "تعتبر المجموعة العالميّة المعارضة للشيوعيّة أداة تخدمني في أعمالي".

لم يكن لدى المجموعة العالميّة المعارضة للشيوعيّة WACL أيّ معلومة حول استقبالها لأيّ شخص كان، وخاصّة في إطار علاقتها مع الأطراف الشديدة التطرّف من المخابرات السريّة التابعة لكوريا الجنوبيّة KCIA والأميركيّة CIA. ولكن لم تمنع

هذه التردّدات ساساكاوا من أن يصبح واحدًا من المموّلين الرئيسيّين للحزب الديمقراطي الليبرالي، الذي أخذ يسيطر على الساحة السياسيّة اليابانيّة منذ بداية الحرب.

لن تكون شخصيّة الرجل مكتملة في حال حذفنا الإشارة إلى أنّ رويتشي ساساكاوا كان يشغل أيضًا منصب الرئيس غير القابل للجدل لمؤسّسة خاصّة بألعاب القمار في اليابان، حيث كان يسيطر من خلال فيدراليّته لجمعيّات سباق القوارب ذات المحرّك، على ألعاب المراهنة القائمة على أساس سباقات القوارب الآليّة، وهو مصنع تصل عائداته إلى خمسة مليارات دولار سنويًّا، تنفق على ما يقارب ١٠٠ ألف ياباني. ويشير صحافيّ مختصّ بمثل هذه القضايا يدعى "جون روبيرت" إلى ذلك قائلاً: "إنّه من الصعب تجاوز مساعدة ودعم الجريمة المنظّمة، في حال التصميم على العمل بنجاح ضمن مجالَي القضايا والسياسة في اليابان"، إذ كانت جماعة الـ"ياكوزا" لا محدودة، وخاصّة في حال إدارة أمبراطوريّة قائمة على المقامرة!

يضاف إلى كلّ ذلك قرب ساساكاوا وصديقه في الزنزانة كوداما للمافيا اليابانيّة، واستخدامهما كقضاة سلام في حال الشجار بين العصابات المتخاصمة، حسب ما ورد في بعض المعلومات، لدرجة محاولة واحد من أبناء ساساكاوا الثلاثة، ويدعى "تاكاشي" الدخول ضمن الجريمة الأميركيّة المنظّمة، من خلال محاولته الحصول على مراقبة كازينو أوتيل "شيلبورن" في "أطلنتيك سيتي"، عاصمة لعب القمار الموجودة في ولاية نيوجيرسي الأميركيّة.

كما خضع ريواتشي ساساكاوا نفسه لأن يكون مساعدًا للإنسانيّة... حيث قامت مؤسّسته الخاصّة بصناعة المركبات الملاحيّة خلال شهر شباط - فبراير ١٩٧٨ بتقديم خمسة آلاف دولار إلى منظّمة الأمم المتّحدة، وهي أكبر مساهمة قدّمتها شركة خاصّة.

ثمّ ما إن جاء عام ١٩٧٩ حتّى قام ساساكاوا بالتبرّع بمبلغ مليون دولار لليونيسكو قدّمها لاقتراح جائزة تسمّى "جائزة التربية للسلام"، ووافقت اليونيسكو على قبول المبلغ، ولكنّها قرّرت عدم وضع إسم ساساكاوا على الجائزة.

لقد اعترف ساساكاوا بأنّ جميع هذه المساهمات لم يكن له بالضرورة طابع إنسانيّ، إذ لم يوافق في نهاية الخمسينات على تحويل الحزب الذي أحدث انقلابًا عسكريًّا ضدّ سوكارنو في إندونيسيا، ذلك الانقلاب الذي نجح بفضل تعاون المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA معه، ثمّ بتقديم عدّة ملايين من الدولارات إلى أشخاص لاقوا حتفهم... وقد بقي ساساكاوا لمدّة طويلة صديقًا لواحد من أشهر الديكتاتوريّين الدمويّين في المنطقة: رئيس الفيليبين ماركوس، الذي توصّل ساساكاوا قبل سقوط أمبراطوريّته الأخيرة بقليل إلى تأسيس جمعيّة الصداقات اليابانيّة ـ الفيليبينيّة، التي كان هدفها توتير العلاقات بين المنظّمات العسكريّة وشبه العسكريّة التي تتحرّك في نفس الحماس المعارض.

ولكن ها هي مؤامرات أخرى تحاك داخل المحيط الهادي، مع سقوط ماركوس، حيث ظهر الدور الأميركي واضحًا فيها. ويبقى علينا أن نعلم أنّه مع عدم تعرّض التراث الغني الياباني لما بعد الحرب لخطر الإزعاج والمضايقة، ومع توصّل هؤلاء المزعجين إلى التخلّص من جوّ كان في طريقه إلى الزوال، فإنّ الخابرات الأميركيّة قد ساهمت حتمًا في تدليل مجرمي الحرب هؤلاء من الفئة أ[1].

---

١ ـ كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السرية، دار الجيل (بيروت،١٩٩٨) ص٤٠٩ ـ ٤٢٤.

الروائي البريطاني سومرست موم، ونشاطه الاستخباراتي

هذا الرجل الذي كان ينبغي أن يكون أشد عملاء الاستخبارات في العالم تميزًا وصل إلى بيتروغراد (سانت بطرسبورج سابقًا) في أغسطس ١٩١٧. ولم تكن الحكومة الروسية الثورية الجديدة، برئاسة وزير الحربية السابق، "ألكسندر كيرينسكي"، تعرف تمامًا ماذا تفعل مع هذا الرجل غريب الشكل الذي زعم أن الهدف الوحيد من جولته إلى بيتروغراد المضطربة في منتصف الحرب العالمية الأولى هو اختيار موضوع روايته القادمة.

ولم يجد الروس هذه القصة الإخبارية قابلة للتصديق، ولكنهم لم يحملوا أنفسهم على الاعتقاد بأن هذا الرجل الإنكليزي، سومرست موم، يمكن أن يكون جاسوسًا. ووصل موم مرتديًا ملابس غالية الثمن، ومصنوعة خصيصًا بناء على طلب الزبون، وحذاء يغطي محيط الكاحل، وعصا المشي. وفي بيتروغراد الثورية المثيرة للاشمئزاز، وقف موم كأنه جوهرة بين كومة نفايات، وقلما كان يمكن أن يظهر أي جاسوس بهذا المظهر. وأيضًا، هناك مسألة كلامه، الذي كان متميزًا بالتمتمة والسعال الدائم الناشئ عن السل الرئوي. ولاستكمال صورة الجاسوس غير المحتمل، فإن موم كان شاذًا جنسيًا على نحو علني، وميالاً إلى النظريات الغرامية تجاه البحارة الثوريين الذين أمطروا القصر الشتوي بوابل من النيران وأطاحوا بالقيصر.

ولكن موم، كان جاسوسًا أرسلته الاستخبارات البريطانية في مهمة ذات موضوع ونتائج خطيرة جدًا.

لم تكن المهمة إلى بيتروغراد التجربة الأولى من جانب موم مع الاستخبارات. وفي ١٩٥١، كان كاتبًا محبوبًا يبلغ من العمر ٤١ عامًا، ويعيش في سويسرا حيث أراد أن يفعل شيئًا لمساعدة بلده في جهود الحرب. ومن واقع اتصالات موم المكثفة في كل أنحاء المؤسسة السويسرية وجماعة الأوروبيين من الرجال الشاذين جنسيًا والنساء المشبوهات، قام قسم جديد تابع لوزارة الحربية أطلق عليه M-11-C، وفي وقت لاحق من الحرب أصبح MI-6، بتجنيده لمراقبة العملاء الألمان وجواسيسهم النافعين العاملين في سويسرا.

بعد ذلك، تقرر إرسال موم إلى الولايات المتحدة للانضمام إلى رئيس محطة جهاز الاستخبرات البريطاني MI-6، "وليام وايزمن"، وهو أيضًا رئيس الاستخبارات البريطانية في الولايات المتحدة. ومن الناحية الرسمية، فإن وايزمن كان رئيس بعثة المشتريات البريطانية، ولكنه كان في الحقيقة معنيًّا بالانهماك في إدارة عمليات استخبارات واسعة النطاق، وحملات دعائية، وعمليات مكافحة التجسس، في مواجهة الاستخبارات الألمانية في الولايات المتحدة. ومن خلال موقعه في واشنطن، أقام وايزمن ارتباطات هامة في كل أنحاء المؤسسة الأميركية، وعلى رأسها البيت البيض من طريق صداقته مع الكولونيل إدوارد هاوس، مستشار الرئيس الأميركي وودرو ويلسون. وفي حالة غياب إستخبارات فعالة في تلك الحقبة، فإن الاستخبارات البريطانية، تبعًا لذلك، هي التي كانت تحدد شكل قناعات ويلسون السياسية.

كانت روسيا محلاً لمثل القناعات. وكانت ثورة ١٩١٧ عملت على تعقيد الأمور، والسبب في ذلك هو أنه على الرغم من أن الحكومة الثورية برئاسة كيرينسكي أعلنت صراحة اعتزامها مواصلة مشاركة روسيا في الحرب ضد ألمانيا، فإن كيرينسكي تعرض لضغوط متزايدة من جانب البولشفيك لتوقيع سلام منفرد وإخراج روسيا من

الحرب. وكان شعار البولشفيك: "السلام والخبز"، وهو شعار أصاب الجماهير الروسية في العمق.

تنبهت الاستخبارات البريطانية إلى الخطر، ذلك أنه في حالة خروج الروس من الحرب، فإن الألمان سوف يتمكنون من تحويل مليون جندي من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية، ومهاجمة القوات البريطانية والفرنسية المستنزفة. وأصبحت الحرب معلقة في الميزان، وحتى وصول القوات الأميركية لن يتم في الوقت المناسب لمنع حدوث كارثة. ومهما كلف الأمر، كان ينبغي جعل الروس يواصلون الحرب. وكان ينبغي، مع ذلك، على الاستخبارات البريطانية أن تعرف شيئين: الأول، احتمالات بقاء حكومة كيرنسكي في السلطة، والثاني، كيف يمكن ضمان بقاء تلك الحكومة في السلطة.

وهكذا، نشأت فكرة باستخدام موم للمهمة، وفي حسابات وايزمن، فإن شهرة موم الأدبية يمكن أن تعمل كغطاء مثالي لمهمته الحقيقية في بيتروغراد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن موم لديه بعض الخبرة في التجسس من عمله في سويسرا.

ولكن عالم سويسرا النظيف والمنضبط لم يكن يشبه عالم بيتروغراد، ذلك أن المدينة كانت عبارة عن مستشفى سياسي من المجانين. والأسوأ من ذلك، كما اكتشف موم على الفور تقريبًا، فهو وصل متأخرًا جدًا. وكانت الاستخبارات الألمانية مشغولة وفاعلة، واتخذت من قبل إجراءات لنقل لينين والزعماء البولشفيك الآخرين سرًا إلى روسيا في القطار المغلق الشهير، ولديها عمليات دعائية فاعلة وراسخة. وحققت الدعاية الألمانية، التي جادلت بأن الجماهير الروسية ليس لديها مصلحة في حرب أوروبية تستنزف روسيا، في تحقيق أهدافها، وأعلنت فرق عسكرية روسية بكاملها

التمرد على الضباط، وبدأ الكثيرون من الجنود الروس، الذين كانوا كارهين للحرب، بمغادرة وحداتهم والعودة إلى بيوتهم.

وكتب موم تقريرًا إلى وايزمن جاء فيه أن العمل السريع وحده هو الذي يمكن أن ينقذ نظام كيرينسكي. وما لم يكن الحلفاء مستعدين لإغراق نظام كيرينسكي بكميات هائلة من النقود لإفشال عملية التمويل السرية التي تقدمها الاستخبارات الألمانية إلى البولشفيك، فعندئذ فإن الحكومة الثورية الموقتة سوف تكون معرضة لأخطار السقوط الوشيك. وبالإضافة إلى ذلك كما جاء في تقرير موم، فلو أراد الحلفاء الإبقاء على الدور العسكري للروس، أو على الأقل الإبقاء على ما بقي منه حتى الآن، فإن التدخل العسكري المباشر وحده هو الذي يمكن أن ينقذ الموقف.

وبينما كان الحلفاء يحاولون اتخاذ قرار حول ما ينبغي عمله، فإن الأحداث سبقتهم: لينين والبولشفيك تولوا السلطة، وكيرينسكي هرب إلى المنفى، وجهود الحرب الروسية تحطمت. وهرب موم من روسيا على ظهر مدمرة بريطانية جرى إرسالها لإنقاذه بسرعة من الأخطار.

وبعد عودته إلى سويسرا، حرص موم، الذي ازدادت حالته الصحية سوءًا بسبب الأحوال الجوية في روسيا، على إبلاغ وايزمن أنه كان صادقًا في عمله لحساب الاستخبارات البريطانية. (في أعقاب استرداد عافيته، عاد موم إلى الكتابة، وأخيرًا دخل عالم الفجور الأدبي قبل موته في ١٩٦٥).

في غضون ذلك، بدأ وايزمن في إقناع ويلسون، مجادلاً بأن العمل السريع وحده هو الذي يمكن أن "ينقذ" روسيا. ووافق ويلسون بعدئذ على عدد من الخطوات التي اعتقد أنها يمكن أن تقلب مجرى التاريخ: عملية إنزال القوات الحلفاء في روسيا، بما فيها ١٣،٠٠٠ رجل من الجنود الأميركيين، والموافقة على برنامج عمل سري لتمزيق

النظام البولشفي الناشئ، ودعم مباشر للقوى المعادية للبولشفيك في الحرب الأهلية الروسية التي اندلعت في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكل هذه الأفعال أدت إلى حدوث كارثة استمرّت نتائجها تتردد أصدقاؤها لعدة سنوات لاحقة. وكل ما نجح ويلسون والحلفاء في تحقيقه هو عداء البولشفيك الدائم، ولا يعرف ذلك الذي كان يمكن أن يحدث لو أن البولشفيك لم يعتبروا خارجين على القانون منذ اللحظة التي جاؤوا فيها إلى السلطة[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ ، ص٣٧٧ ـ ٣٨٠.

"عامُ الاستخبَارات" الأميركيّة في عهد فورد

لو أنّ أحدًا ما قال لعضو الكونغرس في ولاية ميتشيغان، جيرالد فورد، في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٢، عندما فاز نيكسون في الانتخابات الرئاسيّة على منافسه الديمقراطيّ "ماكغو فرين" بأكثريّة قياسيّة بلغت ١٨ مليون صوت، بأنّه بعد أقلّ من عامين، سيصبح الرئيس الثامن والثلاثين للولايات المتّحدة، لاعتبر فورد هذا المتنبّئ فاقد العقل. وفي خريف ١٩٧٣، ونتيجة لافتضاح رشوة نائب الرئيس "س. آغينو" أصبح منصب نائب الرئيس شاغرًا. وباقتراح نيكسون انتخب الكونغرس جيرالد فورد نائبًا للرئيس. وفي شهر شباط ـ فبراير من العام التالي، حلّ فورد محلّ نيكسون الذي اضطرّ للاستقالة بسبب فضيحة ووترغيت. وباقتراح من الرئيس فورد انتخب الكونغرس الملياردير "نلسون روكفلر" نائبًا للرئيس. كان من الصعب على وكالة المخابرات المركزيّة أن تحلم برجلَين يمسكان بزمام السلطة في الولايات المتّحدة، أكثر تعاطفًا مع الاستخبارات من فورد وروكفلر.

قبل أن يصبح رئيسًا بثمانية عشر عامًا، كان فورد عضوًا في لجنة الاستخبارات الفرعيّة التابعة للجنة مجلس النوّاب لشؤون التوظيفات. يقول فورد في مذكّراته إنّ هذه

---

١ ـ فيتالي فاشيلفتش بتروستكو، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (دمشق، ١٩٨٩) ص٢٣١ ـ ٢٦٥.

اللجنة الفرعيّة كانت تراقب ماليّة وكالة المخابرات المركزيّة، كما كانت تقوم بدور "كلب الحراسة للاستخبارات"[1].

كان فورد عضوًا في لجنة "أوين" للتحقيق في مقتل الرئيس جون كينيدي، والتي برّأت تمامًا ساحة وكالة المخابرات المركزيّة.

شغل روكفلر، عدةَ مرّات، منصب المساعد الخاصّ لعدد من الرؤساء، وشارك في بحث وإقرار العمليّات التخريبيّة السريّة للاستخبارات. وبعد ذلك، وفي منصب النائب الأوّل لوزير التعليم والصحّة والضمان الاجتماعيّ، كان يغطّي برنامج وكالة المخابرات المركزيّة غير المشروع "م ك - كولترا" الذي تمّ خلاله، في الخمسينات، صنع حوالي مائة وخمسين عقارًا من المخدّرات لمراقبة نشاط الناس النفسيّ والعقليّ. كما شغل منذ عام ١٩٦٩، منصب عضو مجلس الرئاسة الاستشاريّ للاستخبارات الخارجيّة. وشارك تحديدًا في اجتماع المجلس المنعقد في ٣ كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٦٩، عندما عرضت وكالة المخابرات المركزيّة برنامج عمليّاتها "الطريق - ١" في تشيلي[2].

غير أنّ الأمور سارت على نحو، بحيث لم يستطع فورد وروكفلر تجاوز "أزمة الثقة" بوكالة المخابرات المركزيّة، التي نشأت عن فضيحة ووترغيت. كما لم يتمكّنا من تجنّب الفضائح للأعمال المجرمة لأجهزة الاستخبارات. وهي فضائح فاقت، إلى حدّ ما من حيث صداها، الاتّهامات بمخالفات متنوّعة للقانون والأخلاق، التي وُجّهت للبيت الأبيض في عهد نيكسون.

---

١ - Ford G, A, *Time To Heal,* (New York, 1979), PP. 71, 128- 129.

٢ - The New York Times, 3, XII, 1974.

بدأت قصّة نشر مجموعة كاملة من "الدسائس القذرة" التي ارتكبتها وكالة المخابرات المركزيّة، خلال فترة وجودها، بتعيين شليسنغر مديرًا للوكالة. عندما علم هذا الأخير، من الأنباء الصحافيّة، أنّ وكالة المخابرات المركزيّة ساعدت المشتركين في اختراق بناء ووترغيت، على القيام بأعمال سياسيّة غير مشروعة أخرى، أمر بإجراء تحقيق داخليّ في الوكالة والكشف عن أيّ نشاط لا يتّفق والنظام الداخليّ للاستخبارات. وطالبت مجوعة من العاملين الشباب في وكالة المخابرات المركزيّة شليسنغر بوضع حدّ للأعمال غير القانونيّة، التي كان يمارسها، بصورة أساسيّة، العاملون في مديريّة التخطيط وجهازها الخاصّ بمكافحة الجاسوسيّة الخارجيّة. وقد عرض في الأمر الصادر في ٩ أيّار ـ مايو ١٩٧٣ الذي أعدّه كولبي مدير وكالة المخابرات المركزيّة، ووقّعه شليسنغر، على جميع العاملين في الوكالة، إعلام القيادة عن جميع حالات المخالفات التي يعرفونها. وعلى أساس التقارير الفرديّة التي كتبها الذين رغبوا بالإدلاء بما يعرفونه، تمّ تشكيل قائمة تتضمّن ٧٠٠ مخالفة، شغلت ٦٨٣ صفحة. وكانت هذه المخالفات، كما يبدو من خلال كافّة الظواهر، تتعلّق بممارسات وكالة المخابرات المركزيّة في الخارج. ونظرًا للسريّة التامّة لجميع هذه الأعمال، دعاها كولبي بـ "المجوهرات العائليّة"، أو "هياكل عظميّة في الخزائن"[١].

حظّر شليسنغر القيام بأيّ أعمال مريبة، وأمر بوقف جميع البرامج الحاليّة من فئة "المجوهرات العائليّة". لكنّ نيكسون سرعان ما نقل شليسنغر من الوكالة إلى البنتاغون حيث أصبح وزيرًا للدفاع. أمّا في ما يتعلّق بكولبي الذي حلّ محلّه، فهو، حسب اعترافه الشخصيّ، لم يخبر نيكسون أو كيسنجر أو فورد، بشيء عن "المجوهرات العائليّة".

---

١ - Colby W., *Forbath P. Honorable Men, My Life in the CIA,* (New York,1978) P. 340.

شغلت القسم الأكبر من القائمة، عمليّات مكافحة الجاسوسيّة الخارجيّة التي نفّذتها وكالة المخابرات المركزيّة داخل الولايات المتّحدة الأميركيّة، والتي كان قد أقرّها جونسون. وكما يؤكّد هولديمان، لم يعلم نيكسون عنها شيئاً طيلة فترة حكمه التي استمرّت خمس سنوات. وإذا صدّقنا نيكسون ومستشاريه، فقد عرفوا بها من مقالة مفصّلة كتبها هيرش مراسل صحيفة نيويورك تايمز، نشرها في ٢٢ كانون الأول - ديسمبر ١٩٧٤، ومن أنباء الصحف وبرامج الإذاعة والتلفزيون. كان هدف أحد برامج مكافحة الجاسوسيّة "الفوضى"، إدخال البلبلة والتمزّق إلى الحركة المناوئة للحرب في فييتنام. وتدلّ المعطيات التالية على حجم هذه العمليّات.

من عام ١٩٦٣ إلى ١٩٦٧ جمعت وكالة المخابرات المركزيّة بطاقات أرشيفيّة لثلاثمائة ألف أميركيّ، ووضعت أضابير لسبعة آلاف ومئتي مواطن، ولأكثر من ألف منظّمة. وفي إطار عمليّة "الشفاطة" أدخلت أسماء الأميركيّين وسجّلت بطاقات دون أيّ إشارة إلى أسباب تسجيلها. وكان عملاء وكالة المخابرات المركزيّة يقرأون سرّاً رسائل الأميركيّين. وبصورة موازية، كان ينشط مكتب التحقيقات الفدراليّ، ومكافحة الجاسوسيّة العسكريّة، وإدارة الخدمات الضريبيّة وغيرها. وكان المخبرون والاستفزازيّون من مكتب التحقيقات الفدراليّ ووكالة المخابرات المركزيّة وأجهزة الاستخبارات الأخرى يتحكّمون في المنظّمات المعادية للحرب، والمنظّمات الزنجيّة والنسائيّة والشبيبيّة والنقابيّة. كما ذكر هيرش وقائع أخرى تشير إلى أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تتنصّت على الاتّصالات الهاتفيّة بمساعدة عباقرة الإلكترونيّات. أمّا وكالة الأمن القوميّ فقد كانت تلتقط وتسجّل ملايين الأحاديث الخاصّة، وتقوم بالتجسّس على "المواطنين الأميركيّين العاديّين الذين لم يخرقوا أيّ قانون، ولم يرتكبوا أيّ جريمة، ولم يمارسوا الجاسوسيّة، ولم ينتسبوا إلى أيّ من المنظّمات التخريبيّة،

لكنّهم كانوا على قناعة راسخة بأنّ زعماء واشنطن وسياسيّيها يقودون البلاد إلى مستنقع موبوء".

في خريف ١٩٧٤، عندما كان هيرش يعدّ مادّته التي أثارت ضجّة كبيرة، نظّم لقاء بين "ي. روزنتال"، مدير التحرير المسؤول في جريدته، وبين كولبي. ويبدو أنّ روزنتال لم يثق كثيرًا بالوقائع التي جمعها مراسله، وأراد التحقّق منها على نحو ما. وبرغم أنّ مدير التحرير كان ذا قناعات محافظة، فقد طرح على محدّثه، كولبي، السؤال التالي: "كيف يتّفق أنّه كلّما أصطدم بوكالة المخابرات المركزيّة أجد أنّك إلى جانب السفّاحين الذين ينتزعون أظافر ضحاياهم؟" فأجاب كولبي بهدوء وتبصّر: "إنّ وكالة المخابرات المركزيّة تنفّذ الطلبات فقط، التي تردها من الرئيس، فهي تنفّذ ما يطلب منها هذا الرئيس أو ذاك"[١].

إذا آثرنا التعبير الدبلوماسيّ المهذّب، نقول إنّ كولبي لم يقل الحقيقة لأنّ ما يتعلّق بالعمليّات داخل الولايات المتّحدة، على أقلّ تقدير، مثل عمليّة "الفوضى" لم تتلقّ "لانغلي" (مقرّ الـ CIA) أيّ تكليف من نيكسون، بل ولم تطلعه عليها.

قد يتساءل البعض لماذا لم تطلع لانغلي نيكسون على نشاطها داخل الولايات المتّحدة الأميركيّة؟ من المستبعد أن يكون السبب هو أنّ هذه البرامج والعمليّات كانت مخالفة للقوانين. بل على الأغلب، أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تخشى النزاع مع مدير مكتب التحقيقات الفدراليّ "غوفر"، الذي كان يعتبر النشاط الداخليّ في مكافحة الجاسوسيّة حقًّا مقصورًا عيه، وكان ينظر إلى لانغلي بروح عدائيّة، مثله في ذلك مثل

---

١ - Salisbury H. E., *Without Fear Or Favor, An Uncompromsing Look at the New York Times,* (New York,1980) P. 533.

نيكسون، وذلك من قبيل الغيرة والمنافسة. كان نيكسون على معرفة جيّدة بغوفر، من خلال عمله عدّة سنوات في الكونغرس وفي منصب نائب الرئيس. وبعد أن أصبح رئيسًا، ارتبط معه بعلاقات مودّة وثقة أكثر من هيلمز، كانوا يعرفون ذلك جيّدًا في وكالة المخابرات المركزيّة. هناك، على الأغلب كانوا يخشون بأنّهم إذا ما أعلموا نيكسون بعمليّات "الفوضى" و"الشفاطة" وغيرها من البرامج داخل البلاد، فإنّ نيكسون سيستشير غوفر على الفور، بخصوص فعاليّتها. ومن غير المستبعد أن يقف الأخير ضدّها بدافع المنافسة والسعي لأن يحافظ على احتكاره في مجال عمليّات مكافحة الجاسوسيّة داخل البلاد.

برغم مبالغتها، فقد أصابت مجلّة "هاربرس" في نقل المناخ المسيطر في واشنطن، حيث كتبت تقول في مقال افتتاحيّ: "لقد أصبح النشاط الاستخباريّ الآن داخل الولايات المتّحدة الأداة الرئيسيّة التي تحاول بواسطتها الوكالات الاستخباريّة المتنافسة التشهير ببعضها بعضًا، وحلول الواحدة محلّ الأخرى. إنّ مؤامرات وكالة المخابرات المركزيّة تغطّي كلّ ما هو قادر عليه مكتب التحقيقات الفدراليّ. ومكتب التحقيقات الفدراليّ يدبّر المكائد ضدّ البيت الأبيض. ووزارة الدفاع تحيك المؤامرات ضدّ القوى الجويّة والجيش"[١].

في تعليقه على برنامجَي "الفوضى" و"الشفاطة"، بعد انقضاء بضعة سنوات على فضحهما، كتب محرّر نيويورك تايمز "غ. سولزبوري" يقول: "لقد تبيّن أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت أكبر من سارق وأكبر متنصّت ومتجسّس في العالم. وقد تفوّقت على منافسها، في هذا المجال، وهو مكتب التحقيقات الفدراليّ"[٢].

---

١ - Harper's, November, 1973.

٢ - Salisbury H. E., *Without Fear Or Favor*, P. 534.

حصل مراسل نيويورك تايمز هيرش وزملاؤه على موادّ لمقالاته تثبت أعمال الاستخبارات المخالفة للقانون داخل الولايات المتّحدة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٧٤، من رجال الاستخبارات السابقين ومن الموظّفين الشباب في وكالة المخابرات المركزيّة، ومن العاملين في الإدارات الاستخباريّة المنافسة. غير أنّ الذنب الأكبر، في نظر وكالة المخابرات المركزيّة، يقع على كولبي نفسه، الذي لم ينف، لاعتبارات عديدة، جميع الوقائع التي قدّمها له هيرش للتعليق عليها. ويقول باورس وغيره إنّ كولبي كان على عداء شديد مع "ج. انغلتون" رئيس مكافحة الجاسوسيّة الخارجيّة في وكالة المخابرات المركزيّة، ورأى أنّ نشر مقالات فاضحة يُعتبر طريقة ملائمة للتخلّص من منافسه. ذلك لأنّه، حتّى داخل وكالة المخابرات المركزيّة، ناهيك عن البيت الأبيض، لم يشك كثيرون بالمدى الواسع للعمليّات التي نفّذها "السمكة الكبيرة" وهو اللقب الذي كان يُطلق على انغلتون لولعه بالصيد الكبير.

إنّ نشر هذه الموادّ في نيويورك تايمز وفي الصحف الأخرى التي كانت تقدّم وقائع جديدة باستمرار، ذات طابع فاضح، قد دفع بالرئيس فورد إلى اتّخاذ تدابير عاجلة لإخماد الحريق. من بين هذه التدابير، تشكيل لجنة خاصّة، بعد أن أطلع كولبي الرئيس فورد في ٣ كانون الثاني - يناير ١٩٧٥، على "المجوهرات العائليّة".

يقول فورد: "لقد كانت هذه وثائق سريّة للغاية تثبت بالتفصيل الأعمال غير المحمودة وغير المشروعة التي تمارسها وكالة المخابرات المركزيّة"[١].

واضح أنّ الرئيس فورد يخفّف كثيرًا، في تقويمه للواقع، من ذنب وكالة المخابرات المركزيّة. وقد كان سولزبوري أقرب إلى الحقيقة حيث قال "إنّ

---

١ - Ford G., *A Time To Heal*, P. 229.

المجوهرات العائليّة هي قائمة سريّة للغاية لأعمال وكالة المخابرات المركزيّة الوحشيّة والقاسية واللاإنسانيّة. وبعبارة أخرى، هي قائمة لأعمال وكالة المخابرات المركزيّة التي تُعتبر خرقًا لنظامها الداخليّ ولقوانين البلاد. وهي تشمل مؤامرات الاغتيال، والخطوات السياسيّة والعمليّات غير المشروعة داخل الولايات المتّحدة"[1].

واضح أنّ مثل هذا المحتوى يجب أن يُخفى، من وجهة نظر الرئيس الأميركيّ، عن أعين الرأي العام.

يقول فورد: "كنت أدرك أنّه من الضروريّ الكشف عن جميع الوثائق، لأنّ هذا يمكن أن يلحق ضررًا بفعاليّة وكالة المخابرات المركزيّة، ويحطّ من الروح المعنويّة فيها، ويرغم الحكومات الأجنبيّة على التفكير، في ما إذا كنّا جديرين بتبادل المعلومات معها... ممّا لا شكّ فيه أنّه لو أنّني منحت الكونغرس الفرصة لأداء الدور المسيطر في التحقيق، لحدث بالذات هذا الفضح غير المبرّر للوثائق. لقد قرّرت أن أمسك زمام المبادرة بيديّ. وفي ٤ كانون الثاني - يناير، أعلنت عن تأسيس لجنة ذات صلاحيّات واسعة، للتحقيق في نشاط وكالة المخابرات المركزيّة داخل الولايات المتّحدة، كي تنظر في المزاعم التي لا أساس لها، وتقرّر إلى أيّة درجة تجاوزت الوكالة صلاحيّاتها، وتقدّم التوصيات اللازمة لمنع التجاوزات في المستقبل"[2].

ترأس هذه اللجنة نائب الرئيس الأميركيّ روكفلر الذي منحها اسمه فعُرفت به، وعيّن، في عضويّتها، أصدقاء ومقرّبون صريحون لوكالة المخابرات المركزيّة، وبصورة أساسيّة، وزراء وجنرالات سابقون، ومَن بينهم رونالد ريغان، الرئيس

---

١ - Salisbury H. E., *Without Fear Or Favor*, P. 543.

٢ - Ford G., *A Time To Heal*, P. 230.

الأميركيّ المقبل وغيره. غير أنّ الكونغرس لم ينو، هذه المرّة، تسليم زمام المبادرة للبيت الأبيض. فبعد يومين من الاجتماع الأوّل للجنة روكفلر، في ١٥ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٥، بدأت مرافعات موحّدة في اللجان الفرعيّة للاستخبارات التابعة للجنة مجلس الشيوخ لشؤون القوّات المسلّحة والتمويل. وجرت بعدها مرافعات مشابهة في مجلس النوّاب. وفي ٢٦ كانون الثاني ـ يناير صوّت مجلس الشيوخ مؤيّدًا اقتراح تشكيل لجنة خاصّة لدراسة نشاط أجهزة الاستخبارات برئاسة السيناتور "ف. تشرش". وفي شباط ـ فبراير ١٩٧٥ شكّل مجلس النوّاب لجنة مماثلة برئاسة عضو الكونغرس "و. بايك".

كان كولبي، مدير وكالة المخابرات المركزيّة، أوّل المتحدّثين في اجتماع لجنة روكفلر. يقول كولبي، في مذكّراته، إنّه اختار استراتيجيّة مغايرة في مواقفه مع لجان روكفلر وتشرش وبايك، من تلك الاستراتيجيّة التي اتّبعتها الوكالة في قضيّة ووترغيت.

في تلك الأثناء، ابتعدت الوكالة عن الفضيحة، ولم تمنع استفحالها وازدياد فورتها وغليانها. أمّا الآن فقد لجأ كولبي، على حدّ قوله، إلى "أكبر قدر ممكن من الصراحة، كاشفًا عن "الأسرار السيّئة" ليخفي "الأسرار الجيّدة"، أي أنّه قدّم للجان معطيات لا يهدّد كشفها وكالة المخابرات المركزيّة، ويخفي عنها كلّ ما يمكن أن يشكّل متاعب للانغلي. بهذه الطريقة، كان ينوي كولبي لا مجرّد إطفاء نار الفضائح فحسب، بل وفكّر أيضًا، بإنشاء "استخبارات جديدة" تكون أقلّ سريّة، وتتمتّع بتفهّم الرأي العام الأميركيّ ودعمه. من أجل هذا رأى أن من الضروريّ المرور عبر "التطهير الذاتيّ".

مثل هذه الرواية تبدو غير مقنعة بصورة كافية. كان كولبي، بكلّ بساطة، مضطرًّا للاعتراف بشيء ما. وكان المراسلون الصحافيّون يبحثون عن مدخل إلى موظّفي

الاستخبارات الجدد، ويفتّشون عن العاملين السابقين في الوكالة، الذين يمكنهم التحدّث بصراحة، أو بأسماء مغفلة عن "المجوهرات العائليّة" التي يعرفونها. كما كانت قد صدرت كتب الموظّفين السابقين في الاستخبارات "ف. إيجي"، "ف. ماركيتي" و"ج. ماركس"، التي كشفت النقاب عن كثير من الجوانب غير المعروفة للمشرّعين، من النشاط غير المشروع لفرسان المعطف والخنجر. لهذا كان كولبي مضطرًا للإقدام على بعض الاعترافات، غير أنّه قاد لعبة ماكرة، ساعيًا إلى إلغاء الموقف المريب تجاه وكالة المخابرات المركزيّة من جانب الكونغرس والصحافة والرأي العام. ومن أجل إخماد الفضيحة بالذات، برز كولبي بمظهر الإنسان الصريح المستعدّ للاعتراف بأخطائه بصدق وإخلاص. غير أنّهم لم يغفروا له ذلك. فبعد إلقائه كلمته في لجنة روكفلر، انتحى رئيس اللجنة بكولبي جانبًا وقال له: "بيل، هل أنت مضطرّ فعلاً إلى تقديم هذه المادّة كلّها؟ نحن نعرف جيّدًا، أنّه ثمّة أسرار يجب أن تحافظوا عليها، ولهذا لن يدينك أحد هنا إذا لم تستطع الإجابة عن بعض الأسئلة، بصورة كاملة ومفصّلة، كما يحاولون جرّك للإجابة عنها"[1].

إنّ كلمات نائب الرئيس الأميركيّ تقدّم مفتاحًا لفهم المهمّة التي ألقاها البيت الأبيض على عاتق اللجنة، وهي إسدال الستار على التحقيق ووقفه.

في البداية، لم يدخل في خطّة منظّمي إعادة الاعتبار لوكالة المخابرات المركزيّة التحقيق في محاولات الاستخبارات الأميركيّة لاغتيال زعماء الدول الأخرى والشخصيّات السياسيّة البارزة. فقد كانت صفحات قائمة "المجوهرات العائليّة" تشكّل سرّ أسرار واشنطن. ولكن في شباط ـ فبراير ١٩٧٥، في حفل الغداء الذي أقامه البيت

---

١ - Colby W., *Forbath P. Honorable Men,* P. 400.

الأبيض على شرف محرّري صحيفة نيويورك تايمز، أفشى فورد، عن غير قصد، حقيقة الوقائع التي جرت، وقد تسرّب اعترافه إلى التلفزيون في البداية، ثمّ إلى الصحافة.

بما أنّ لجنة روكفلر قد مُنحت صلاحيّات التحقيق في نشاط الاستخبارات "المنزليّ"، أي الداخليّ، فقد مرّت مرور الكرام أمام المؤامرات التخريبيّة التي ارتكبتها وكالة المخابرات المركزيّة في الخارج. غير أنّها اضطرت إلى بحث مسألة اغتيال الرئيس كينيدي. وذلك لأنّ غ. هانت، أحد المنظّمين الأساسيّين للاختراق غير المشروع لبناء ووترغيت، وهو مسؤول سابق في وكالة المخابرات المركزيّة، كان مشتبهًا بوجوده في مكان وقوع الجريمة في دالاس يوم ٢٢ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٦٣. وكان معه، في مكان الحادث، حسب الوثائق الفوتوغرافيّة وإفادات شهود العيان، رجلان آخران شاركا في اختراق ووترغيت، وهما: سترجيس فيوريني و ب. باركر.

طبيعيّ أنّه، حتّى لو وجدت لجنة روكفلر دليلاً على الشبهات بحقّ مخترقي ووترغيت، لما أعلنتها أبدًا. غير أنّها لم تبحث عنها أصلاً، مقتصرة على إدخال ٢٣ صفحة في تقريرها من التكذيبات والتفنيدات لهذه الشبهات التي لا تقوم على أساس، والساذجة، على أقلّ تقدير، لدرجة أنّه لا يصحّ النظر إليها بجدّيّة.

على هذا النحو، كان يبدو التقرير كلّه، الذي وضعته "لجنة المواطنين البارزين"، وهو اللقب الذي أطلق على مجموعة نائب الرئيس. بيد أنّه، بصورة موازية وفي الآن نفسه، كان يجري تحقيق أكثر حزمًا في لجنة تشرش، لهذا اضطرّ "المواطنون البارزون" إلى توجيه بعض الكلمات المنصفة الصريحة وبعض عبارات المديح بحقّ

وكالة المخابرات المركزيّة. وقد ضمّ تقرير اللجنة، على وجه التخصيص، النتائج التالية:

"... الغالبيّة العظمى من أعمال وكالة المخابرات المركزيّة داخل البلاد منسجمة مع الصفة الدستوريّة للوكالة. مع ذلك، وخلال ٢٨ عامًا مرّ على وجوها، قامت وكالة المخابرات المركزيّة بخطوات تستحقّ الانتقاد، ولا يمكن أن تتكرّر في المستقبل. بعض هذه الأعمال نفّذ بمبادرة الرؤساء أو أوامرهم المباشرة أو غير المباشرة. وكان قسم من هذه الأعمال، ذا طابع مريب، يقع في المنطقة الفاصلة بين الأعمال التي تقرّها صلاحيّات وكالة المخابرات المركزيّة والأعمال المحظورة على الوكالة. وبعضها غير مشروع بصورة واضحة"[١].

هكذا إذن، كان بعض الأعمال ذا طابع "مريب" و"غير مشروع"، ولكن لم يوجّه إليه إلاّ التنديد "الانتقاديّ". وأوضحت اللجنة بتقليص أعمال فرسان المعطف والخنجر داخل البلاد. وترك هذا المجال لمكتب التحقيقات الفدراليّ. وبعد مرور نصف عام على نشر هذا التقرير أصدر الرئيس فورد في ٨ شباط ـ فبراير ١٩٧٦، على أساسه، أمرًا تنفيذيًّا رقم ١١٩٠٥ حول مسائل الاستخبارات ضمّ أقسامًا مكرّسة لشؤون الاستخبارات الداخليّة. وحظّر على الاستخبارات المركزيّة القيام بالتنصّت على محادثات الأميركيّين الهاتفيّة، باستثناء الحالات التي تسمح بها المحكمة، كما حظّر عليها التجسّس على المواطنين الأميركيّين، وإجراء التجارب عليهم التي تستخدم فيها مستحضرات مخدّرة بهدف التأثير على النشاطَين العقليّ والنفسيّ بدون أخذ موافقتهم، كما كانت تفعل سابقًا. وسمح الأمر التنفيذيّ لوكالة المخابرات المركزيّة بممارسة

---

١ ـ Ibid. P. 401.

الأعمال داخل الولايات المتّحدة، إذا كانت هذه الأعمال ضروريّة لمكافحة المنظّمات والأفراد الأميركيّين، عندما تكون هناك "أسباب موجبة لاعتبار أنّ نشاطهم يخدم مصالح دولة أجنبيّة، أو أنّهم متورّطون في الإرهاب الدوليّ، أو يشاركون في تجارة المخدّرات".

في تعليقها على منح وكالة المخابرات المركزيّة الإمكانات المذكورة، لاحظت مجلّة نيوزويك بحقّ ودقّة أنّه "كان هناك، عمليًّا، تبرير مماثل في أساس الحملة التي شنّتها وكالة المخابرات المركزيّة ضدّ الحركة المعادية للحرب في أواخر الستّينات"[1].

بعبارة أخرى فقد عاد كلّ شيء كما كان. كانت لجنة روكفلر تمثّل ظاهرة فريدة من وجهة نظر العلاقات بين البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة. فقد كلّفت بمهمّة صعبة، هي تهدئة الأميركيّين وطمأنتهم إلى أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تتحوّل إلى غستابو، كما قال ذلك صراحة، في تلك الأثناء، بعض الصحافيّين الأميركيّين. وتركت اللجنة، دون تفسير، كيف حدث أنّ نيكسون وفورد لم يعرفا شيئًا عن تلك "المجوهرات العائليّة" التي كانت تتعلّق بنشاط وكالة المخابرات المركزيّة داخل أميركا. لكنّ الراجح أنّ سولزبوري كان على حقّ عندما كتب يقول إنّ "وكالة المخابرات المركزيّة اعتبرت هذا التقرير الذي يضمّ ٦٨٣ صفحة من المجوهرات العائليّة سرّيّ، لدرجة أنّه لم تطلع نيكسون وفورد عليه". وهذا يعني أنّه، بالإضافة إلى الأسرار "العائليّة" المخفيّة عن رئيسَين أميركيّين، قرّرت وكالة المخابرات المركزيّة إخفاء أسرار أخرى تتعلّق بنشاط الاستخبارات في الخارج.

---

١ - Newsweek, 1976, March 1.

كتب "آ. وولف" أستاذ جامعة نيويورك في مجلّة "نيشن" يقول إنّ التحليل بكامله في تقرير لجنة روكفلر، ينسبه ثلاث مسائل رياضيّة وحلولها: "لقد اصطدمت وكالة المخابرات المركزيّة ببعض الصعوبة بسبب موظّفين سيّئين. والحلّ: فتّشوا عن موظّفين جيّدين. صعوبات وكالة المخابرات المركزيّة ناتجة أيضًا عن قواعد إجرائيّة غامضة وغير مدروسة. الحلّ: وضعوا قواعد إجرائيّة جديدة. وكالة المخابرات المركزيّة خرقت القانون. الحلّ: يجب تنبيه وكالة المخابرات المركزيّة بأن عليها احترام القانون"[١].

وبصيغة تهكّميّة ساخرة، أضاف وولف قائلاً إنّ لحنة روكفلر اتّهمت الرأي العام الأميركيّ بأنّه تجرّأ على معرفة جرائم وكالة المخابرات المركزيّة. إذا كان "المواطنون البارزون" لم يسبّبوا متاعب كبيرة للبيت الأبيض ولوكالة المخابرات المركزيّة، فهذا لا يصحّ قوله أبدًا عن لجنتَي تشرش وبايك. ونوّه هنا، بأنّ هاتَين اللجنتَين أثارتا ردّة فعل سلبيّة لدى قادة السلطة التنفيذيّة، وهذا ما قاله فورد صراحة. وحسب قوله فقد أراد بعض المشرّعين تخريب "عمليّة الشفاء" التي بدأها روكفلر.

يقول فورد: "إنّ تحقيق السيناتور تشرش كان يتطلّع إلى الإثارة والضجّة، وكان هذا التحقيق غير مسؤول، لتأثيره الهدّام على الروح المعنويّة في وكالة المخابرات المركزيّة". ثمّ يوجّه فورد للمشرّعين اتّهامًا، بوضع خطّة تخريبيّة مثيرة للفتنة حقًّا، حيث يقول: "لقد اتّضح لي، أنّ بعض أعضاء الكونغرس أرادوا تفتيت وكالة المخابرات المركزيّة". هنا، يبالغ الرئيس السابق كثيرًا بصورة واضحة. فعلى أيّ أساس يبني فورد اتّهامه"؟. "لقد أرادوا القضاء، نهائيًا، على العمليّات التخريبيّة السريّة،

---

١ - The Nation, 1975, August 16.

وإذا لم يتمكّنوا من ذلك، فتضيق هذه العمليّات إلى درجة تغدو معها، هذه العمليّات، بلا معنى"[1].

كان فورد يعرف جيّدًا أنّ القضاء على العمليّات التخريبيّة السريّة أو الحدّ منها لا يعني أبدًا نهاية وكالة المخابرات المركزيّة. فقد كان ليبقى عندها جمع المعلومات وتحليلها، أي تبقى عندها الوظائف التي حدّدها لها قانون ١٩٤٧. وعودة وكالة المخابرات المركزيّة إلى دورها الأصليّ بالذات كان مطلب المشرّعين الذين أثاروا سخط فورد وعدم رضاه.

يُعتقد أنّ ثمّة أسبابًا أخرى تكمن وراء سخط الرئيس السابق واستيائه من زملائه السابقين أعضاء الكونغرس. فالمعارك الحامية الوطيس التي دارت، في عامَي ١٩٧٥ - ١٩٧٦، حول الاستخبارات، قد نسفت إلى حدّ ما، فرص فورد في الحملة الانتخابيّة عام ١٩٧٦، وضاعفت من فرص نجاح منافسه جيمي كارتر. وانتقاد "إساءة استعمال السلطة" والاستهتار بها، من جانب الاستخبارات المركزيّة، قد كشف عن الوجه القميء للسياسة الخارجيّة الأميركيّة، وقيّد إلى حدّ ما، دبلوماسيّة واشنطن.

في ذروة فضيحة وكالة المخابرات المركزيّة اضطرّ الكونغرس إلى تقليص عمليّات الوكالة في أنغولا. وصل إلى علم لجنة تشرش أنّ وكالة المخابرات المركزيّة نفّذت منذ قيامها، آلاف العمليّات التخريبيّة السريّة في الخارج، منها ٩٠٠ عمليّة تدخل ضمن فئة العمليّات الكبيرة. وقد جرت عمليّة إطلاع أعضاء الكونغرس على الجانب غير المعروف، بالنسبة لهم، من نشاط الاستخبارات في موقف خاصّ متميّز. وقد أخذ الحقوقيّون هذه القضيّة بأيديهم إلى حدّ كبير. دعت وكالة المخابرات المركزيّة،

---

١ - Ford G., *A Time To Heal,* P. 266.

خصّيصًا، للعمل في هذه القضيّة، أشهر محامٍ في واشنطن للشركات الاحتكاريّة هو "م. روغوفين" الذي صاغ، بالاشتراك مع ملاك الموظّفين الذي مُنح له، "قواعد اللعبة"، مع اثنَين من محامي البيت الأبيض هما: "ج. أويلديروتر" و"م. ديوفال" وكذلك مع كبار المستشسارين القانونيّين للجان الكونغرس الخاصّة. وقد كتب يقول، في تلك الأيّام، "ن. غوروك" مراسل صحيفة نيويورك تايمز، إنّ تحقيق مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب مع الاستخبارات الأميركيّة هي منحة أخرى من السماء هبطت على الحقوقيّين... بل هو على الأصحّ، ليس تحقيقًا، بل صفقات استمرّت أكثر من عام. وقد حاول الكونغرس المساومة للحصول على إفادات وشهادات حول أعمال الاستخبارات السريّة"[1].

هذا المقطع قد أصاب لبّ الحقيقة في ما حدث. فالبيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة لم يقدّما شيئًا للمشرّعين بصورة طوعيّة ودون مقابل. فقد اشترطا تقديم كثير من المعطيات بما فيها المعلومات الاستخباريّة، بالتزامات وتعهّدات كتابيّة بعدم إشهارها خارج الكونغرس. وأخيرًا، رفضا "بالحجج القاطعة والبراهين" تلبية طلبات أعضاء اللجان الخاصّة والعاملين فيها بالاطّلاع على هذه الوثائق أو تلك.

لم يخضع "ف. تشرش" رئيس لجنة مجلس الشيوخ الخاصّة لضغط البيت الأبيض وكثير من أعضاء المجلس، وأجرى مرافعات حول الأعمال الإرهابيّة لوكالة المخابرات المركزيّة ضدّ الزعماء الأجانب. وقد تمّ إثبات أنّ هذا النشاط هو إرهاب على أعلى مستوى قد بدأ في عهد الرئيس آيزنهاور، وبأمر من ألن دالاس. وقد خطّطت محاولات لاغتيال فيدل كاسرو، وسوكارنو، وشوان لاي. وأصدر دالاس أمرًا بقتل باتريس لومومبا. كما أخرجت وكالة المخابرات المركزيّة من الحلبة السياسيّة

---

١ - The New York Times, 25, I, 1976.

ديكتاتور الدومينيكان تروخيلو الذي لم يعد يناسبها، وحاكمَي جنوب فييتنام الأخوَين ديم ونيو. وقد كشفت لجنة تشرش والصحافيّون الأميركيّون والأجانب والمحقّقون المستقلّون تورّط وكالة المخابرات المركزيّة في اغتيال الزعيم الثوريّ الأميركيّ اللاتينيّ تشي غيفارا، والزعيم السياسيّ الأفريقيّ آ. كابرال، والجنرال التشيليّ ر. شنيدر، وزعيم حركة التحرّر الوطنيّ في تيمور الشرقيّة ن. لوباتو، ورئيس باناما خ. آ. رامون، والنائب اليونانيّ اليساريّ غ. لامبراكيس، ورئيس شركة النفط الإيطاليّة ي. ملاتين وغيرهم.

لدى التعرّف على موادّ لجنة الكونغرس، يسترعي الانتباه أنّ الوثائق التي قدّمتها الاستخبارات وإفادات العاملين فيها، كانت تلقي المسؤوليّة دائمًا، عن "إساءة استعمال السلطة" و"الأخطاء"، على البيت الأبيض ومجلس الأمن القوميّ. وقد كان هذا تكرارًا للتكتيك الذي تمسّكت به لانغلي في المراجعات في لجنة روكفلر. والآن، أظهرت وكالة المخابرات المركزيّة نفسها، وبإصرار أكبر، منفّذًا مطيعًا للأوامر الصادرة من الأعلى. وقد أخذ أعضاء اللجنة بهذه التفسيرات، إلى حدّ كبير، برغم إثباتهم المبادرة الكبيرة لفرسان المعطف والخنجر في هذا المجال.

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٥، صدر التقرير للجنة تشرش متضمّنًا "اتّهامات بالتآمر لاغتيال زعماء الدول الأجنبيّة". وسرعان ما صدر، بعد ذلك، تقرير "الأعمال السريّة في تشيلي ١٩٦٣ ـ ١٩٧٣" الذي أعدّه جهاز لجنة تشرش. كما نشرت أيضًا محاضر الإفادات التي استمرّت يومَين في اللجنة (٤ ـ ٥ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٥) تحت عنوان "الأعمال الخفيّة". ومقابل نشر الوثائق المذكورة التي اختارتها لانغلي بعناية، أضفت لجنة تشرش طابع السريّة على تقاريرها عن عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة في زائير وأندونيسيا واليونان ولاووس وفييتنام، وكذلك الأقسام

الكبيرة من الإفادات تحت عنوان "فنّ الأعمال الخفيّة" و"مشاريع الأعمال الخفيّة: ولادتها، عرضها وإقرارها"[1].

في أثناء التحقيق، تأكّدت صلة وكالة المخابرات المركزيّة بالمافيا الأميركيّة، التي استخدمتها من أجل تدبير الانقلابات والاغتيالات وإسقاط الزعماء السياسيّين... وإلى جانب الأدلّة المكتشفة على تجارب وكالة المخابرات المركزيّة لتغيير النشاط العقليّ والنفسيّ للأفراد، فقد أثار فضح تحالف الاستخبارات والمافيا، لدى الرأي العام الأميركيّ، ثاني صدمة من حيث قوّة تأثيرها، وكانت الصدمة الأولى قد أثارتها المعلومات عن الإرهاب في أعلى مستوياته. وقد كُلّف عضوان من لجنة تشرش بدراسة مسألة ردّة فعل وكالة المخابرات المركزيّة ومكتب التحقيقات الفدراليّ على مقتل جون كينيدي. وكما يبدو من تصريحاتهما، حاولت وكالة المخابرات المركزيّة أن توحي لهما بفكرة أنّ أوزوالد، المتّهم باغتيال كينيدي، كان "عميلاً للاستخبارات الكوبيّة"...

إستمرّ عضوا لجنة تشرش في دراستهما لهذه المسألة حوالي عام. وبعد أن أعلما اللجنة بنتائج الدراسة، أجمل عضوا مجلس الشيوخ رأيهما بالعبارة التالية: "إنّ أوزوالد كان من نتائج الاستخبارات المشتركة". وقد أعلن أحد العضوَين "ر. شويكر"، في حديث أدلى به للصحافيّ الإنكليزيّ "ي. سامر سوم" قائلاً: "برغم تظاهره بأنّه من أنصار كاسترو، كان أوزوالد مرتبطاً مع الكوبيّين المعادين لكاسترو، منفّذاً بذلك وظيفة استخباريّة معيّنة"[2].

---

١ - The New York Magazine, 1976, September 22.

٢ - Summers A., *Conspiracy* (New York,1980) P. 343.

من أجل الإدلاء بالشهادة أمام لجنة تشرش، استدعي عضوا المافيا "جانكان" و"روسيلي" اللذان شاركا في مؤامرات وكالة المخابرات المركزيّة ضدّ كاسترو. ورجلا المافيا هذان اغتيلا في ظروف غامضة، بعد فترة وجيزة. أحدهما قبل الإدلاء بإفادته، والثاني بعدها.

يورد ي. ساميرس، في كتابه، واقعة مذهلة حيث يؤكّد على أنّ روسيلي "قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أعلم الحكومة الأميركيّة، كما قالت الأنباء، أنّ رفاقه السابقين في المؤامرات المحاكة ضدّ كاسترو قد انتقلوا إلى العمل على اغتيال كينيدي"[1].

إقترح شويكر وغيره مِن أعضاء مجلس الشيوخ بدء تحقيق جديد حول مقتل كينيدي، وأكّدوا على أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تخفي كثيرًا ممّا تعرفه عن "جريمة العصر". غير أنّ مجلس الشيوخ لم يجد لديه القوّة الكافية لبحث مثل هذه القضيّة الخطيرة. وفي أواخر ١٩٧٦، وبضغط من عوامل مختلفة، اتّخذ مجلس النوّاب في الكونغرس قرارًا بتشكيل لجنة خاصّة للتحقيق في مقتل جون كينيدي ومارتن لوثر كينغ.

كما يظهر من المواد التي أوحت بها قيادة لانغلي، كانت وكالة المخابرات المركزيّة غير راضية لأنّ الرئيس فورد، حسب زعمها، لم يحاول، بهمّة كافية، إخماد حريق التحقيقات. وهذا الانطباع الذي خلقه فرسان المعطف والخنجر هو، برأي البعض، مزيّف تمامًا وغير صحيح. فقد التقى الرئيس فورد تشرش وأجرى معه صفقة، كما عمل الشيء نفسه مع محاميه ومساعديه. ولم يدع بايك دون اهتمام. على سبيل المثال، عندما طلب بايك، عضو الكونغرس، وثائق وزارة الخارجيّة، التي يمكن

---

١ - Ibid. P.503.

على ضوئها تكوين تصوّر عن العمليّات التخريبيّة السريّة التي نفّذتها وكالة المخابرات المركزيّة بتوصية من وزارة الخارجيّة، ردّ عليه فورد بالشرط التالي: إنّه سيعطيه وثائق الخارجيّة خلال مرحلة حكمه لأنّه، كما يشير فورد، لم تضمّ هذه الوثائق أيّة توصيات من هذا النوع[١]. أمّا وثائق وزارة الخارجيّة للسنوات السابقة، فستبقى سريّة.

وافق بايك على هذه الصفقة برغم أنّها ليست في صالحه أبدًا، بضغط واضح من فورد. وفي ما بعد، تخلّى عن طلبه الذي أصرّ عليه في البداية، باستدعاء وزير الخارجيّة كيسنجر للإدلاء بإفادته. كما اتّخذت إدارة فورد خطوات خفيّة، أيضًا، من أجل عدم إلحاق أيّ ضرر بوكالة المخابرات المركزيّة نتيجة النشر المقبل لتقارير اللجنة الختاميّة.

كان أكثر ما يخشاه البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة المطالبة بإعلام لجنة الكونغرس، مسبقًا، بالعمليّات التخريبيّة السريّة المرسومة، والحصول على الموافقة عليها، قبل البدء بتنفيذها. ولمعرفته بأنّ توصية بهذا الشكل سوف ترد في تقرير لجنة تشرش، بذل فورد جهده لإقناع المشرّعين بالامتناع عنها. وإلاّ ـ قال الرئيس محذّرًا ـ فإنّه سوف يتجاهلها.

كانت لجنة تشرش ترى أنّ قانون هيوز ـ راين، الذي طالب بالإعلام المسبق، غامض ومبهم، وأرادت جعله أكثر دقّة وتحديدًا. فوقف البيت الأبيض ضدّ هذا التدقيق، وأعلن صراحة أنّه سيسعى إلى إلغاء قانون هيوز ـ راين.

خلال الفترة الواقعة بين أواخر ١٩٧٥ وأوائل ١٩٧٦ كانت إدارة فورد عازمة على عدم تقديم أيّ تنازلات للكونغرس في مسألة إعلام المشرّعين مسبقًا عن العمليّات

---

١ - Ford G., *A Time To Heal*, P. 556.

السياسيّة وشبه العسكريّة والاقتصاديّة والإيديولوجيّة السريّة. وسعيًا منها إلى التشهير بتوصيات المشرّعين، ونسف إصدار قانون بهذا الخصوص، اختارت إدارة فورد ووكالة المخابرات المركزيّة لجنة بايك هدفًا أساسيًّا لانتقاداتهما.

وقد وصف كولبي، في مؤتمر صحافيّ، التقرير الذي أعدّته هذه اللجنة بأنّه "خدمة سيّئة لأمّتنا تقدّم انطباعًا خاطئًا ومغلوطًا كليًّا، عن الاستخبارات الأميركيّة". وبعد قيامه بعمل ونشاط كبيرَين، بين أعضاء مجلس النوّاب، استطاع البيت الأبيض الحصول على قرار من هذا المجلس أيّده ٢٤٦ صوتًا وعارضه ١٢٤ صوتًا، بعدم نشر تقرير لجنة بايك إلاّ عند خضوعه لرقابة البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة.

خلال هذه الفترة، كان بايك قد قدّم حوالي عشرين نسخة من هذا التقرير إلى أجهزة الحكومة المختلفة. وهنا بدأت الفضيحة. فقد اشتعل وباء "تسرّب المعلومات" بقوّة لا مثيل لها. وكتبت مجلّة "تايم" تقول: "أسبوعًا بعد أسبوع، كانت المعلومات السريّة التي جمعها العاملون في لجنة بايك تنشر في الأعمدة الأولى للصحف الأميركيّة... وحسب قول كولبي، مدير وكالة المخابرات المركزيّة المستقيل، فقد أدّى تسرّب المعلومات إلى "اختراق السدّ". فقد قدّم النصّ الكامل لتقرير اللجنة الختاميّ إلى الصحافيّين"[١]. لكنّه لم يقدّم للجميع. وقصدت مجلة تايم بذلك أنّ محرّري صحيفة نيويورك تايمز، و"د. شور" مراسل الإذاعة والتلفزيون في شبكة CBS تمكّنوا من الحصول على نسخة واحدة من هذا التقرير. ونشرت نيويورك تايمز مقتطفات من هذا التقرير على صفحاتها، وفعل "شور" الشيء نفسه على شاشة التلفزيون.

---

١ - Time, 1976, February 9.

إتّهم البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة بايك بتسليم التقرير للصحيفة والتلفزيون، في حين أكّد بايك، من ناحيته، على أن لا علاقة له بتسرّب المعلومات. وهنا نشرت صحيفة "فيليج فويس" التقرير بكامله. وهي صحيفة صغيرة الحجم كثيرة الصفحات تصدر من مكاتبها الواقعة في أحد أحياء نيويورك وهو حيّ "غرينفيتش فيليج" ويُعرف بالحيّ البوهيميّ. وعند نشر هذه الصحيفة التقرير بكامله أثارت بذلك السخط والاستياء في واشنطن الرسميّة. ولكن، هل كان هذا الاستياء صادقًا، علمًا بأنّ جميع بنود التقرير الرئيسيّة كانت قد نُشرت في الصحافة الأميركيّة؟

أخذ "شور" على عاتقه مسؤوليّة تسليم التقرير لصحيفة "فيليج فويس"، واضطرّ، إثر ذلك، إلى الاستقالة من شبكة الإذاعة والتلفزة التي يعمل فيها. ولكن كما قالت مجلّة نيوزويك في عددها الصادر في شباط ـ فبراير ١٩٧٦، كانت تدور في واشنطن أحاديث مفادها أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تقف وراء نشر هذا التقرير. وقد خشيت الوكالة، على وجه التخصيص، تلك التوصيات التي يمكن أن تضعها اللجنة، والتي تنصّ على وضع نظام أشدّ من الرقابة والإشراف على نشاط الاستخبارات، من جانب الكونغرس. ومن أجل نسف هذه الخطوة كانت الوكالة بحاجة ماسّة إلى أن تظهر للكونغرس أنّه عاجز عن المحافظة على أسرار الوثائق.

في ربيع ١٩٧٦، صدر تقرير لجنة تشرش في مجلّدَين هما "الاستخبارات الخارجيّة والعسكريّة" و"النشاط الاستخباريّ وحقوق الأميركيّين". وقد اجتاز هذان التقريران أقسى رقابة إذ حذفت منهما وكالة المخابرات المركزيّة حوالي مئتَي صفحة. من خلال الأنباء الصحافيّة تبيّن أنّه من أصل أحد عشر عضوًا في اللجنة الخاصّة، لم يؤيّد حظر الأعمال التخريبيّة السريّة إلاّ تشرش وحده[١]. لكنّ رأيه لم يؤخذ

---

١ - The New York Times, 27, IV, 1976.

بعين الاعتبار، وحصلت "الدسائس القذرة" على موافقة أعضاء مجلس الشيوخ. لكنّ هذه الموافقة لم تكن إجماعيّة. وقد جاء في تقرير لجنة تشرش: "إنّ تحقيق اللجنة في العمليّات شبه العسكريّة يظهر أنّ هذه الأعمال تُعتبر حالة غير سويّة، إن لم تكن شذوذاً عن الأعمال التخريبيّة السريّة". إنّ انتقاد العمليّات شبه العسكريّة لوكالة المخابرات المركزيّة لم يتطرّق إلى طابعها اللصوصيّ واكتفى بالنظر في فعاليّتها. وقد جاء في هذا التقرير "أنّ من بين خمس عمليّات شبه عسكريّة، درستها اللجنة ، ثمّة عمليّة واحدة فقط حقّقت هدفها". ولم يشرح التقرير العمليّات الحربيّة المقصودة. غير أنّ صحيفة نيويورك تايمز، في تعليقها على هذا التقرير، أشارت إلى أنّ أعضاء مجلس الشيوخ درسوا العمليّات شبه العسكريّة التي نفّذتها وكالة المخابرات المركزيّة في اليونان وكوريا ولاووس وجنوب فييتنام وكوبا. ويمكن الافتراض أنّ العمليّة التي حقّقت هدفها كانت العمليّة شبه العسكريّة والواسعة النطاق التي نفّذتها وكالة المخابرات المركزيّة في اليونان في النصف الثاني من الأربعينات.

سمحت لجنتا تشرش وبايك لنفسَيهما بإبداء عدد من الملاحظات الصريحة حول التدخّل المكثّف لوكالة المخابرات المركزيّة في الحياة السياسيّة لإيطاليا، وتمويلها السريّ للأحزاب البورجوازيّة الإيطاليّة، حيث قدّمت لها الوكالة أكثر من مئة مليون دولار. وقد جّهت التقارير انتقاداتها لاستخدام الصحافيّين والعلماء والزعماء الدينيّين الأميركيّين في أغراض التجسّس. وقد أثار ضجّة كبيرة، في الولايات المتّحدة، الكشف عن الأعمال الدعائيّة التخريبيّة لوكالة المخابرات المركزيّة، وعلى وجه الخصوص، استدراج الرأي العامّ الأميركيّ.

في الأوساط الأميركيّة، نجد تقويمات متباينة للغاية لمحصلات عمل لجنتَي تشرش وبايك. وقد رأينا أعلاه، أنّ فورد اتّهمهما بالسلوك اللامسؤول. ومثل هذه الأوصاف

والنعوت، استمرّت طويلاً تتكرّر من جانب أصدقاء لانغلي. فهم يؤكّدون على إلحاق "ضرر لا يمكن إصلاحه" بالاستخبارات.

في الجانب الآخر من تقويمات مرافعات اللجنتَن الخاصتّين، هناك من يعتقد أنّ عملهما كان قليل الفعاليّة، ويكاد يكون بلا فائدة. ومن بين هؤلاء، ممثّلي الأوساط الصحافيّة المعروفة، الذين يرون أنّ عمل اللجنتَين اقتصر على تكرار ما كان قد نشره المسؤوون السابقون في وكالة المخابرات المركزيّة، وهيرش، والممثّلون الآخرون لـ "الصحافة الفاضحة".

الكاتب الاجتماعيّ "ت. برانش" أكّد، في مقالة كتبها بعنوان ساخر هو "الحكم على وكالة المخابرات المركزيّة"، على أنّ المخابرات المركزيّة، عامّة وبصورة كليّة، قد خدعت لجنتَي الكونغرس، بعدم السماح لهما بالنفاذ إلى آليّة الأعمال التخريبيّة السريّة، وإلى أسرار "المجوهرات العائليّة". أمّا بالنسبة للنشاط الاستخباريّ، فلم تتطرّق إليه اللجنتان بتاتًا.

ويقول برانش، في خاتمة مقالته: "برغم أنّ لجنتَي تشرش وبايك قد قدّمتا نتائج كبيرة، فقد أظهرت وكالة المخابرات المركزيّة نفسها، على أنّها أستاذة ماهرة في توجيه المناخ السياسيّ. لقد بدأت لانغلي هذه التحقيقات التجسّسيّة في وضع قاس، فكانت تشبه ملاكمًا محصورًا في زاوية الحلبة، غير أنّها خرجت، من هذه التحقيقات، منتصرة وغالبة. إنّ سلطتها الفريدة، والخفيّة عمومًا، كما في السابق، تبقى فوق أيّ جرح أو إصابة. ولا يقدر أحد في واشنطن على تحدّيها"[١].

---

١ - The New York Magazine, 1976, September 12.

يتذكّر "ر. كلاين" برضى واضح، ملحمة ظهور تقرير بايك على صفحات "فيليج فويس" وليس في قاعات الكونغرس فيقول صراحة، إنّه على هذا النحو، فهذه الوثيقة الخطيرة "فجّرت نفسها بنفسها".

أمّا "راي مونديل"، عضو لجنة تشرش، ومن ثمّ نائب الرئيس الأميركيّ في ما بين ١٩٧٧ ـ ١٩٨١، ومرشّح الحزب الديمقراطيّ لمنصب الرئاسة في العام ١٩٨٤، فيختلف عن الأطروحات القائلة بـ"لامسؤوليّة" اللجان من ناحية، وعقم عملها من ناحية أخرى. فقد كتب يقول: "إستمعت لجنة تشرش إلى رجالات الدولة السابقين المحترمين في بلادنا، الذين كانوا يتحدّثون عن الكفاءة الإداريّة لوكالة المخابرات المركزيّة في تنظيم القتل والاغتيال، كما لو أنّهم يتحدّثون عن خيار بسيط. لقد درسنا كيف كانت الولايات المتّحدة تستخدم الرشوة والفساد والقمع والقوّة في جميع أنحاء الكرة الأرضيّة تقريبًا. ورأينا أنّ الجاسوسيّة توجَّه، سواء ضدّ أعدائنا أو ضدّ أصدقائنا. وبحثت اللجنة كيف استخدمت مؤسّساتنا العلميّة والأكاديميّة وصحافتنا ومؤسّساتنا الدينيّة من أجل الأغراض التخريبيّة السريّة، بالرغم من المكانة الخاصّة لهذه المؤسّسات في مجتمعنا الديمقراطيّ. لقد اتّضح لي أنّنا دفعنا غاليًا جدًّا ثمن هذا كلّه. فالتدخّل السريّ الأميركيّ كان ينسف، في أحيان كثيرة، تلك المؤسّسات الديمقراطيّة ذاتها التي حاولنا الدعاية لها وترويجها. وبسبب أعمالنا السريّة، يتناقص، باستمرار يومًا بعد يوم، من ينظر إلى الولايات المتّحدة على أنّها مثال للديمقراطيّة... وداخل البلاد، تضعف ثقة الأميركيّين بحكومتهم،.نظرًا لأنّ زعماءنا يستخدمون العمليّات الاستخباريّة السريّة لتضليل الرأي العامّ، ولخرق المسيرة الديمقراطيّة. لقد توصّلت إلى قناعة مفادها أنّه لا بدّ من تغييرات أساسيّة في النشاط الاستخباريّ الأميركيّ، وإلاّ فإنّ هذا النشاط سيقلب أميركا من الأساس".

برغم أنّ مثل هذه التصريحات تحمل بصمات الصراع بين الحزبَين في تلك المرحلة، فهذا لا يقلّل، أبدًا، من أهميّتها، لأنّ هذه التقويمات قد ظهرت على أثر الجرائم والإساءات المكتشفة، حيث بدأ الأميركيّون، لتوّهم، باستيعاب الوقائع والاكتشافات الجديدة. من هذا المنطلق نفسه، كتبت مجلّة تايم تقول مؤكّدة على "أنّ لجنتَي الكونغرس الخاصتَين "قد فضحتا التنوّع الرهيب للإساءات في استخدام السلطة، التي ارتكبتها الاستحبارات الأميركيّة"[1].

وبعد مدّة قصيرة كتبت التايم رأيها الموجز التالي: "إنّ تقرير لجنة تشرش، بجزءَيه الضخمَين المؤلّفين من ٨١٥ صفحة، والذي استغرق إعداده خمسة عشر شهرًا، هو حكم مرعب ورهيب على أجهزة الاستخبارات الأميركيّة، وعلى ستّة رؤساء... وذلك لخرقهم، بكلّ راحة ضمير، المثل العليا للديمقراطيّة والحقوق الشخصيّة، في أثناء جمع المعلومات داخل البلاد، أو تنفيذ العمليّات السريّة في الخارج"[2].

وأشارت مجلّة الإيكونوميست إلى أنّ "هياكل عظميّة قد سُحبت من خزائن وكالة المخابرات المركزيّة ودوائر الاستخبارات المشابهة لها وعُرضت على أنظار الرأي العامّ الأميركيّ".

ورأينا أنّه يجب تجنّب التطرّف، الذي لاحظناه في التقويمات البورجوازيّة الأميركيّة، للعمل الذي أنجزته اللجان. فاللجان لم تمرّ مرور الكرام أمام الظواهر المقيتة للغاية التي شكّلت، حسب رأيها، تهديدًا محتملاً للديمقراطيّة الأميركيّة. وقد

---

١ - Time, 1976, May 10.

٢ - Newsweek, 1976, March 1.

أغاظها أنّ فرسان المعطف والخنجر، في ارتكابهم لأعمالهم غير المشروعة والمخالفة للدستور، كانوا يقومون بالتجسّس على أصحاب السلطة التشريعيّة، وحاولوا التأثير عليهم، بل واستفزازهم. غير أنّ اللجنتَين كلتَيهما، لم تفكّرا بخلق أيّ "أزمة لوكالة المخابرات المركزيّة" أو إخراج لانغلي من السكّة. لقد تمكّنتا من الكشف عن الجزء الأصغر من العمليّات التخريبيّة السريّة. وفي أغلب الأحوال، كان ممثّلو وكالة المخابرات المركزيّة، المتعاونون مع لجنة تشرش، يزوّدونها بمعلومات متضاربة، نصفيّة ومزيّفة.

إنّ التغييرات التي اقترحت اللجنتان إجراءها، والمتعلّقة بالسلطة التنفيذيّة، قد رُفضت، عمليًّا، رغم أنّها كانت، بغالبيّتها، ذات طابع بريء "تجميليّ". هكذا إذن، لم تحدث التغييرات الجذريّة التي دعا إليها مونديل، على وجه التخصيص، في النشاط الاستخباريّ الأميركيّ. واقتصر فورد على إجراء إعادة تنظيم بنية قيادة الاستخبارات المشتركة، وهي أكبر تغيير، حسب رأي عدد من الباحثين، منذ تأسيس وكالة المخابرات المركزيّة. ورافق عمليّة إعادة التنظيم هذه تغييرات هامّة في كادر الوكالة.

إضطرّ فورد للإصغاء إلى شكاوي ممثّلي الاستخبارات المشتركة، حول أنّ كيسنجر، باعتباره مساعدًا للرئيس لشؤون الأمن القوميّ ووزيرًا للخارجيّة، في الآن نفسه، قد فرض رقابته الشخصيّة على الاستخبارات كلّها، وهذا "غير مبرّر وخاطئ". وكانت قد تقدّمت لجنة تنظيم النشاط السياسيّ الخارجيّ للحكومة، برئاسة ريتشارد مورفي، رجل الأعمال الكبير والنائب السابق لوزير الخارجيّة، وهي اللجنة التي شُكّلت قبل ثلاث سنوات، بتوصية تحظّر على مساعد الرئيس لشؤون الأمن القوميّ شغل أيّ مناصب أخرى. ولوجود توصية اللجنة بين يدَيه، أعفى فورد كيسنجر من منصب

مساعد الرئيس لشؤون الأمن القوميّ، برغم معارضة كيسنجر، وترك له منصب وزير الخارجيّة.

يمكننا تصوّر أهميّة هذا القرار، على نحو أفضل، إذا ما أخذنا في اعتبارنا التعريف الدقيق الذي أوردته مجلّة "إيكونوميست" البريطانيّة، حيث كتبت تقول إنّ "السيّد كيسنجر قد جعل من نفسه، الشخص الرئيسيّ في إدارة شؤون الاستخبارات، وكذلك المستهلك الرئيسيّ للمعلومات الاستخباريّة"[1].

وباعتباره أيضًا رئيس اللجنة ٤٠، فقد كان كيسنجر القوّة المحرّكة لغالبيّة العمليّات التخريبيّة السريّة. وأصبح الجنرال "ب. سكووكروفت"، نائب كيسنجر سابقًا، المساعد الجديد للرئيس لشؤون الأمن القوميّ.

أقال فورد كولبي من منصبه كمدير لوكالة المخابرات المركزيّة، وعيّن مكانه جورج بوش الأب، ملياردير النفط التكساسيّ، وعضو الكونغرس سابقًا، ورئيس اللجنة الوطنيّة للحزب الجمهوريّ. وبدلاً من اللجنة ٤٠، التي اكتسبت سمعة سيّئة، شكّل فورد المجموعة الاستشاريّة العمليّاتيّة برئاسة سكووكروفت. وتمّ رفع المستوى الوظيفيّ لأعضائها. فقد ضمّت مدير وكالة المخابرات المركزيّة ووزير الخارجيّة ووزير الدفاع ورئيس لجنة رؤساء الأركانات، بالإضافة إلى وزير العدل ومدير مكتب الإدارة والميزانيّة بصفة عضوين مراقبين. وكُلّف وزير العدل بمهمّة مراقبة "مراعاة القوانين" والتقيّد بها، في أثناء تنفيذ العمليّات السريّة، كما أُلقيت على عاتق مدير الإدارة والميزانيّة مسؤوليّة التحقّق من صدق ومشروعيّة الحاجات الماليّة لأجهزة الاستخبارات. إحتفظت المجموعة الاستشاريّة العمليّاتيّة بوظائف اللجنة ٤٠، إذ كان

---

١ - The Economist, 1978, January 14.

عليها، وضع التوصيات للرئيس حول تنفيذ العمليّات التخريبيّة السريّة و"الواجبات ذات الأهميّة الخاصّة بجمع المعطيات الاستخباريّة". من أجل قيادة الاستخبارات المشتركة كلّها، تشكّلت لجنة جديدة للاستخبارات الخارجيّة برئاسة جورج بوش الأب. وقد ضمّت هذه اللجنة مساعد وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات "ر. إيلسوورت" ونائب مساعد الرئيس لشؤون الأمن القوميّ "و. هايلند". وأنيط بلجنة الاستخبارات الخارجيّة مراقبة الاعتمادات الخاصّة بنشاط الدوائر ذات العضويّة في الاستخبارات المشتركة.

من بين المستحدثات في البنية التحتيّة الاستخباريّة جرى تشكيل مجلس المراقبة المستقلّ، الذي تألّف من "ر. تشرني" رئيسًا، وهو رجل الأعمال والمناوئ الشديد للشيوعيّة المعروف بصلاته القديمة بوكالة المخابرات المركزيّة، وريتشارد مورفي، و"س. إيلس" وزير الجيش السابق، وهو حقوقيّ من واشنطن. وكان على هذا المجلس أن يرمز إلى تصميم البيت الأبيض على حماية حقوق المواطنين الأميركيّين، من تطاولات الاستخبارات، وعدم السماح بـ"الأعمال القاسية الوحشيّة" في الخارج.

أمّا المجلس الاستشاريّ الرئاسيّ للاستخبارات الخارجيّة، وهو صلة الوصل بين الاستخبارات المشتركة ورجال الأعمال، فقد بقي كما كان. واعتُبر مجلس المراقبة حلقة عضويّة مكمّلة لهذا المجلس. ودون أيّة إشارة، ولو بكلمة واحدة، إلى توصيات لجنتَي تشرش وبايك، يؤكّد فورد، في مذكّراته، على أنّه "قام بإعادة تنظيم الاستخبارات وإصلاحها، على أساس النصائح والاستنتاجات الممتازة التي وضعتها لجنة روكفلر"[1].

بعد أن أصدر أمرًا تنفيذيًّا حول الاستخبارات، عاد فورد، مرارًا، إلى هذه القضيّة، في خطبه ومؤتمراته الصحفيّة، خلال عام ١٩٧٦. وأكّد على أنّه سوف يتحمّل

١- Ford G., *A Time To Heal*, P. 325.

مسؤوليّة شخصيّة عن قيادة الاستخبارات المشتركة، ولن يسمح بـ "الإساءة والاستهتار"، وأنّ إعادة التنظيم التي اقترحها، يجري تنفيذها على أساس طرق الإدارة والإشراف المجرّبة. وهو يرى أنّه يجب ألاّ يترك أيّ شيء انطباعًا جيّدًا لدى الأميركيّين عن الاستخبارات، مثل التأكيد على أنّ الاستخبارات الأميركيّة تطبّق على نفسها طرق الإدارة، والتحليل المنهجيّ، وأقنية المحاسبة الدقيقة نفسها، التي تتسلّح بها الاتّحادات التجاريّة والتجمّعات الاقتصاديّة والمؤسّسات الماليّة. وأعرب فورد عن تأييده لتلك المراسيم التشريعيّة، التي ستعتبر المؤامرات، أو قتل المواطنين والزعماء الأجانب، في وقت السلم، جريمة يعاقب عليها القانون. وحظّر الرئيس إجراء التجارب على الناس، دون علمهم وموافقتهم، وهي التجارب التي كانت تجريها وكالة المخابرات المركزيّة والبنتاغون، بهدف تصنيع مستحضرات وعقاقير لمراقبة النشاط العقليّ والنفسيّ. وكجزء من خطّة الإصلاح وإعادة التنظيم، اقترح فورد، بصورة تشريعيّة، تعزيز التدابير، التي تنصّ على المسؤوليّة القضائيّة للعاملين في الاستخبارات، وجميع الأشخاص المتعاونين معها، عن إفشاء المعلومات السريّة. وقد روّج فورد، على نحو خاصّ، لهذه التدابير، ما دفع بالمؤرّخ شليسنغر إلى إبداء الرأي التالي: "كان فورد ساخطًا على تسرّب المعلومات من الكونغرس، أكثر بكثير من سخطه على إساءات وكالة المخابرات المركزيّة"[1].

وفي مقالته "إصلاح وكالة المخابرات المركزيّة"، يعبّر شليسنغر عن شكوكه، بأن تقضي إعادة التنظيم هذه على "إساءات" لانغلي واستهتارها. وأكّد على أنّ أوّل ما يجب عمله هو تقليص اعتمادات وكالة المخابرات المركزيّة إلى النصف، وبدلاً من الاهتمام

---

١ - Wall Street Journal, 1976, February 25.

بإخراج العمليّات السريّة التخريبيّة يجب الاهتمام بعملها الأساسيّ الذي نصّ عليه القانون، وهو جمع المعلومات الاستخبارية وتحليلها. غير أنّ فورد لم يقدم على أيّة تنالات في مجال الأعمال التخريبيّة السريّة. فقد أكّد على "صحّة رأيه" بالأسانيد والاستشهادات التقليديّة، بخطر "التوسّع السوفياتيّ" وما شابه ذلك. وفي أثناء أحد المؤتمرات الصحفيّة، أعلن الرئيس قائلاً: "علينا المحافظة على قدرتنا الاستخباريّة الفعّالة. وأنا لا أنوي المشاركة في حلّ وكالة المخابرات المركزيّة أو ووكالات الاستخبارات الأخرى".

واعتقادًا منه بأنّ موقفه الصلب من هذه المسألة سيسهّل فوزه في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٧٦، لم ينس فورد، في الوقت نفسه، تقارير تشرش بايك التي أظهرت للأميركيّين مجموعة ضخمة من الأشياء القبيحة في الاستخبارات. ومن هنا جاءت تأكيداته على النحو التالي: "بودّي أن آمل بأن ينتخب الشعب الأميركيّ الرئيس الذي لن يسيء استعمال مسؤوليّته عن قيادة الاستخبارات. وأنا، بالطبع، لا أنوي إساءة استعمال ذلك".

لم يعتبر فورد التدخّل في شؤون الدول الأخرى إساءة في استعمال السلطة، برغم أنّه يشكّل خرقًا سافرًا لحقوق شعوب ذات سيادة. لقد أظهرت عمليّتان، من هذا النوع، قامت بهما وكالة المخابرات المركزيّة، إحداهما فاشلة في أنغولا، والأخرى ناجحة في أوستراليا، للعالم كلّه، أنّه بالرغم من جميع المرافعات والتحقيقات في الكونغرس والفضائح في الصحافة، فإنّ آلة الاستخبارات الأميركيّة تسعى، بإصرار، إلى تنفيذ أعمالها السوداء، بعلم الأوساط الحاكمة الأميركيّة وبتوجيهاتها.

كانت وكالة المخابرات المركزيّة ترتبط بصلات قديمة مع الجماعة الانفصاليّة في حركة التحرّر الأنغوليّة المعروفة باسم الجبهة الوطنيّة لتحرير أنغولا، ومع زعيمها

"خ. روبرتو". وعندما انشقّت عن هذه الجبهة في عام ١٩٦٦، جماعة انفصاليّة أخـرى هـي الـ "أونيتـا" بزعامـة "ي. ساويمبي"، وضعتهـا وكالـة المخـابرات المركزيّـة تحـت حمايتها. وقد استخدمتها الاستخبارات الأميركيّة، معًا، لمحاربة الحركة الشعبيّة لتحريـر أنغولا.

بعد سقوط النظام الاستعماريّ البرتغاليّ في أفريقيا، فكّرت واشنطن بتسليم السلطة في أنغـولا للجبهـة الوطنيّـة لتحريـر أنغـولا وللأونيتـا. وقد بحثـت اللجنـة ٤٠ المسـألة الأنغوليّة في اجتماعاتها، في كانون الثاني - يناير وحزيران - يونيـو ١٩٧٥. وفـي ١٤ تمّوز - يوليو أعطت اللجنة ٤٠ تعليماتها إلى وكالة المخابرات المركزيّة بوضع مخطّط للعمليّات السريّة في أنغولا، وعرضه عليها للبحث. سُلّم المخطّط بعد يومين فقط، وفـي اليوم نفسه، أقرّه الرئيس فورد، الذي خصّص لوكالة المخابرات المركزيّة ستّة ملاييـن دولار لهذه العمليّة. وفي ٢٧ تمّـوز - يوليـو، أضـاف الرئيـس إلـى هـذا المبلـغ ثمانيـة ملايين دولار". وفي ٢٩ تمّوز - يوليو أُرسلت الدفعة الأولى من السلاح الأميركيّ إلـى أنغولا، عن طريق كينشاسا، لقوّات الحركتَين الانفصاليّتَين.

عُيّن رئيسًا للمجموعة العمليّاتيّة، لوكالة المخابرات المركزيّة، لشـؤون أنغـولا "ج. ستوكويل" الذي استقال، في ما بعد، من الاستخبارات احتجاجًا على الأساليب العدوانيّـة التي اتّبعتها الولايات المتّحدة في أنغولا، وأصدر كتابه "بحثًا عن الأعداء، تاريخ وكالـة المخابرات المركزيّة". والفكرة الرئيسيّة لهذا الكتاب تقدّمها العبارة التي وُضعت علـى غـلاف الكتـاب الخـارجيّ: "ربيـع ١٩٧٦: بعد أن فقدت وكالـة المخـابرات المركزيّـة سايغون، تثير القلاقل، الآن، في أنغولا، وتستعدّ لحرب جديدة". يؤكّد ستوكويل على أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد خصّصت، في عام ١٩٧٥، لمغـامرة أنغـولا ٣٢ مليـون دولار. وكانت مستعدّة لإنفاق مبلغ أكبر لولا أنّ الظروف لم تساعدها. ووفقًا لقانون

هيوز ـ راين، فقد أعلم أعضاء لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجيّة بتطوّر العمليّة الأنغوليّة، ولكن على نحو كاذب ومزيّف تمامًا. وفي آب ـ أغسطس ١٩٧٥، توجّه ر. كلارك، رئيس اللجنة الفرعيّة لشؤون أفريقيا، التابعة للجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجيّة، من لانغلي، إلى فروع وكالة المخابرات المركزيّة في هذه البلدان، بألاّ يطلعوا كلارك على الأهداف الحقيقيّة لعمليّة أنغولا، وأساليبها ونتائجها. ومع ذلك، عاد كلارك من جولته، وهو يحمل نظرة ريب وشكّ إلى المعلومات التي حصل عليها من كولبي، والتي قدّمتها له فروع الوكالة.

يقول ستوكويل: "كان كلارك قلقًا من أنّنا قد جررنا الولايات المتّحدة، سرًّا، إلى نزاع واسع ذي عواقب خطيرة. وبصورة ملموسة، كان قلقًا من: ١) إرسال السلاح إلى أنغولا مباشرة، ٢) مشاركة الأميركيّين في النزاع، ٣) من التعاون غير المشروع بين وكالة المخابرات المركزيّة واتّحاد جنوب أفريقيا"[١].

أدركت وكالة المخابرات المركزيّة، على الفور، اتّجاه السيناتور ذي النفوذ الواسع، ويخبرنا ستوكويل، بأنّه نُظّمت في لانغلي إضبارة خاصّة بكلارك، سُجّلت فيها تقويماته السريّة وانطباعاته التي سمح لنفسه بإبدائها في أثناء جولته في أفريقيا وبعدها. إنّ هذا الفصل مع السيناتور، يشكّل إيضاحًا ساطعًا لأمر شليسنغر وكولبي، بوقف عمليّة "الفوضى"، أي التجسّس على المواطنين الأميركيّين، وكذلك لتأكيدات لجنة روكفلر، التي نشرت تقريرها، في الفترة ذاتها، حيث كانت الوكالة تتجسّس على السيناتور وتراقبه.

Stockwell J., *In Search Of Ennemies, A CIA Story,* (New York,1978), P. 55- ١

في لانغلي لم يدركوا قلق كلارك فحسب، بل وقـرّروا أيضًـا اتّخـاذ تدابير معيّنـة، كـي لا ينقل هـذا القلـق إلـى زملائـه، وإلـى الـرأي العـام الأميركيّ. وأعطـي لوكالــة المخابرات المركزيّة الضوء الأخضر لشنّ حملة مكثّفة بهدف تبرير التدخّـل العسكريّ الأميركيّ في أنغولا.

دُعيت العمليّات الدعائيّة للمجموعة العمليّاتيّة الأنغوليّة باسم مرمّز هو "أياكـادنس". وكان هدفها الأساسـيّ التشـهير بــ"الحركـة الشـعبيّة لتحريـر أنغـولا"، والإسـاءة لسـمعة سياسة الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة الأخـرى فـي أعيـن الأفريقيّيـن، ومحاولـة إيصال الجماعتَين الانفصاليّتَين: الجبهة الوطنيّة لتحرير أنغـولا والأونيتـا، إلـى السـلطة في أنغولا. وأكد ستوكويل قائلاً: "لقد نشرنا دعايـة نشـيطة، فـي أوسـاط الـرأي الاعـام الأمـيركيّ، وقـد أدّى هـذا إلـى نتـائج محزنـة. فبعـض الأمـيركيّين المضلّلين بدعايتنـا، توجّهوا إلى أنغـولا، مقدمين بذلـك علـى الانتحـار... إنّ إخفاءنـا لتورّطنـا فـي شـؤون أنغولا، كان يهدف إلـى إبقـاء الصحافـة الأميركيّـة والـرأي العـام الأمـيركيّ فـي جهـل مطبق، لما كان يجري هناك، ولما كنّا نفعله".

في كلمته التي ألقاها في جلسة المحكمة الدوليّة "الشبيبة تتّهم الإمبرياليّة"، فـي أثنـاء المهرجان العالميّ التاسع للشبيبة والطلبة، فـي صيـف ١٩٨٧ فـي هافانـا، قـال الخبـير الأنغوليّ "م.ر. آ. مونتيرو": "كانت مهمّـة وكالـة المخـابرات المركزيّـة تشـمل القضـاء على طليعة الشعب الأنغوليّ ـ الحركة الشعبيّة لتحريـر أنغـولا، ووضـع عمـلاء وكالـة المخـابرات المركزيّـة علـى رأس السـلطة فـي أنغـولا، مـا يسـمح للإمبرياليّـة باسـتغلال موارد أنغولا الاقتصاديّة الكبيرة... ومن أجل شنّ حرب على الشعب الأنغوليّ، جنّـدت وكالة المخابرات المركزيّة، بالإضافة إلى القوّات العمليّة للجبهة الوطنيّة لتحرير أنغولا والأونيتا، جماعات من المستعمرين البرتغاليّين المتكتّلين في منظّمات فاشيّة متطرّفة...

وبعد ذلك، ظهر في أنغولا مأجورون وجنود من اتّحاد جنوب أفريقيا. أمام هذه الوقائع اتّجهت الحركة الشعبيّة لتحرير أنغولا طالبة العون من أصدقائها الدائمين من المقاتلين الكوبيّين الأمميّين، ومن الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة والأفريقيّة الأخرى، وكذلك من المنظّمات التقدّميّة في البلدان المختلفة".

إضطرّت الحركة الشعبيّة لتحرير أنغولا إلى طلب العون، بعد أن أصبحت وجهًا لوجه أمام أخطار الثورة المضادّة الداخليّة والتدخّل الأجنبيّ الخارجيّ. أمّا فورد، في مذكّراته، ووكالة المخابرات المركزيّة، كما يتّضح من كتاب سكويل، فيصوّر أنّ الأمور بصورة مقلوبة تمامًا، وبالتحديد، يدّعيان وكأنّ التدخّل الأميركيّ قد بدأ بعد حصول الحركة الشعبيّة لتحرير أنغولا على المساعدة من أصدقائها. وقد أكّد الحقوقيّ الأنغوليّ "ر. آليويش في هافانا، على أنّ "وكالة المخابرات المركزيّة شنّت حملة جديدة من التضليل الإعلاميّ، مشوّهة تتابع الأحداث، ومبرّرة بذلك تدخّلها في شؤون أنغولا بوجود الخبراء السوفيات والكوبيّين".

أثار تدخّل نظام بريتوريا العنصريّ في شؤون أنغولا عاصفة من الاحتجاجات، لا في أفريقيا فحسب، بل وفي العالم كلّه. بهذا الصدد، يؤكّد ستوكويل والمؤلّفون الآخرون على العلاقات الوثيقة التي كانت تربط وكالة المخابرات المركزيّة بـ "بوس" أي استخبارات جنوب أفريقيا.

إنّ شبح الانجرار إلى حرب مكشوفة ضدّ هذا البلد الأفريقيّ، بالتحالف مع اتّحاد جنوب أفريقيا، لم يشجّع كثيرًا غالبيّة أعضاء الكونغرس الأميركيّ. كانت النقطة الأخيرة، التي طفح بعدها الكيل ونفذ بها صبر أعضاء مجلس الشيوخ، الحادث الذي جرى في ٥ كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٧٥، في اجتماع لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجيّة.

في هذا الاجتماع ألقى "و. نلسون"، نائب مدير وكالة المخابرات المركزيّة ورئيس مديريّة العمليّات الاستخباريّة، كلمة اعترف فيها، لأوّل مرّة، بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة أرسلت السلاح إلى أنغولا. فقد خشي نلسون من أن يكذب بعد أن رأى العواقب السيئة التي عادت على هيلمز، لخداعه أعضاء هذه اللجنة ذاتها حول مسألة التشيلي. وحدث بعد اعتراف نلسون أن وصل "ي. كالكاهي"، نائب مساعد وزير الخارجيّة للشؤون الأفريقيّة، إلى قاعة الاجتماع، دون أن يعرف ما قاله نلسون. وتابع الكذب أمام أعضاء لجنة مجلس الشيوخ، حول عدم اشتراك حكومة الولايات المتّحدة في الحرب ضدّ أنغولا. إمتعض أعضاء مجلس الشيوخ، وأقرّت اللجنة مشروع قانون كلارك، الذي يحظّر استخدام الموارد الماليّة من أجل العمليّات في أنغولا. واستثنى مشروع القانون من ذلك الحظر، العمليّات الخاصّة بجمع المعلومات الاستخباريّة. بما أنّ الاعتمادات الماليّة لوكالة المخابرات المركزيّة تدخل في نفقات وزارة الدفاع بصورة أساسيّة، فقد أدخلت لجنة مجلس الشيوخ تعديلاً على ميزانيّة البنتاغون لعام ١٩٧٦ الماليّ، يحظّر عليها تمويل عمليّات أنغولا. أقرّ هذا التعديل، بغالبيّة الأصوات، في مجلسَي الشيوخ والنوّاب.

في تعليقه على قرار الكابيتول، يقول فورد "إنّ الكونغرس المعذّب بكوابيس الحرب في فييتنام، وقضيّة ووترغت، أخذ يقرّ القوانين، واحدًا إثر الآخر، التي تقيّد سلطة الرئيس في قطاع السياسة الخارجيّة"[١].

لم يوقف قرار الكونغرس وكالة المخابرات المركزيّة عن محاولات التدخّل في شؤون أنغولا. فقد تابعت وكالة المخابرات المركزيّة، في عهدَي الرئيسَين كارتر

---

١ - Ford G., *A Time To Heal*, P. 355.

وريغان، على حدّ سواء، تقديم العون والمساعدة للجبهة الوطنيّة لتحرير أنغولا وللأونيتا، بمعرفة الحكومة الأميركيّة وتأييدها.

وإذ لم تعط سياسة إثارة القلاقل، في أنغولا، تلك النتائج التي كانت ترجوها لانغلي، تطوّر الوضع على نحو مغاير في أوستراليا.

لقد بدأت الأعمال التخريبيّة للاستخبارات الأميركيّة ضدّ حكومة "غ. أويتليم" العمّاليّة، منذ عام ١٩٧٢، وبلغت ذوتها عام ١٩٧٥. وبالإضافة إلى الجوانب المختلفة من السياسة الخارجيّة للعمّال، لم يرق لوكالة المخابرات المركزيّة ولدوائر الاستخبارات الأخرى، ذات العضويّة في الاستخبارات المشتركة، أنّ حكومة أويتليم كانت تنوي تقليص الاستقلال الذاتيّ الكامل، الذي كانت تتمتّع به قواعد واشنطن ومراكزها الاستخباريّة على الأراضي الأوستراليّة. هذه المسألة بحثها، بالتفصيل، "ج. ناتان"، أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة ديلاور. وقد عرض ناتان على صفحات مجلّة "فورين بوليسي"، بصورة مقنعة، خطوة إثر خطوة، كيف تمكّنت وكالة المخابرات المركزيّة، في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٥، من استبدال رئيس الوزراء أويتليم بحاكم أوستراليا الجنرال "ج. كير"، الوثيق الارتباط بالاستخبارات الأميركيّة[١].

حدث هذا قبل يوم واحد فقط، من الموعد المقرّر لقيام رئيس الوزراء برفع مشروع قانون إلى البرلمان الأوستراليّ للحدّ من الاستقلال الإقليميّ المفرط لقواعد المخابرات الأميركيّة في أوستراليا. ولا تزال تعبّر الصحافة والرأي العام، عن سخطهما على تدخّل لانغليْ السافر في شؤون القارّة الخامسة.

---

١ - Foreign Policy, Winter 1982- 1983, No. 49.

إنّ النشاط الاستخباريّ الخارجيّ المكثّف لوكالة المخابرات المركزيّة، في العام المدعوّ بـ"عام الاستخبارات"، أي عام التحقيقات والمرافعات في لجان روكفلر وتشرش وبايك، يقضي على ادّعاءات زعماء إدارة فورد، الذين كانوا يشتكون من أنّ هذه التحقيقات تلحق الضرر بالاستخبارات وتقضي على روحها المعنويّة. وبحلول جورج بوش الأب في منصب مدير وكالة المخابرات المركزيّة، لم تتوقّع الاستخبارات المشتركة مجرّد إصلاحات تجميليّة، وهي التي أعلن عنها البيت الأبيض، بل وانتظرت تغييرات أخرى أكثر أهميّة. لقد عمل فورد وبوش معًا في مجلس النوّاب فترة من الزمن، وكان يعرف أحدهما الآخر معرفة جيّدة. لهذا، قامت بين البيت الأبيض ولانغلي علاقات وطيدة من الثقة والتفاهم، لم تقم بينهما منذ أوائل عام ١٩٦٩، وقت وصول نيكسون إلى السلطة، وحتّى أوائل عام ١٩٧٦، تاريخ استقالة كولبي. ويرى الباحث "ك. مبير" أنّ "العلاقات الحميمة" بين فورد وبوش قد زادت من تأثير الأخير ونفوذه في الحكومة الأميركيّة. ونشير سلفًا، هنا، إلى أنّه عندما قاد جورج بوش الأب، عام ١٩٨٠، الصراع من أجل ترشيحه لمنصب الرئاسة في إطار الحزب الجمهوريّ، كان يؤكّد على ناحيتَين: الأولى، أنّ تجربته في وكالة المخابرات المركزيّة لم تكن شيئًا آخر سوى "تفويضًا خياليًّا" له بالسلطة. والثانية، أنّه كان يعد، في حال انتخابه رئيسًا، بأن يتبع سياسة أشد "حزمًا تجاه الاتّحاد السوفياتيّ، وأن يزيد، بصورة حادّة، من النفقات العسكريّة"[١].

الناحية الثانية هذه كانت حاضرة، بوضوح، في نشاط بوش في منصبَي مدير وكالة المخابرات المركزيّة ورئيس لجنة الاستخبارات الخارجيّة.

---

١ - Time, 1980, March 10.

بدأ بوش نشاطه في الوكالة، بأن وصف تقويمات الوكالة للنفقات الدفاعيّة السوفياتيّة بأنّها مخفّضة. ومن هنا، يأتي استنتاجه القائل بأنّ محلّلي وكالة المخابرات المركزيّة لا يقدّرون التهديد السوفياتيّ حقّ التقدير. وقد عيّن مجموعة من الخبراء، من خارج الوكالة، دُعيت باسم "الفرقة ب". وكلّفت هذه المجموعة بإعادة قراءة المعطيات الاستخباريّة والتحليلات، وإعطاء الرأي فيها.

تألّفت "الفرقة ب" من "ر. يايبس" أستاذ التاريخ الروسيّ في جامعة هارفرد رئيسًا، و"ت. أولف" المسؤول في الاتّحاد الاحتكاريّ، والجنرال المتقاعد "د. غريهيم" المدير السابق لإدارة استخبارات وزارة الدفاع، و"ب. أولفوفيتس" الموظّف السابق في وكالة الرقابة على الأسلحة ونزع السلاح، و"ب. نيتسي" النائب السابق لوزير الدفاع، والجنرال المتقاعد للقوّات الجويّة "ج. فوغت"، و"و. فان كليفي" أستاذ جامعة كاليفورنيا الجنوبيّة والعضو السابق في مباحثات الحدّ من الأسلحة الاستراتيجيّة.

أمّا معايير انتقاء أعضاء هذه المجموعة فكانت مدى قبول كلّ منهم، بالنسبة لبوش والمجلس الاستشاريّ الرئاسيّ للاستخبارات الخارجيّة. والأهمّ من ذلك، كما أكّدت صحيفة نيويورك تايمز، هو "التمسّك بالنظرات المغرقة في التشاؤم، حول المخطّطات السوفياتيّة، بالمقارنة مع أولئك الذين كانوا يرون أنّ الاتّحاد السوفياتيّ يتبع نهج التكافؤ النسبيّ مع الولايات المتّحدة في المجال العسكريّ. وكان ملهم "الفرقة ب" هو الجنرال "ج. كيغان" رئيس استخبارات القوّات الجويّة الأميركيّة، الذي وقف، في عام ١٩٧٢، ضدّ المعاهدة السوفياتيّة الأميركيّة حول الحدّ من الأسلحة المضادّة للصواريخ، وضدّ الاتّفاقيّة السوفياتيّة الأميركيّة الموقّتة، حول الحدّ من الأسلحة الاستراتيجيّة الهجوميّة. وقد أقنع كيغان "الفرقة ب" بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ قد حقّق التفوّق العسكريّ على الولايات المتّحدة.

حتّى الآن، يتساءل الباحثون الأميركيّون عن السبب الذي دفع بوش إلى اتّخاذ هذه الخطوة بحقّ "المحلّلين المتشامخين"، الذين كانوا يزنون، بدونه، المعطيات عن النفقات الحربيّة السوفياتيّة. ويتساءلون أيضًا عمّا إذا كان بوش قد استطاع، حقًّا، أن يدرك، بسرعة وبصورة مستقلّة، خطر هذه التقويمات المخفّضة على الولايات المتّحدة. أم أنّ فورد وبوش قد رضخا لمطالب المجلس الاستشاريّ الرئاسيّ للاستخبارات الخارجيّة، الذي "تمت فيه قناعة بأنّ التقويمات السنويّة للقدرات وللأهداف السوفياتيّة قد تكون مخفّفة للغاية؟"[1]. أم أنّ هذه الخطوة كانت خطوة سياسيّ قدير، شعر بأنّ الانفراج يفقد ركيزته في واشنطن، ومن الواجب التلاعب والتلوّن بميول اليمينيّين المتطرّفين المتطلّعين إلى السلطة؟

بالرغم من أنّ فورد أعلن عن عزمه على ترشيح نفسه لانتخابات عام ١٩٧٦ الرئاسيّة، فقد برز مرشّح جمهوريّ رسميّ آخر، هو رونالد ريغان، حاكم كاليفورنيا السابق، ممثّل الناخبين من ذوي الميول المحافظة.

نجد، في مذكّرات فورد، فصلاً بعنوان "تحدّ من اليمين" يقول فيه إنّه حاول، دون فائدة، إقناع ريغان بسحب ترشيحه لانتخابات الرئاسة الأوليّة. وكان ريغان قد قاد حملة تحت شعارات: القضاء على الانفراج، تصعيد سباق التسلّح، وقف التحقيقات مع وكالة المخابرات المركزيّة وغيرها.

ليس مستبعدًا أن يكون من بين دوافع قرار بوش، الذي كان يقف فورد من ورائه بوضوح، بتوبيخ الأجهزة الاستخباريّة التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة، السعي إلى تنظيم مسرحيّة سياسيّة يمكن أن تساعد على إضعاف "التحدّي من اليمين" وتحييده.

---

١ - The New York Times, 26, XII, 1976.

وتُبقي، إلى جانب فورد، جزءًا ما من الأوساط المحافظة المتطرّفة. وهذه المسرحيّة كان من الممكن أن تساعد فورد، أيضًا، في تبريره ابتعاده عن سياسة الانفراج.

وكان هناك سبب آخر لابتعاد فورد عن سياسة الانفراج، هو أنغولا، التي كان الزعماء الأميركيّون يصوّرون الأحداث فيها، على أنّها خرق من جانب الاتّحاد السوفياتيّ لقواعد الانفراج. وعندما يتّجه فورد، في مذكّراته، إلى هذه المرحلة يقول: "لقد طرحنا أسئلة جديدة: هل كان الانفراج مفيدًا؟".

كانت "الفرقة ب" مدعوّة لكي تؤكّد من جانبها على أنّ الانفراج لم يكن مفيدًا.

تحدّث أحد المحللين، الذي رفض ذكر اسمه، عن انطباعاته عن المعارك التي دارت بين محلّلي وكالة المخابرات المركزيّة والمحلّلين "المتشائمين" فقال "إنّ تنظيم هذه المسألة كلّها، كان وحيد الجانب. وكان لدى المحلّلين، من خارج الوكالة، تفويض واسع، وقد استغلّوا هذا التفويض. كانت المناقشات في البداية، أشبه بالمذبحة الدمويّة. وكان المحلّلون، من الخارج، يتبجّحون بأن لديهم خبرة ربع قرن. وكان الخلاف يقع خارج الوقائع".

كانت القوّة، فعلاً، إلى جانب "الفرقة ب"، وتمكّنت من أن ترفع، عن طريق وكالة المخابرات المركزيّة "الفرقة آ"، للبيت الأبيض والكونغرس وجميع وسائل الإعلام الأميركيّة، تقويمًا جديدًا لسياسة الاتّحاد السوفياتيّ. أمّا النتيجة الرئيسة لهذا التقويم فهي أنّ الاتّحاد السوفياتيّ ينفق على الأغراض العسكريّة، من الأموال، أكثر بكثير من الولايات المتّحدة، ساعيًا إلى تحقيق التفوّق. ومع ذلك، فهذه المذبحة الدمويّة، كانت أشبه بلعبة بين "المتشائمين" و"المتفائلين". كانت هذه اللعبة ذات طابع مريب إن لم نقل مزيّفًا. ولنستعرض تاريخ هذه اللعبة منذ بدايتها.

في أواخر الستّينات وأوائل السبعينات، تصاعدت في أميركا الاتّجاهات المعادية للحرب في الرأي العامّ الأميركيّ. وطالب الاقتصاديّون والفيزيائيّون والكيميائيّون وعلماء البيولوجيا والأطبّاء ومحافظو المدن وحكّام الولايات بتغيير الأولويّات الأميركيّة القوميّة، وطالبوا بتقليص النفقات الحربيّة، وتخصيص موارد أكبر لحلّ المشاكل "العائليّة" المقترحة. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٤، أعلن أربعة وأربعون في المئة من المستفتين الأميركيّين، أنّهم يعتبرون النفقات الحربيّة الأميركيّة مرتفعة للغاية، بينما رأى اثنا عشر في المئة منهم فقط، أنّ هذه النفقات غير كافية[1].

هذه الاتّجاهات كانت تتعارض مع الأهداف القريبة والبعيدة للمجمع الحربيّ ـ الصناعيّ الأميركيّ. في هذه الظروف بدأت حملة دعائيّة مكثّفة تهدف إلى إثبات أنّ الولايات المتّحدة تنفق "قليلاً جدًا، وبصورة خطيرة" على الدفاع. وفي البنتاغون، عمل أكثر من ثلاثة آلاف داعية، ليلاً نهارًا، لإثارة الأساطير حول تزايد عدوانيّة السوفيات. ولكن حتّى هذا العدد الكبير من رجال الدعاية، بدا للبعض غير كاف، فانخرطت وكالة المخابرات المركزيّة في حملة الدعاية الجنونيّة المعادية للسوفيات، التي كان يشنّها أنصار النزعة العسكريّة.

في صيف ١٩٧٥، تحدّث في الكونغرس، كولبي مدير وكالة المخابرات المركزيّة، و"د. غريهيم" مدير إدارة استخبارات وزارة الدفاع آنذاك، وعرضا نفقات الاتّحاد السوفياتيّ الدفاعيّة. يصعب علينا معرفة مضمون حديثهما بدقّة. ولكن، في تشرين الأول ـ أكتوبر من العام نفسه، أقرّ شليسنغر وزير الدفاع، استنادًا إلى كلمتَي كولبي وغريهيم، أنّ الاتّحاد السوفياتيّ الذي ينفق على الدفاع من الأموال، أكثر بخمسين في

---

١ - International Herald Tribune, 21, X, 1974.

المئة ممّا تنفقه الولايات المتّحدة، يتابع زيادة نفقاته هذه، في حين تتقلّص، حسب زعمه، المخصّصات العسكريّة في الولايات المتّحدة. وقد كتب مراسل نيويورك تايمز، "ج. فيني" يقول "إنّ شليسنغر قد ارتكز في حجّته، بصورة أساسيّة، على التحليل المقارن الذي أعدّته وكالة المخابرات المركزيّة لجهود الاتّحاد السوفياتيّ"[1]. وقال فيني، بصراحة، إنّ شليسنغر احتاج إلى هذه التأكيدات من أجل تمرير ميزانيّة عسكريّة قياسيّة للبنتاغون عبر الكونغرس. بيد أنّه كان هناك، بين أعضاء الكونغرس، من لم يصدّق كولبي ولا غريهيم ولا شليسنغر. ويقول فيني بهذا الخصوص: "غير أنّ السيناتور ويليم بروكسماير، الديمقراطيّ عن ولاية فيكسوني، قد ناقش تحذيرات وزير الدفاع شليسنغر، وأعلن بالأمس، أنّ وزارة الدفاع قد شوّهت التقديرات الاستخباريّة، وبالغت فيها حول حجم البرنامج العسكريّ السوفياتيّ". ودعا بروكسماير اختلافات الاستخبارات والبنتاغون بأنّها "مجرّد ترّهات". غير أنّ وكالة المخابرات المركزيّة شرعت بتأليف تحليل جديد، دون أيّ اكتراث. وها هوذا المراسل فيني نفسه يقول في شباط ـ فبراير ١٩٧٦، إثر وصول بوش إلى السلطة، "إنّ وكالة المخابرات المركزيّة توصّلت إلى استنتاج مفاده أنّها أنقصت في تقديرها لحصّة الموارد الاقتصاديّة المخصّصة للدفاع بما يزيد على خمسين في المئة. وكانت وكالة المخابرات المركزيّة ترى، عادة في الماضي، أنّ الاتّحاد السوفياتيّ يخصّص نسبة تتراوح بين ٦ ـ ٨٪ من المنتوج القوميّ الإجماليّ للدفاع... وبرغم أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لا تزال تدرس تعديل هذا التقدير، فإنّ المسؤولين الرسميّين، المشاركين في هذه الدراسة يقولون "إنّ وكالة المخابرات المركزيّة ستصل الآن إلى نتيجة مفادها، أنّ نسبة

---

١ ـ The New York Times, 27, X, 1975.

تتراوح بين ١٠ ـ ١٥ من المنتوج القوميّ الإجماليّ السوفياتيّ ينفق على الدفاع"[١].

وحتّى الآن لم تصل إلى نتيجة وإلى اختلاق جديد. وهل ستصل؟ غير أنّ الصحافة ملأت الدنيا ضجيجًا بأحاديثها عن الخطر السوفياتيّ. فعلى أيّ شيء اعتمد تعديل تقديرات وكالة المخابرات المركزيّة؟ لقد اتّضح أنّها تلقّت "معلومات استخباريّة طازجة عن حجم القوّات المسلّحة السوفياتيّة وتطوّرها". وعلاوة على ذلك، "فقد حدثت تغييرات في الطرائق التي تستخدمها وكالة المخابرات المركزيّة في إحصاء وتقدير قيمة البرامج العسكريّة السوفياتيّة".

حسب تحليلات وكالة المخابرات المركزيّة، فالاتّحاد السوفياتيّ ينفق على الدفاع أكثر من الولايات المتّحدة بخمسة وثلاثين في المئة. في الوقت نفسه قذفت وكالة المخابرات المركزيّة، خفية، لوزير الدفاع الجديد "د. رامسفيلد" باختلاق جديد، يزعم وكأن النفقات العسكريّة السوفياتيّة قد بلغت مئتَي مليار دولار سنويًّا، وأنّها تزيد سنويًّا، بنسبة ٣ ـ ٥٪. وهل كان وزير الدفاع بحاجة لتذكّر أنّ الدخل القوميّ السوفياتيّ في عام ١٩٧٥، كما أعلن رسميًّا، قد بلغ ٣٦٢ مليار روبل، وأنّ حوالي ثمانين في المئة من هذا المبلغ قد استُخدم، بصورة مباشرة، من أجل تلبية حاجات الشعب وتحقيق رفاهيته؟

كان البنتاغون بحاجة إلى أموال لتصعيد سباق التسلّح. ولكي يسمح الكونغرس بتخصيص هذه الأموال، كان لا بدّ من تخويفه. من أجل هذا الغرض، جاءت معطيات خبراء التحليل في وكالة المخابرات المركزيّة في الوقت المناسب.

---

١ - The New York Times, 23, II, 1976.

لسبب ما لم يفكّر وزير الدفاع بسخافة حسابات خبراء وكالة المخابرات المركزيّة الاقتصاديّين وخطئها الواضح. واختلق هؤلاء الخبراء أرقامًا تبيّن كم كان من الممكن أن يكلّف الولايات المتّحدة، بالدولارات وبالأسعار الأميركيّة، الانفاق على القوّات المسلّحة السوفياتيّة وتجهيزها. إنّهم لم يعرفوا الفرق بين النظامَين الاقتصاديَّين القائمَين في البلدَين، وإنّهم لم يلاحظوا، أبدًا، التضخّم الماليّ الرهيب في الولايات المتّحدة.

لم تقتصر تقارير وكالة المخابرات المركزيّة على الأرقام. فقد لفّقت أيضًا رسومًا بيانيّة، عرضها وزير الدفاع رامسفيلد، في قاعة المؤتمرات الصحفيّة في البنتاغون، التي اكتظّت بالصحافيّين الذين وزّع عليهم رامسفيلد كتيّبًا مطبوعًا، وقال مشيرًا إلى الرسوم البيانيّة: "إنّ الرسوم البيانيّة تختلف عمّا هو مسجّل لديكم في الكتيّب. وهذا الاختلاف يرجع إلى انّ وكالة المخابرات المركزيّة، خلال هذا الأسبوع، وضعت صيغة علنيّة لتقويماتها الجديدة بخصوص اتّجاهات برنامج الدفاع السوفياتيّ بالدولارات... في الرسوم البيانيّة السابقة، كان هذا الخطّ يمرّ في هذا المكان. والآن نراه قد وصل إلى هنا...".

أخذت تنشر المعطيات الجديدة التي باركها رامسفيلد، على صفحات الدوريّات الأميركيّة والأجنبيّة، وتُبثّ على موجات الأثير.

أعلن السيناتور بروكسماير وعضو الكونغرس "ل. إسبين"، في أواخر آذار ــ مارس ١٩٧٦، أنّ الطريقة التي تستخدمها وكالة المخابرات المركزيّة لتقدير نفقات الاتّحاد السوفياتيّ الدفاعيّة هي طريقة "متحيّزة"، فهي تبالغ فيها. وأكّد عضو الكونغرس إسبين، الذي كتب مقالة في مجلّة فورين بوليسي حول هذا الموضوع، إنّ "إحصائيّات كثيرة تتعرّض للتشويه، عندما يتحدّثون

عندما عن القوّات المسلّحة السوفياتيّة"[1]. تلك هي نتائج المحلّلين المتفائلين من وكالة المخابرات المركزيّة.

في أواخر آب ـ أغسطس ١٩٧٦، عندما اكتشفوا بجهودهم، تخلّف الولايات المتّحدة عن الاتّحاد السوفياتيّ في المجال العسكريّ، باشرت "الفرقة ب" عملها. ومُنحت صلاحيّات أوسع لإثبات التقديرات التي تبيّن التخلّف السيّء الذكر للولايات المتّحدة، وبالتالي، لإشعال فتيل الجنون العسكريّ والتسلّح. غير أنّ مناورات بوش لم تساعد فورد. فقد هُزم في انتخابات الرئاسة. وعندها، سارعت لانغلي، على الفور، إلى العمل على استدراج الرئيس الديمقراطيّ الجديد.

في أواخر كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٦، سرّبت وكالة المخابرات المركزيّة معلومات إلى الصحف حول أنّها سوف تقدّم لجيمي كارتر، الذي كان يستعدّ لشغل منصب الرئاسة في البيت الأبيض، التقويمات الاستخباريّة القوميّة لأهداف الاتّحاد السوفياتيّ الاستراتيجيّة للسنوات العشر القادمة. وكما جاء في صحيفة نيويورك تايمز، فهذا التقويم سيكون "قاتمًا للغاية"، فهو سيتنبّأ بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ سوف يسعى إلى تحقيق التفوّق العسكريّ على الولايات المتّحدة. ومن جديد، تسرّعت وكالة المخابرات المركزيّة. فقبل أن يصل هذا التقويم الاستخباريّ القوميّ إلى جيمي كارتر، كانت الصحافة الأميركيّة والمحطّات الإذاعيّة والتلفزيونيّة قد نشرته، على الملأ.

لقد أثارت وكالة المخابرات المركزيّة الرأي العامّ، بوضوح، بهدف وضع البيت الأبيض في موقف حرج. في كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٧، وقبل عشرة أيّام من استلام جيمي كارتر لمسؤوليّاته كرئيس، نشرت وكالة المخابرات المركزيّة تقريرًا جاء فيه أنّ

---

١ ـ Foreign Policy, Spring 1976, No. 22

الاتّحاد السوفياتيّ ينفق على الأغراض العسكريّة أكثر من الولايات المتّحدة بثلاثين مليار دولار. وكان هدف هذه الضجّة الدعائيّة، واضحًا كلّ الوضوح، وهو عدم السماح لجيمي كارتر بتنفيذ تعهّداته التي أطلقها أثناء حملته الانتخابيّة، بتقليص الميزانيّة العسكريّة الأميركيّة بمقدار ٥ ـ ٧ مليار دولار، وعرقلة الوصول إلى نتيجة ناجحة في المحادثات السوفياتيّة الأميركيّة حول الحدّ من الأسلحة الاستراتيجيّة.

وتحت إيقاع التنبؤات القاتمة حول المخطّطات السوفياتيّة في الثمانينات، قدّم وزير الدفاع رامسفيلد، في خاتمة أعماله في البنتاغون، إلى الكونغرس من أجل المناقشة، مشروع ميزانيّة عسكريّة قياسيّة للولايات المتّحدة بلغت ١٢٣,١ مليار دولار. وأعلن أنّ هذا هو "المخرج الوحيد" للولايات المتّحدة، مشترطًا، في الوقت نفسه، ألاّ يتوقّف الكونغرس عند هذا الرقم خلال الثمانينات، بل أن يرفعه باستمرار.

في تلخيص لمحصّلة الفترة الرئاسيّة لجيرالد فورد في البيت الأبيض، التي استمرّت عامَين، تجدر الإشارة إلى أنّه كان نصيرًا نشيطًا لاستراتيجيّة التدخّل السريّ للاستخبارات المشتركة، في شؤون البلدان الأخرى، ومؤيّدًا لتعزيز مواقع وكالة المخابرات المركزيّة في منظومة السلطة. لقد استخدم الرئيس، دون أيّ تردّد، الاستخبارات كأداة للسياسة الخارجيّة، مدافعًا عنها وحاميًا إيّاها، بمختلف الوسائل، من انتقادات الكونغرس والرأي العامّ الأميركيّ. ومن أجل توطيد وكالة المخابرات المركزيّة وتحويلها إلى أداة أشدّ قوّة للإمبرياليّة الأميركيّة، قام فورد بإعادة تنظيم البنية القياديّة كلّها للاستخبارات المشتركة، وربطها، بصورة أوثق وأشدّ، بالفئات العليا، وسمح للقوى المتطرّفة الممثّلة في "الفرقة ب" بوضع نفسها، كبنية فوقيّة، فوق جميع كوادر لانغلي القياديّة، وفوق أجهزة الاستخبارات القريبة منها، على موجة أشدّ عداء للاتّحاد السوفياتيّ.

الثورة "الريغانيّة" في المخابرات الأميركيّة[1]

في أثناء الحملة الانتخابيّة لعام ١٩٨١، كان الموضوع الرئيسيّ لآراء ريغان حول مسائل الاستخبارات، إطلاق الوعود بأن يوفّر للاستخبارات، في حال انتخابه رئيسًا، كافّة الإمكانات لتنفيذ عملها دون أيّ عراقيل. وفي الوقت نفسه، ندّد، بصورة ديماغوجيّة، بالديمقراطيّين لإضعافهم دوائر الاستخبارات إلى درجة تقرب من الانهيار. وفي ٢٨ أيّار ـ مايو ١٩٨٠، نشرت صحيفة "جورنال" الإيطاليّة، حديثًا صحافيًّا أجرته مع ريغان، جاء فيه على وجه التحديد: "إنّ الإدارة الديمقراطيّة والكونغرس الديمقراطيّ قد قيّدا وكالة المخابرات المركزيّة وأضعفا روحها المعنويّة لدرجة أنّهما حكما عليها بعدم القيام بأيّ نشاط. ومع جميع الأخطار الإرهابيّة والحربيّة التي تهدّدنا، نحن نحتاج، بلا شكّ، إلى إدارة استخبارات من الدرجة الأولى.

كانت الاتّهامات ذات طابع مختلق وهادف. ففشل السياسة الأميركيّة في إيران ونيكاراغوا والمناطق الأخرى من الكرة الأرضيّة، وخوف الرساميل الأميركيّة المتعدّدة الجنسيّات على مواقعها في البلدان النامية، قد سمحا لريغان بأن يجمع رأسمال سياسيّ من نوع معيّن بين التجمّعات التجاريّة المختلفة، طارحًا مسألة ضعف دوائر الاستخبارات وعدم استخدامها بشكل كاف. إنّ أفكار ومخطّطات مرشّح الحزب

---

١ ـ فيتالي فاشيلفتش بتروستكو، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (دمشق، ١٩٨٩) ص٢٩٥ ـ ٣٢٢.

الجمهوريّ قد ضمنت له دعم التكتّلات اليمينيّة المتطرّفة العديدة، التي كان يحتلّ حيّزًا خاصًّا بينها عدد من المنظّمات الوثيقة الاتّصال بالاستخبارات المشتركة. ويجدر أن ننسب إليها رابطة العاملين القدماء في الاستخبارات، التي يبلغ عدد أعضائها أكثر من ألفي عضو. وقد كان الرئيس الأوّل لهذه الرابطة "د. ي. فيليبس"، رئيس مجموعة التشيلي العمليّاتيّة، ومن ثمّ مدير دائرة أميركا اللاتينيّة في إدارة العمليّات الاستخباريّة، وخبير وكالة المخابرات المركزيّة في مجال الدعاية "السوداء".

لقد تحوّلت رابطة العاملين القدماء في الاستخبارات إلى جماعة ضغط جبّارة، شاركت في خلال عامَي ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠، مشاركة نشيطة، في مقاومة النظام الداخليّ للاستخبارات. غير أنّ هذه الرابطة لم تقتصر على تنظيم الضغط على الكونغرس في مسائل الاستخبارات القريبة منها. فقد حاول ممثّلوها استغلال أيّ فرصة للإدلاء برأيهم في المرافعات المختلفة في الكونغرس حول مسائل السياسة الخارجيّة. وكانت رابطة العاملين القدماء في الاستخبارات تزوّد أعضاء السلطة التشريعيّة بمختلف أنواع الطعونات والانتقادات حول "الخطر السوفياتيّ".

وجنبًا إلى جنب مع رابطة العاملين القدماء في الاستخبارات، برز على الساحة في واشنطن، المركز القوميّ لأبحاث النشاط الاستخباريّ، الذي كان يرأس مجلسه الاستشاريّ ر. كلاين، النائب السابق لمدير وكالة المخابرات المركزيّة. وقد اعتبر المركز القوميّ لأبحاث النشاط الاستخباريّ نفسه مؤسّسة تثقيفيّة تسعى إلى "تحسين التأييد الاجتماعيّ العامّ للجهاز الاستخباريّ في الولايات المتّحدة". وقد برز بين العاملين في هذا المركز، "علماء وعسكريّون ومسؤولون حكوميّون سابقون، خبراء في مجالات الاستخبارات والأمن القوميّ والدفاع والسياسة الخارجيّة". وكان يقوم بدور كبير، في قوام المجلس الاستشاريّ لهذا المركز،

"ويليام كيسي"، الذي عيّنه ريغان رئيسًا لحملته الانتخابيّة ومن ثمّ مديرًا لوكالة المخابرات المركزيّة.

كان كيسي يُعتبر "الأب المؤسّس" لمنظّمة أخرى ذات مقرّين في نيويورك وواشنطن، وهي المركز الإعلاميّ للاستراتيجيّة القوميّة. وباعتباره شغل منصب مدير هذا المركز في الستّينات والسبعينات، فقد اجتذب كيسي إليه، العديد من أصحاب المصارف ورجال الأعمال من ذوي الآراء اليمينيّة المتطرّفة، ورجالات الحكومات البارزين السابقين. وبفضل جهودهم، أنشأ حوالي مئتَي جامعة ومعهد تضمّ في ملاكها وظائف أساتذة بل وأقسامًا كاملة حول موضوع "الاستخبارات والأمن القوميّ". وقد قام المركز الإعلاميّ للاستراتيجيّة القوميّة بتمويل دار نشر "كرين روساك إند كومباني" لإصدار الكتب المعادية للشيوعيّة والاتّحاد السوفياتيّ، التي كانت تزوّدها بها وكالة المخابرات المركزيّة والبنتاغون".

كان المركز الإعلاميّ للاستراتيجيّة القوميّة يرتبط ارتباطًا وثيقًا مع مركز الدراسات الاستراتيجيّة والدوليّة التابع لجامعة جورج تاون في واشنطن. وكان كبير المستشسارين فيه ر. كلاين، الذي كان يقوم، في الوقت نفسه، بدور مستشار رونالد ريغان وجورج بوش الأب لشؤون الاستخبارات والسياسة الخارجيّة، كما كان هذا المركز يتعاون مع صندوق واشنطن "هيريتاج" الذي كان يتطلّع إلى دور "مركز الرأس المفكّر" للجناح اليمينيّ في الحزب الجمهوريّ. وعندما باشر ريغان مهامه كرئيس للولايات المتّحدة، أصدر هذا القانون تقريرًا، أثبت فيه ضرورة توسيع دوائر الاستخبارات وتعزيزها. والأهمّ من ذلك، دعا إلى إعادة وظائفها السابقة إليها في مجال الأمن الداخليّ، وهذا ما فعله ريغان، الذي أصدر، في كانون الأوّل ــ ديسمبر ١٩٨١، أمرًا تنفيذيًّا حول الاستخبارات بهذا الخصوص.

نعود إلى أمور خبراء الاستخبارات، في فترة ما قبل الانتخابات، من المنظّمات المذكورة أعلاه، لنذكر كلمات "آ. رووز" المسؤول السابق في البيت الأبيض في عهد كارتر، وهو صحافيّ من واشنطن، درس هذه المسألة خصّيصًا. وقد قال إنّ هذه المنظّمات جميعها" قد انضمّت إلى معسكر ريغان"[1]. وكان نشاطها متعدّد الجوانب. فقد سعت، أوّلاً، إلى بثّ أفكار جديدة في فعاليّات الحملة الانتخابيّة للمرشّح الجمهوريّ للرئاسة. ويرى رووز أنّ جهودها، بالذات، كانت "أحد أسباب تزايد الاهتمام المفاجئ بالإرهاب والتضليل".

كتبت مجلّة "كوفرت أكشين": "لقد أوحى الجواسيس السابقون بمئات المقالات، من أجل خلق جوّ متأزّم مصطنع، على أساس تلك التهديدات، مثل المخطّط السوفياتيّ للحرب العالميّة الثالثة، والتأييد السوفياتيّ للإرهابيّين الدوليّين، والتغلغل السوفياتيّ في وسائل الإعلام في الولايات المتّحدة، بهدف تضليل الرأي العامّ الأميركيّ"[2].

طالبت خطّة الحزب الجمهوريّ، التي أقرّها مؤتمر الحزب القوميّ في عام ١٩٨٠، بصورة هستيريّة، بوضع حدّ لسوء تقدير الاستخبارات المشتركة "لحجم جهود الاتّحاد السوفياتيّ".

من أجل هذا كلّه، دافع ريغان عن تعزيز النشاط الاستخباريّ، بالاعتماد، بادئ ذي بدء، على العملاء والجواسيس. وقد كتب الباحثان "ر. إيفانس" و"ر. نزفاك" في كتابهما "الثورة الريغانيّة" يقولان: "في ما يتعلّق بوعود ريغان، بوضع حدّ للإرهاب وفضح التضليل، بديهيّ أنّه كان خطّط لخطوة هامّة واحدة، هي تعزيز استخبارات وكالة

---

١ - Roase A.E, *One Sweet Guy And What He Is Doing To You,* (Washington,1981), P. 121

٢ - Covert Action, 1981, April 12.

المخابرات المركزيّة وتحليل المعطيات الاستخباريّة من مواقع المحافظين. وبالاختلاف عن ذلك، لم يقدّر تيرنير، مدير وكالة المخابرات المركزيّة، الجاسوسيّة حقّ تقديرها، حسب زعمهما، وأولى اهتمامًا مفرطًا بالوسائل التقنيّة للحصول على المعلومات، كالأقمار الصناعيّة الاستخباريّة، والتقاط المعلومات عن طريق أنظمة الاتّصالات"[١].

كان هناك اتّجاه آخر لنشاط العاملين السابقين في الاستخبارات، وهو التشهير بالبيت الأبيض في عهد كارتر. وقد أصبح الرئيس نفسه ونائب الرئيس مونديل وغيرهما هدفًا للافتراءات. وأخيرًا قرّر جماعة ضغط الاستخبارات المشتركة تصفية حساباتها مع أولئك الذين تجرّأوا، لأوّل مرّة في أواسط السبعينات، على توبيخ وكالة المخابرات المركزيّة، وقاموا في الكونغرس بالتحقيقات التي لم ترق للاستخبارات. وساهمت، بقسط كبير، في حملة هذه الأوساط التي بذلت كلّ جهودها من أجل التشهير، في انتخابات ١٩٨٠، بـ"ف. تشرش" رئيس مجلس الشيوخ للشؤون الخارجيّة، و"ل. بيخ" رئيس لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات، والسيناتور "ج. ماكغوفرن"، وغيرهم من المشرّعين الذين كانوا يتمسّكون بآراء معتدلة أو ليبيراليّة. ونتيجة لذلك، هُزم جميع أعضاء مجلس الشيوخ المذكورين أعلاه في الانتخابات.

لقد تمكّن معسكر ريغان، باستغلاله لمختلف الأسباب الموضوعيّة والذاتيّة، بطابعها الاجتماعيّ ـ الاقتصاديّ، والسياسيّ والإيديولوجيّ، من تحريك القسم الأكبر من الناخبين الأميركيّين إلى اليمين، الأمر الذي ضمن للحزب الجمهوريّ ليس مجرّد الفوز في انتخابات الرئاسة فحسب، بل وتحقيق الأغلبيّة في مجلس الشيوخ. بالطبع، ضمن حملة الجمهوريّين الواسعة النطاق، كانت أعمال مجمع المنظّمات والمؤسّسات

---

١ - Evans P. , Novak R., *The Reagan Revolution,* (New York, 1981), P. 198.

المرتبطة بأوساط الاستخبارات، تبرز على أنّها أحد الجهود العديدة للأوساط المحافظة المتطرّفة. غير أنّ هذا لا يخفّض من قيمتها وأهميّتها، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، على وجه خاصّ، حقيقة أنّ هذا التدخّل في الصراع بين الحزبَين، من جانب القوى التي تمثّل، بوضوح، مصالح الاستخبارات المشتركة، لم تعرفها أيّ انتخابات سابقة.

إنّ أسطورة الطابع اللاسياسيّ، في العلاقات بين الحزبَين، لوكالة المخابرات المركزيّة والدوائر القريبة منها، واستغراقها في التزاماتها وواجباتها المهنيّة، قد أصيبت بشرخ كبير. فقد تمّ إثبات سابقة يمكن أن تتكرّر في أيّ حملة انتخابيّة أخرى، لا سيّما وأنّ جماعات الضغط التابعة للاستخبارات المشتركة، قد اكتسبت خبرة كبيرة في عام ١٩٨٠، وتذوّقت حلاوة الفوز. وقد أعاد كيسي كثيرًا من العاملين السابقين، الذين أُقيلوا في عهد شليسنغر وكولبي وتيرنير إلى وكالة المخابرات المركزيّة.

كتبت مجلّة كوفرت أكشين تقول: "إنّ الحملة الانتخابيّة الناجحة، بصورة منقطعة النظير، قد أمّنت لممثّلي أوساط الاستخبارات المناصب القياديّة في مجموعات ريغان الانتقاليّة الأربعة كلّها، في مجال السياسة الخارجيّة. وفي ما بعد، حصل أعضاء هذه المجموعات وأنصارهم على مناصب مختلفة في إدارة الحزب الجمهوريّ... إنّ الحركة التي دعمها وأيّدها رجال الدعاية، وهم من العاملين في وكالة المخابرات المركزيّة في مجال الإعلام الجماهيريّ، قد بعثت الحرب الباردة، عن طريق نشر الأخبار الملفّقة والدعاية السوداء، والتزييف والخداع، والمعلومات المعدّة، خصّيصًا، من أجل زرع الخوف والذعر. وهذه المواضيع كانت تبرز دومًا في جدول الأعمال، وسوف تحتلّ بلا شكّ مركز الصدارة في الدعاية طيلة السنوات القادمة"[1].

---

١ - Covert Action, 1981, April 12.

لقد دعت مجموعة ريغان الانتقاليّة لشؤون الاستخبارات، التي كان يرأسها "ج. ميدندروف" المصرفيّ المعروف في واشنطن، ووزير القوى البحريّة سابقًا، إلى "زيادة الاعتماد على الأعمال التخريبيّة السريّة في الخارج"، والإلغاء العاجل لجميع القيود المفروضة على نشاط الاستخبارات. وقد ارتكزت في هذا، إلى تقرير صندوق "هيريتاج" وكذلك إلى المقترحات التي صاغها المعهد المقرّب من ريغان، وهو معهد غوفر لمسائل الحرب والثورات والسلام، التابع لجامعة ستانفورد.

الخدمات التي قدّمها كيسي في الحملة الانتخابيّة، قُدّرت تقديرًا رفيعًا، وعرضت عليه مناصب مختلفة في الإدارة الجديدة. غير أنّه فضّل أن يصبح مديرًا لوكالة المخابرات المركزيّة.

في أعوام الحرب العالميّة الثانية، كان كيسي يرأس العمليّات السريّة للغاية، التي نفّذتها إدارة الخدمات الاستراتيجيّة على مسرح الأعمال الانتقاليّة الأوروبيّ. وبالاشتراك مع دونوفان شارك بنشاط في وضع مخطّطات تأسيس الاستخبارات المشتركة. وقد مارس خلال سنوات عديدة، العمل القانونيّ والمحاماة، في وول ستريت، وعيّنه نيكسون نائبًا لوزير الخارجيّة للشؤون الاقتصاديّة، ورئيس مصرف الاستيراد والتصدير. وفي عام ١٩٦٩، أدخل نيكسون كيسي في عضويّة المجلس الاستشاريّ الرئاسيّ للاستخبارات الخارجيّة.

إختار كيسي نائبًا له في وكالة المخابرات المركزيّة، الأدميرال "ي. إينمال" الذي استقال من أجل ذلك، من منصب مدير وكالة الأمن القوميّ. وقد رأس إينمال في السابق، استخبارات القوى البحريّة وإدارة استخبارات وزارة الدفاع، وقد رحّب "ب. غولدووتر"، رئيس لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات بتعيين إينمان في منصبه الجديد ووصفه بأنّه "خبير عظيم، بارع في شؤون الاستخبارات".

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ جورج بوش الأب، نائب الرئيس، قد ترك في لانغلي أفضل الذكريات عنه، فإنّه لم يكن هناك أيّ شيء يوحي بأيّ خلافات أو مشاحنات في ثالوث السلطة: البيت الأبيض، مجلس الشيوخ ووكالة المخابرات المركزيّة. غير أنّ الفضيحة الكبرى الأولى بعد وصول الإدارة الجمهوريّة إلى الحكم، نشبت حول وكالة المخابرات المركزيّة بالذات. وقد أظهرت هذه الفضيحة أنّ القيادة الجديدة قد بالغت في تقدير قواها، وأساءت تقدير عزم "الحرس الأمبراطوريّ" على الدفاع عن التقاليد الراسخة في لانغلي وقواعد اللعبة.

للنظرة الأولى كانت أسباب الفضيحة تبدو خالية من الإساءة أو الضرر. فقد كان يعمل في جهاز الحملة الانتخابيّة لدى كيسي، "م. هيوجل" رجل الأعمال من نيو همبشير، الذي عيّنه كيسي نائبًا لمدير وكالة المخابرات المركزيّة ورئيسًا لإدارة العمليّات الاستخباريّة. هذا المنصب، كان يُحتفظ به عادة لعاملي الاستخبارات المحترفين، وقد شغله، في السابق، كلّ من دالاس وبيسيل وهيلمز وكولبي وغيرهم. وذكرت الصحافة الأميركيّة أنّ هيوجيل قد خطّط لعدد من الانقلابات في بلدان العالم الثالث ونظّم محاولة لاغتيال معمّر القذّافي قائد الثورة الليبيّة، وغيره من الزعماء الأجانب. كان من المفروض أن يكون هيوجيل مناسبًا لوكالة المخابرات المركزيّة، بيد أنّه لم يقبل فيها. وعلاوة على ذلك، فقد نفر منه إينمان وغولدووتر، وقامت يد "خفيّة" بنشر تلاعبات ماليّة غير معروفة من قبل، ارتكبها هيوجيل في الماضي. ولكن، عندما أُقيل هيوجيل من الوكالة، التفت عدد من الصحف والمجلّات بالهجوم على كيسي نفسه، ناسبًا إليه خرق قوانين الضرائب في الماضي، وليس هذا فحسب، بل وعمله مستشارًا قانونيًّا في شركة كانت على علاقات سريّة بعالم الإجرام المنظّم. وقد عزم السيناتور غولدووتر على أن

يقترح على كيسي تقديم استقالته، ولم يتوقّف عن ذلك إلاّ بتدخّل شخصيّ من قبل الرئيس ريغان.

كما حدث بالنسبة لفضيحة ووترغيت في صيف ١٩٨١، أخذ الصحافيّون الأميركيّون يتحدّثون عن "CIA غيت"، أي فضيحة المخابرات المركزيّة. ورأت مجلّة "إيكونوميست" البريطانيّة المحافظة أن من المناسب الاتّجاه إلى مشرّعي واشنطن وصحافيّيها بنداء لكي "يثوبوا إلى رشدهم"، ويتركوا كيسي بسلام، ولا ينسفوا ذلك النهج الذي قاد إليه وكالة المخابرات المركزيّة[١].

من المستبعد إمكان تفسير نشوب الصراع في واشنطن بمجرّد اعتبارات أخلاقيّة. فهذه الاعتبارات شكّلت، على الأغلب، ذريعة لأوّل شرح علنيّ كبير للعلاقات بين مراتب السلطة. فالتكتّلات المختلفة في معسكر المحافظين كانت تضايق إحداها الأخرى، ساعية إلى الدور الحاسم في السياسة الكبرى. وكان التنافس على الدور الرائد في آليّة السياسة الخارجيّة، بين مجلس الأمن القوميّ ووكالة المخابرات المركزيّة ووزارة الخارجيّة والبنتاغون "يشكّل جوهر الصراع الإيديولوجيّ من أجل اتّجاه ريغان"[٢]، حسب قول إيفانس ونوفاك.

في هذا النزاع العائليّ الداخليّ لم يمنح ريغان أفضليّة دقيقة لأيّ من الأطراف المتنازعة. غير أنّ تقويمه لكيسي معروف جدًّا، وقد ورد، في حديث صحافيّ أدلى به ريغان لمجلّة "فيغارو ماغازين" في شباط ـ فبراير ١٩٨١ حيث قال "إنّ كيسي إنسان موهوب وقدير بصورة غير عاديّة. فهو، أكثر من أيّ شخص آخر، مناسب ولائق لشغل هذا المنصب ذي الأهميّة الحسّاسة، في هذه المرحلة التاريخيّة".

---

١ - The Economist,1981, August 1.

٢ - Evans P. , Novak R., *The Reagan Revolution*, P. 192.

بيد أنّه كانت تهبّ، من المراكز المتنافسة على السلطة، رياح متعارضة الخصائص والاتّجاهات. وعلى سبيل المثال، دعت مجلّة تايم كيسي "زعيمًا ماكرًا وقياسيًّا من زعماء واشنطن، يتمتّع بصلاحيّات محدودة منحه إيّاها الرئيس" وهو "مستعدّ لاستخدام آليّة الاستخبارات الكبيرة، حسب ما يرتئيه"[1].

بديهيّ أنّ مجلّة تايم كانت مستعدّة لإقرار ما كانت تمارسه وكالة المخابرات المركزيّة في الخارج. غير أنّ المجلّة كانت لا تزال تذكر الحملة الانتخابيّة ودور تكتّل كيسي فيها، الذي أبدى مهارة كبيرة، في مجال التنكيل بمنافسيه السياسيّين. وفي صيف ١٩٨٣، افتضحت مسألة سرقة مئات الصحائف من وثائق عمل "سريّة للغاية" للرئيس كارتر، أثناء الحملة الانتخابيّة في العام ١٩٨٠، وقد وصلت هذه الوثائق إلى أيدي ريغان ومستشاريه، وساعدت بذلك مرشّح الحزب الجمهوري، في أثناء المناقشات التلفزيونيّة، على محاصرة كارتر وتطويقه، ما أنقص، إلى حدّ كبير، من شعبيّة الرئيس كارتر، حسب رأي الخبراء.

مسألة السرقة والتجسّس هذه، بحثتها إحدى اللجان الفرعيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ. وفي تفسيره لهذه الحادثة، كتب "ج. بيكر"، رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض، رسالة جاء فيها "إنّ موادّ كارتر ووثائقه قد حصل عليها كيسي، المدير الحاليّ لوكالة المخابرات المركزيّة، قبل المناقشات التلفزيونيّة"[2] بين مرشّحَي الحزبيَن المتنافسَين. وقد ردّ كيسي على ذلك بأنّه لا يذكر ولا يعرف أي شيء عن هذا الموضوع. وقد وصفت الصحافة الأميركيّة هذه الحادثة باسم "فضيحة المناقشات"،

---

١ - Time, 1981, August 10.

٢ - The New York Times, 25, VI, 1983.

واتّضح أنّه، بالإضافة إلى أوراق كارتر، تمّت سرقة وثائق حكوميّة سريّة، وموادّ عائدة لمجلس الأمن القوميّ "الكارتريّ"، تتعلّق، بادئ ذي بدء، بأزمة إيران، كما سرقت وثائق وزارة الخارجيّة أيضًا.

يبدو أنّ المراهنات على التجسّس السياسيّ، خلال السنوات الثماني الواقعة بين فضيحة ووترغيت وفضيحة المناقشات، قد ازدادت إلى حدّ كبير، فقد أصبح الرئيس وحكومته هدفًا لهذه السرقات والحملات. هذه الفضيحة لفتت الأنظار، من جديد، إلى أمور كيسي الماليّة. فمنذ السوات الأولى لوصوله إلى لانغلي، تضاعفت ثروته من ٦ ملايين إلى ١٢ مليون دولار. فقد سلّم عقود وكالة المخابرات المركزيّة، بصورة غير قانونيّة، إلى الشركات التي كان مشاركًا في ملكيّتها، أو مالكًا لأسهم كثيرة فيها. كما استخدم كيسي، في لعبة البورصة، المعلومات الاستخباريّة لوكالة المخابرات المركزيّة، وبخاصّة، حول حالة أسواق النفط.

نعود إلى صيف ١٩٨١ لنشير إلى أنّه، عندما انفضحت وقائع غير حميدة في سيرة كيسي، دعت أجهزة الصحافة المختلفة البيت الأبيض إلى إقالته من الوكالة، إثر هيوجيل. غير أنّ الرئيس ريغان لم يقله من منصبه، وأبقاه مديرًا للوكالة في العام ١٩٨١، وفي العام ١٩٨٣ أيضًا. وذلك ليس، فقط، لأنّه تقرّر الصفح عن ذنوبه الماليّة، بل لأنّه كان منفّذًا أمينًا للاستراتيجيّة السياسيّة الخارجيّة لواشنطن الرسميّة، وكان يساهم بتنفيذها بأفكاره وأعماله. وهاكم مقطعًا كبيرًا الدلالة على ذلك:

كان كيسي يمضي نصف أوقات عمله في جولات تفتيشيّة في الخارج. وقد أصبحت إحدى زيارات رئيس المخابرات المركزيّة الأميركيّة إلى أفريقيا، في خريف ١٩٨٢، مكشوفة للرأي العامّ، وأثارت احتجاجات في بلدان أفريقيا نتيجة الأنباء التي نشرتها صحف جنوب أفريقيا. وعلى وجه التحديد، في الاجتماع الاستخباريّ الصباحيّ

المعدّ للرئيس، والذي كان ينظّمه "ر. ألين" مساعد الرئيس لشؤون الأمن القوميّ، أخذ يتواجد باستمرار، "ي. ميز" مستشار الرئيس. وباعتباره شخصًا موثوقًا به، على نحو خاصّ من جانب الرئيس، ورئيس البرامج السياسيّة الداخليّة الأساسيّة للرئيس، فقد أصبح جهاز ألين في عهدته، كما حاز على لقب "العضو الدائم"، في مجلس الأمن القوميّ. وسرعان ما أخذ يشارك في الاجتماع الاستخباريّ الصباحيّ للرئيس وزير الخارجيّة ألكسندر هيغ أو نائبه و. كلارك. وأخيرًا، تقرّر أن ينضمّ إلى المجتمعين وزير الدفاع "ك. واينبرغر". وهكذا تحوّل الاجتماع الاستخباريّ إلى مناقشة، فإلى مجلس مصغّر للأمن القوميّ. كانت مادّة الاجتماع ترد، بصورة أساسيّة، من وكالة المخابرات المركزيّة. أمّا الانتقادات التي كانت توجّه إليها من المعلّقين من أصحاب المناصب الرفيعة، فلم تكن لتبعث السرور في نفس كيسي. وبعد مرور عام واحد، ألغى ريغان الاجتماع الصباحيّ باعتباره مصدرًا للخصومة والاختلاف، وأمر أن يُرفع إليه التقرير الاستخباريّ بصورة مكتوبة. كما أعفى ميز من واجبات الوصيّ على جهاز الأمن القوميّ، الذي زعم أنّه أصبح تحت رقابة الرئيس الشخصيّة.

بعد أن انفضح ر. ألين بالرشوة من صحيفة يابانيّة... غادر البيت الأبيض. وقدم و. كلارك من وزارة الخارجيّة ليحلّ محلّه. وحسب الأنباء الصحفيّة الأميركيّة، فقد كانت عقيدة كلارك تتجلّى في غاية البساطة: لا وجود لأيّ عراقيل في عمل وكالة المخابرات المركزيّة والاستخبارات المشتركة. وبعد أن أصبح كلارك وزيرًا للداخليّة، أصبح نائبه "ر. ماكفارين"، الموظّف في جهاز الأمن القوميّ في عهد الرئيسَين نيكسون وفورد، مساعد الرئيس لشؤون الأمن القوميّ.

يعتقد كلاين أنّ ريغان وكيسي لم يجريا تبديلات جوهريّة في منظومة قيادة أجهزة الاستخبارات، التي تكوّنت في عهد فورد وكارتر. أمّا ما أدخلاه من أشياء جديدة،

والحقّ يقال، فهو تأسيس ثلاث مجموعات مشتركة بين الإدارات الحكوميّة في مجلس الأمن القوميّ: مجموعة السياسة الخارجيّة برئاسة وزير الخارجيّة، وأخرى للسياسة العسكريّة برئاسة وزير الدفاع، ومجموعة الاستخبارات برئاسة مدير وكالة المخابرات المركزيّة. وكان يتبع كلّ واحدة منها مجموعات مشتركة أدنى مستوى. بيد أنّه يجب الأخذ بعين الاعتبار، أنّه منذ الستّينات، جرت محاولات لإدخال نظام المجموعات المشتركة بين الإدارات الحكوميّة، وهي مجموعات موقّتة على الغالب، وكانت تعالج، بصورة أساسيّة، المشاكل الدوليّة المتأزّمة، لكنّها لم تتكيّف في واشنطن، مولّدة التناقض والصراع بين مراكز السلطة المتنافسة.

في الأمر التنفيذيّ حول الاستخبارات الذي أصدره الرئيس ريغان في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨١، خُصّص حيّز كبير لتعداد وظائف مدير وكالة المخابرات المركزيّة، الأمر الذي أكّد، من جديد، على وزن كيسي الكبير في الإدارة الأميركيّة. وقد ازداد نفوذه هذا بعد استقالة إينمان في أواسط عام ١٩٨٢.

ردًّا على سؤال مراسل صحيفة نيويورك تايمز، ما الذي لم يناسبه في وكالة المخابرات المركزيّة، أعلن إينمان قائلاً: "لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة بصدد المكائد والدسائس البيروقراطيّة من جانب بعض المسؤولين البارزين، سواء في الحكومة أم في الكونغرس، الذين كانت تنبع تصرّفاتهم من اعتبارات حزبيّة ـ سياسيّة".

لقد كان هذا سهمًا موجّهًا إلى كيسي. في سلسلة من الأحاديث الصحافيّة للصحف والمجلّات الأميركيّة المختلفة، أوضح إينمان جوهر اختلافه مع كيسي. فقد كان يدافع عن تركيز جهود وكالة المخابرات المركزيّة على جمع المعلومات وتحليلها، بادئ ذي بدء، عن الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة الأخرى، دون إهمال البلدان النامية والبلدان الرأسماليّة الأساسيّة.

من المعروف أنّ كيسي، بالاشتراك مع واينبرغر، قد دافعا أمام الرئيس عن جميع الخطوات الممكنة، التي يمكن عن طريقها نسف بناء خطّ أنابيب الغاز سيبيريا - أوروبّا الغربيّة. وقد اصطدمت هذه الخطوات بمقاومة بلدان أوروبّا الغربيّة. في تعليقه على هذه الواقعة، صرّح إينمان قائلاً: "إنّ الاستخبارات المشتركة لم تكن على معرفة كافية بالوضع الاقتصاديّ لفرنسا وألمانيا الغربيّة وإنكلترا. لكنّ وضع هذه البلدان الاقتصاديّ بالذات، كان يجب أن يملي عليها ردّ فعلها. وحتّى ما كانت تعرفه الاستخبارات المشتركة، لم تحاول أن توصله، بصورة مفهومة، إلى وعي صانعي السياسة، الذين كانوا بأمسّ الحاجة إلى معلومات تفصيليّة، كي يمكنهم اتّخاذ القرار الصحيح"[١].

كانت واشنطن مضطرّة للتراجع عن العقوبات. ويرى إينمان أنّ الذنب الأكبر في النزاع المرير، الذي رافق هذه القضيّة بين الولايات المتّحدة وبلدان أوروبّا الغربيّة، يقع على كيسي. فقد استبق كيسي الأحداث زاعمًا أنّ تقويمات وكالة المخابرات المركزيّة كانت تتضمّن تحذيرًا بأنّ العقوبات لن تمنع بناء خطّ أنابيب الغاز.

تسترعي الانتباه أيضًا تصريحات إينمان الانتقاديّة ذات الطابع الأشمل. فقد صرّح قائلاً: "إنّ المسائل الأساسيّة التي ستصطدم بها بلادنا في أواخر الثمانينات والتسعينات ستكون المسائل المرتبطة بالتنافس على الخامات والموارد الطبيعيّة وأسواق التصريف في عالم بعيد عن الاستقرار، حيث يقوم احتمال نشوب نزاعات صغيرة في تلك المناطق، التي لا نقوم فيها الآن بأيّ نشاط استخباريّ... إنّ نشاطنا ينقصه الطابع الشامل الذي يسمح لنا بإدراك الاتّجاه، قبل أن تصل المسألة إلى الأزمة"[٢].

---

١ - US . News And World Report, 1982, December 20.

٢ - The New York Times, 8, VII, 1982.

كان إينمان يدافع عن زيادة ميزانيّة الاستخبارات كي تتمكّن من تنفيذ المهام الملقاة على عاتقها. وفي الوقت نفسه، فقد كان ينتقد، هو وأنصاره، الحماسة المفرطة لدى كيسي نحو "الأعمال الخفيّة" السريّة. فهم يرون أنّ مثل هذه الاستراتيجيّة، من وجهة نظر المصالح الطويلة الأمد لأميركا، يمكن أن تعوّض بدرجة أقلّ من الجاسوسيّة العالميّة الشاملة. وكان يقف موقف التأييد والتضامن مع إينمان، تيرنير، وإلى حدّ ما كلاين، والمسؤولون السابقون الآخرون في إدارات الاستخبارات التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة. فقد كانوا يدافعون عن تقديم المعلومات الاقتصاديّة السريّة، ليس إلى الإدارات الحكوميّة فحسب، بل وإلى الأوساط الماليّة وأوساط رجال الأعمال، التي كانت تعاني منافسة كبيرة من جانب الدول الغربيّة الأخرى. هل يمكن تعيين مكان مثل الآراء في منظار الأفكار المحافظة، التي كانت تدافع عنها التكتّلات المختلفة في أوائل الثمانينات؟ قد يكون هذا ممكنًا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار شرطيّة التدرّج ذاته، الذي اقترحته هذه أو تلك من أجهزة الصحافة الأميركيّة...

في عددها الصادر في ٢ شباط ـ فبراير ١٩٨١، نشرت مجلّة نيوزويك مخطّطًا تحت عنوان "من يقف إلى اليمين". في مركز هذا المخطّط، كانت تقع صورة ريغان، وحوله صور رمزيّة لخمسة تكتّلات مع أوصافها الأساسيّة. أربعة منها، "المحافظون الجدد" و"اليمينيّون القدماء" و"اليمينيّون الجدد" و"اليمينيّون المتديّنون"، تتمسّك بأفكار متماثلة في المسائل الدوليّة كالتفوّق العسكريّ للولايات المتّحدة، والاستراتيجيّة العسكريّة الشاملة، والسياسة الخارجيّة المعادية للشيوعيّة وغيرها. أمّا التجمّع الخامس الذي دعته النيوزويك بـ "مؤسّسة الحزب الجمهوري" فيطرح، بصفة أولويّات، "تحسين المناخ الملائم للاحتكارات، دعم الشركات الأميركيّة في الخارج والانفراج المقيّد". وكانت القوّة المحرّكة لهذا التجمّع غرفة التجارة الأميركيّة ورابطة الصناعيّين القوميّة.

أمّا ممثّله البارز في الكونغرس فهو غ. بيكر، زعيم الأغلبيّة الجمهوريّة في مجلس الشيوخ.

مع بعض التحفّظات يمكن القول إنّ آراء إينمان كانت تعكس مصالح ما يُدعى بالمؤسّسة الجمهوريّة الحاكمة. وفي الوقت نفسه، كانت استراتيجيّة كيسي تلبّي، على نحو أفضل، متطلّبات التكتّلات الأخرى، وبخاصّة "اليمينيّين الجدد" التي كان بوقها الإيديولوجيّ الأساسيّ يتمثّل في صندوق "هيريتاج"، الذي تجاوره مؤسّسات الضغط في الاستخبارات المشتركة. ويبرز "اليمينيّون الجدد" في الصفوف الأولى من القوى اليمينيّة المتطرّفة، التي تسعى إلى رفض الولايات المتّحدة توقيع اتّفاقيّات مع الاتّحاد السوفياتيّ حول الحدّ من الأسلحة الاستراتيجيّة وتقليصها. هذه التكتّلات والتجمّعات كلّها ـ هنا، من المناسب تكرار تعبير إيفانس ونوفاك ـ كانت تخوض صراعًا من أجل اتّجاه ريغان وعقليّته، وبصورة أدقّ، من أجل النفوذ على صياغة سياسة البيت الأبيض. أمّا ما يتعلّق بوكالة المخابرات المركزيّة، فإنّ جميع تكتّلات اليمينيّين كانت راضية عن تنشيط دور الاستخبارات المشتركة في تنفيذ السياسة الخارجيّة للولايات المتّحدة. وقد كان خطاب الرئيس ريغان في لانغلي، في ٢٤ حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، نقطة هامّة في هذا الاتّجاه.

سبق هذا الخطاب جولة قام بها الرئيس ريغان في بلدان أوروبّا الغربيّة. وفي أثناء وجوده في لندن، ألقى الرئيس خطابًا في البرلمان البريطانيّ دعا فيه الحلفاء الغربيّين إلى الانضمام إلى "الحملة الصليبيّة من أجل الحريّة"، الحملة التي وجّهت رأس حربتها ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة الأخرى. وقد لقي نداء الرئيس هذا استقبالاً فاترًا في الأوساط السياسيّة والاجتماعيّة للبلدان الغربيّة.

في لانغلي، كانت هناك ردّة فعل مغايرة، عندما كرّر ريغان على مسامع العاملين في وكالة المخابرات المركزيّة، وطوّر أفكاره حول "الحملة الصليبيّة" على الشيوعيّة. كان الخطاب، الذي ألقاه ريغان في لانغلي، يضمّ برنامجًا للحرب السريّة غير المحدودة ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ على الأصعدة السياسيّة والاقتصاديّة والإيديولوجيّة. وكانت تبرّر هذه الحرب باختلافات وتلفيقات حول السياسة الخارجيّة السوفياتيّة. وقد قال ريغان متوجّهًا إلى فرسان المعطف والخنجر: "أنتم تقفون في الطليعة الأماميّة لهذا الصراع... وعليكم أن تخدموا وطنكم، وتنفّذوا واجبكم الخاصّ، بصورة سريّة". وأكّد الرئيس على أنّه ظهر لدى وكالة المخابرات المركزيّة، في عهده، فرص وإمكانات جديدة لإظهار مقدرتها ومواهبها في الميدان السريّ. وقال الرئيس: "اليوم، بعد حوالى عقد كامل من الازدراء والانتقاد المتحمّس، بصورة مفرطة أحيانًا، نعيد بناء أجهزة استخباراتنا. وهذا يطابق إلى حدّ كبير التقاليد الأميركيّة. فهذا النشاط ذو أهميّة حيويّة كبيرة، بالنسبة لبقائنا كأمّة".

هذا المقطع المذكور كبير الدلالة والأهميّة، على الأقلّ من ناحية واحدة. فريغان يعلن نفسه منقذاً للاستخبارات الأميركيّة التي خلّصها، حسب زعمه، من الازدراء والانتقاد المتحمّس بصورة مفرطة. ولم يبخل الرئيس في كيل المديح لـ"الرجال والنساء، أبطال الحرب السريّة ـ العاملين هنا في وكالة المخابرات المركزيّة"...

أُشركت الأجهزة الفدراليّة المختلفة في تنفيذ المهام التي طرحها الرئيس على الاستخبارات. فقد وضعت وزارة الخارجيّة ووكالة الأنباء الأميركيّة U.S.I.A "برنامج الديمقراطيّة والدبلوماسيّة العامّة"... وساعدتهما مجموعة العاملين في وكالة المخابرات المركزيّة برئاسة كيسي. وقد أعلن مسؤول بارز في إدارة ريغان، طلب عدم ذكر اسمه، لوكالة اليونايتد برس في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢، أنّه قد خُصّصت "مئات

الملايين من الدولارات للعديد من المشاريع في إطار الحملة الصليبيّة". وقال هذا المسؤول: "نحن ندرس ما كانت تفعله وكالة المخابرات المركزيّة سرًّا في السابق".

كواجهة اجتماعيّة عامّة لـ"الحملة الصليبيّة"، تمّ، على عجل، تأسيس منظمّة باسم "الصندوق السياسيّ الأميركيّ" مؤلّفة من ممثّلي الحزبيَن الجمهوريّ والديمقراطيّ، وأساتذة الجامعات، ورجال الأعمال والأوساط العلميّة.

في إطار برنامج "الحقيقة" الدعائيّ، ارتفعت أبواق الحرب النفسيّة: إذاعات "صوت أميركا" و"أوروبّا الحرّة" و"الحريّة"... إلى مستوى أرفع، نوعيًّا، بالعدوان على الأثير ضدّ أسرة البلدان الاشتراكيّة. وذكرت الصحافة الأميركيّة أنّه كان يجري، يوميًّا، في مقرّ "الحقيقة" اجتماعات للعاملين في وكالة الأنباء الأميركيّة ووزارة الخارجيّة ووكالة المخابرات المركزيّة والبنتاغون. وكانت تناقش، في هذه الاجتماعات، المعطيات الواردة من جميع الإدارات الفدراليّة، حول نشاط الاتّحاد السوفياتيّ في الخارج، والأحداث الجارية في الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة الأخرى. ثمّ كانت هذه المعطيات تغدو، بعد معالجتها ودعمها بأدلّة شهود عيان، أساسًا وثائقيًّا للبرامج الإذاعيّة. وقد تكثّفت، على نحو خاصّ، الحملة المعادية لبولونيا. فقد تلقّت أجهزة الاستخبارات الأميركيّة أمرًا بتعزيز نشاطها بعد إعلان حالة الطوارئ في بولونيا في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨١، وقد أعلن ممثّل البيت الأبيض أنّه نتيجة لتدابير السلطات البولونيّة، تمّ وضع الاستخبارات المشتركة الأميركيّة في حالة من الجهوزيّة المشدّدة.

وطبقًا لأهداف "الحملة الصليبيّة"، أجرى البيت الأبيض، في شتاء ١٩٨٣، تعديلاً على بنية الدعاية السياسيّة الخارجيّة. وعلى وجه التحديد، تمّ تأسيس مجموعة موقّتة للتخطيط الخاصّ، بمشاركة ممثّلي وكالة المخابرات المركزيّة. وهدف المجموعة

الأساسيّ هو مكافحة الحركة المعادية للحرب في أوروبّا الغربيّة والولايات المتّحدة، وتشكيل الرأي العامّ، في أوروبّا الغربيّة، على نحو موافق لزرع السلاح النوويّ ـ الصاروخيّ الأميركيّ المتوسّط لمدى في جمهوريّة ألمانيا الغربيّة وإنكلترا وإيطاليا والبلدان الأخرى.

بالاستناد إلى مسؤولين رسميّين في مكتب الإدارة والميزانيّة، أعلن "ف. تاوبمان" في مجلّة نيويورك تايمز ماغازين في عددها الصادر بتاريخ ١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٣، أنّ "وكالة المخابرات المركزيّة هي أكثر إدارات الحكومة الفدراليّة سرعة في النموّ والتوسّع". وتأكيدًا على كلامه هذا، يورد الصحافيّ الأرقام والمعطيات التالية: في عام ١٩٨٣ الحاليّ، وبعد مراعاة اتّجاه التضخّم، ازدادت ميزانيّة وكالة المخابرات المركزيّة زيادة صرفة بمقدار ٢٥٪ واقتربت من مليارَي دولار، حتّى أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تتفوّق على وزارة الدفاع، حيث ازدادت ميزانيّة الأخيرة، في العام الماليّ ١٩٨٣، بمقدار ١٨٪. ويشير الصحفيّ إلى أنّ "دوائر الاستخبارات الأخرى تعيش انتعاشًا كبيرًا"، مثلها في ذلك مثل وكالة المخابرات المركزيّة، حيث توسّعت كوادر جميع إدارات الاستخبارات المشتركة، واقتنت معدّات تقنيّة جديدة، وزاد حجم منتوجها.

في عهد كارتر، كانت وكالة المخابرات المركزيّة تصدر ١٢ تقويمًا استخباريًّا قوميًّا، حول المسائل والقضايا المختلفة. في العام ١٩٨١، أصدرت لانغلي ٣٦ تقويمًا من هذا النوع. أمّا في العام ١٩٨٢، فقد أصدرت ستّين تقويمًا[1]. وقد وصلت هذه التقارير إلى الرئيس ومجلس الأمن القوميّ ورؤساء الإدارات الحكوميّة. وكانت تهدف

---

١ - Newseek 1982, November 22.

إلى ترسيخ أساس يقوم عليه نهج ريغان في السياسة الخارجيّة. وقد أكّد تاوبمان على أنّ "دبلوماسيّين كثيرين من ملاك وزارة الخارجيّة يرون أنّ السيّد كيسي وإدارته يبذلان قصارى جهدهما من أجل تبرير البيانات الرئاسيّة القاسية للإدارة بحقّ الاتّحاد السوفياتيّ. من أجل هذا الغرض، يصدران التقويمات الاستخباريّة المزيّفة. وعلى هذا النحو، يجعلان مواقف الحكومة من مختلف المسائل السياسيّة معتبرة وموحية بالأهميّة والثقة"[١].

يوجز المراقبون الصحافيّون في واشنطن، مشيرين إلى أنّ كيسي قد تجاوز، إلى حدّ كبير، حتّى الأدميرال تيرنير، من حيث الاستعجال السياسيّ للوثائق الاستخباريّة وتحضيرها بصورة مصاحبة مع استراتيجيّة البيت الأبيض السياسيّة الخارجيّة والعسكريّة. على سبيل المثال، أخذ كيسي، من إدارة الإعلام الاستخباريّ، الجهاز الذي يقوم بوضع التقويمات الاستخباريّة القوميّة، ووضعه تحت تصرّفه ومسؤوليّته المباشرة. وهذا الجهاز مرتبط، حسب التقاليد المرعيّة، مع كامل آليّة تحليل المعلومات، الأمر الذي جعله أكثر طاعة للبيت الأبيض. كما أسّس، في وكالة المخابرات المركزيّة، المجلس القوميّ للتقويمات الاستخباريّة. (كان ويليم كولبي قد استبدل هذا الجهاز باثنَي عشر محلّلاً خبيرًا بارزًا، كان كلّ واحد منهم مسؤولاً عن قطاع إقليميّ أو وظيفيّ) وكان غ. روين رئيسًا للمجلس القوميّ للتقويمات الاستخباريّة، وب. أولش رئيس قسم تحليل المعلومات عن الاتّحاد السوفياتيّ، وج. نورن رئيس قسم الاقتصاد السوفياتيّ، وغيرهم من ممثّلي وكالة المخابرات المركزيّة، يلقون، في الكونغرس، الخطب والكلمات المليئة بالافتراءات والاختلاقات حول الاقتصاد السوفياتيّ والنفقات

---

١ - The New York Times Magazine, 1983, January 16.

الدفاعيّة السوفياتيّة، مقدّمين بذلك دوافع لتوسّع الولايات المتّحدة على الصعيد العسكريّ. ومن باب المقارنة، طلب وزير الدفاع الأميركيّ، في شتاء ١٩٨٤، ميزانيّة لوزارته بمبلغ ٣٣١ مليار دولار، في حين أوصى زميله السابق رامسفيلد، في شتاء ١٩٧٧، بميزانيّة لوزارة الدفاع قدرها ١٢٣,١ مليار دولار.

في العامَين الأوّلَين من عهد ريغان، كان يشغل منصب كبير الخبراء بشؤون الاتّحاد السوفياتيّ في مجلس الأمن القوميّ "ر. بايبس" وهو شخصيّة معروفة، كان قد قاد "الفرقة ـ ب" في عام ١٩٧٦، التي رميت على شكل قوّات إنزال على لانغلي. وقد كتب الصحافيّ "ر. شيير" في كتابه: "إذا ما كفّت المجارف: ريغان، بوش، والحرب النوويّة"، يقول: "بمباركة بايبس، انتشرت نظريّة تقول إنّ الروس يرفضون التكافؤ النوويّ، وهم عازمون على خوض الحرب النوويّة، وهذه النظريّة روّج لها، في ما بعد، بوش وريغان، ويُعمل بها الآن في الإدارة الأميركيّة في مجال التسليح... إنّ التقويم القاتم للنوايا السوفياتيّة الوارد في دراسة "الفرقة ـ ب"، قد أُقرّ، بناء على إلحاح بوش، بمثابة استنتاج الاستخبارات الأميركيّة، كان عليه أن يبدّل مناخ الانفراج والرقابة على الأسلحة"[١].

إنّ اتّجاه تصعيد النزعة التشاؤميّة قد حدّد النشاط التحليليّ لوكالة المخابرات المركزيّة. وهذا ما يؤكّد عليه باورس، المقرّب من أوساط الاستخبارات الأميركيّة، والذي يعترف بأنّ تقويمات وكالة المخابرات المركزيّة خالية من الطابع الموضوعيّ. وقد كتب باورس في عام ١٩٨٢: "إنّ غريزتي تنبئني بأنّ المتشائمين غير محقّين. فالروس متمسكون بالانفراج بإخلاص وصدق، وهم لا يستخدمونه كستارة للإعداد

---

١ ـ عن مجلّة "زاروبيجوم"، ١٩٨٣، العدد ١، ص ١٦ ـ ١٧، باللغة الروسيّة.

للحرب. إنّهم يعتبرون الانفراج أفضل أسلوب لتجنّب الحرب... والغريزة تنبئني بأن على المرء أن يكون مجنونًا كي يعتقد وكأنّ الروس مستعدّين لفقدان كلّ شيء، لمجرّد أن يشعروا بالرضى من إلحاق ضرر بأكبر بناء... أنا أعتقد أنّنا نشهد تكرار السنوات الخمسينيّات، بمعنى أنّ المتشائمين يسعون جاهدين لبعث مناخ الحرب الباردة، الذي يحمي به العسكريّون دوائر الاستخبارات أنفسهم فيه بفعاليّة أكبر من كلّ رقابة"[1].

كانت الاستخبارات المشتركة تسعى، وبادئ ذي بدء، وكالة المخابرات المركزيّة، إلى عرقلة انفراج التوتّر الدوليّ ونسفه. وفي ما يلي مثل واحد على ذلك.

في أعوام رئاسة نيكسون، لفّقت وكالة المخابرات المركزيّة، على أساس معطيات غير صحيحة بشكل واضح، تقريرًا صنّف فيه الانفراج على أنّه أسلوب تكتيكيّ يستخدمه الاتّحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكيّة الأخرى، من أجل "تخدير يقظة الغرب واستغلال ذلك بهدف نشر سيادتها وسيطرتها". وقد سخط واضعو التقرير من عدم الاهتمام الذي قوبل به هذا التقرير من جانب نيكسون وفورد وكارتر. غير أنّ هذا التقرير لقي قبولاً من جانب ريغان، الذي وافق، كما يقول إيفانس ونوفاك، على تقويمات وكالة المخابرات المركزيّة[2].

لقد شنّت إدارة ريغان حملة مكثّفة حول الإرهاب الدوليّ الموجّه ضدّ الديمقراطيّات الغربيّة، والذي كانت تدعمه، حسب زعمها، موسكو وهافانا وبرلين. ويرى باحثون أنّه "قد أعدّت افتراءات بهذا الخصوص، في وكالة المخابرات المركزيّة، وأخرج المسرحيّة بايبس وألكسندر هيغ وزير الخارجيّة"...

---

١ - Powers Th., *Thinking About The Next War,* (New York, 1982), P. 107.

٢ - Evans P. , Novak R., *The Reagan Revolution,* P. 199.

بعد بضعة أشهر على وصول كيسي إلى لانغلي، كتب ج أندرسون، وهو صحافيّ من واشنطن: "تسعى وكالة المخابرات المركزيّة للتحالف مع الأنظمة الديكتاتوريّة الفرديّة والتجمّعات المعادية للشيوعيّة، في تنفيذ العمليّات التخريبيّة السريّة في العالم كلّه... إنّ هذا يمكن أن يدفعنا إلى التآخي القميء مع المتطرّفين اللاأخلاقيّين والديكتاتوريّين بل وحتّى الإرهابيّين، الذين تقف منهم، حسب تأكيداتنا، موقف النفور والازدراء"[١].

ويرى الباحثون أنفسهم أنّ "الصحافيّين الأميركيّين قد تشمّموا مخطّطات وكالة المخابرات المركزيّة الهادفة إلى اغتيال القذّافي زعيم الثورة الليبيّة، ومن أجل طمس تسريب معلومات إلى الصحافة مفادها أنّ ثمّة معطيات لديها تزعم وكأنّ مجموعة من الإرهابيّين الليبيّين، قد دخلت إلى الولايات المتّحدة بهدف اغتيال الرئيس ريغان... وهذا الافتراء الواضح قدّم ذريعة لعمل انتقاميّ ضدّ ليبيا، بالاستناد إلى واقعة تغلغل الإرهابيّين الليبيّين إلى الولايات المتّحدة". ويقولون إنّه "في الثمانينات أصبح في حكم البديهيّ أنّ هناك، حيث يظهر الستار الدخّانيّ للإرهاب الدوليّ، يجدر توقّع قيام إرهاب حقيقيّ يقف خلفه المخطّطون الاستراتيجيّون للأعمال التخريبيّة السريّة في وكالة المخابرات المركزيّة. ويظهر هذا، بوضوح خاصّ، من خلال أمثلة أميركا الوسطى"[٢].

كتب الكاتب الصحفيّ الأميركيّ "ت. شولتز"، في المجلّة الفصليّة فورين بوليسي، واصفًا مناورات إدارة ريغان: "إنّ الخطب والكلمات الرنّانة حول الإرهاب، تبدو، أكثر فأكثر، ستارًا فارغًا يغطّي عزم الإدارة على استخدام كافّة الوسائل من أجل مساعدة

---

١ - Washington Post, 26, VIII, 1981

٢ - فيتالي، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ص٣١٣.

أنظمة أميركا الوسطى في القضاء على الحركات اليسارية... إنّ سياسة الولايات المتّحدة الجديدة تفسّر على أنّها إشارة إلى دعم العناصر اليمينيّة المتطرّفة في كلّ مكان من أميركا اللاتينيّة"[1].

ويورد هؤلاء الباحثون غواتيمالا، مثلاً، "حيث نظّمت وكالة المخابرات المركزيّة انقلابًا في عام ١٩٥٤، وحيث اشتعل في الثمانينات "النضال الوطنيّ" ضدّ "الطغمة" الإرهابيّة العسكريّة الحاكمة، التي قضت، خلال السنوات الأخيرة، على أكثر من ثمانين ألفًا من مواطنيها المسالمين".

لقد جاء في وثيقة مجلس الأمن القوميّ "السياسة الأميركيّة في أميركا الوسطى وكوبا من المرحلة حتّى نهاية عام ١٩٨٤ الماليّ، "الوثيقة الختاميّة" ما يلي: "زيادة المخصّصات لحاجات وكالة المخابرات المركزيّة طبقًا لتقرير الرئيس الصادر في ٩ آذار ـ مارس ١٩٨٣ من ١٩,٥ مليون إلى ٢٢ مليون دولار، وذلك كي يمكنها البدء بتنفيذ البرنامج الموسّع في غواتيمالا في العام الحاليّ".

وتدلّ رسالة كيسي، التي نُشرت في نيويورك تايمز، على التدخّل المكشوف في السلفادور. وجاء فيها: "حاولت وكالة المخابرات المركزيّة المساعدة في عمليّة الانتخابات". وكان المقصود بالانتخابات، انتخابات ٢٨ آذار ـ مارس ١٩٨٢، وما يُدعى بـ "الجمعيّة الدستوريّة"، وهي الانتخابات التي جرت في جوّ من الإرهاب للناخبين وتخويفهم، وانتهت بانتصار رجال السياسة المغرقين في اليمينيّة، والوثيقي الارتباط بالأوساط العسكريّة. ومن المعروف على نطاق واسع، أنّ الأحزاب السياسيّة للمجموعة الحاكمة في السلفادور كانت تعيش على أموال وكالة المخابرات المركزيّة.

---

١ - Foreign Policy, Summer 1981, No. 43.

في العام ١٩٨٤، أنفقت الوكالة مليونَي دولار من أجل تأمين فوز الديكتاتور "خوسي نابليون دوراتي" في انتخابات الرئاسة في السلفادور. كانت الطائرات الاستطلاعيّة التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة تحلّق فوق المقاطعات والأقاليم التي تسيطر عليها القوّات اليساريّة التابعة لـ"جبهة التحرير الوطنيّ" "فارابوندو مارتي" و"الجبهة الثوريّة الديمقراطيّة". وكانت وكالة المخابرات المركزيّة تمسك بأيديها وسائل الإعلام الجماهيريّ في السلفادور، وتشنّ حملة على سكّان السلفادور، البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة. كما أعدّت وكالة المخابرات المركزيّة طائرات من نوع S-130 مزوّدة بمدفعيّة سريعة الانطلاق وطواقم للهجوم على وحدات القوّات اليساريّة[١]. وكما ذكرت الصحافة الأميركيّة فقد كانت طائرات S-130 التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة، والتي يقودها طيّارون مأجورون من السلفادور، تنطلق من مطارات السلفادور، وترمي الذخائر والشحنات والحمولات إلى عناصر الثورة المضادّة في نيكاراغوا. وبصرف النظر عن عمليّة جرّ المجموعة الحاكمة الممالئة لأميركا في السلفادور إلى الحرب ضدّ نيكاراغوا، فإنّ مشاكل السلفادور، بالذات، قد وضعتها واشنطن، بصورة مرائيّة، في مركز حملة الإفتراءات الكبيرة، التي شنّت وكالة المخابرات المركزيّة، من ورائها، حربًا غير معلنة على نيكاراغوا في الثمانينات، بذريعة "حجز ووقف تدفّق الأسلحة" التي ترسل من نيكاراغوا، عبر هندوراس، إلى المقاتلين في السلفادور، ووسّعت وكالة المخابرات المركزيّة فروعها ومقرّاتها في هندوراس. وحسب أنباء الصحافة الأميركيّة، فقد أُرسل إلى هندوراس مئتَا عميل من عملاء وكالة المخابرات المركزيّة وأربعمائة من العاملين السابقين في وكالة المخابرات

---

١ - Newseek, 1984, March 19.

المركزيّة والاستخبارات العسكريّة المتعاقدين. وعلى طول الحدود مع نيكاراغوا، على الجانب الهندوراسيّ، أُسّس أكثر من عشر قواعد للكونتراس، وهو الإسم الذي يُطلق، في أميركا الوسطى، على أعداء ثورة نيكاراغوا، من أفراد الحرس القوميّ للديكتاتور المعزول سوموسا.

في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨١، حسب نبأ مجلّة نيوزويك، أقرّت إدارة ريغان الخطّة السريّة لوكالة المخابرات المركزيّة القاضية بإنفاق عشرين مليون دولار على تسليح وتدريب قوّات الكونتراس في هندوراس، و"كان الهدف غير الرسميّ للخطّة هو الإطاحة بالحكومة الساندينيّة، أو نسفها في نيكاراغوا"[1]. وبحلول أواسط ١٩٨٢، أُرسل إلى هندوراس أكثر من ستّة آلاف من الكونتراس من الولايات المتّحدة والبلدان الأخرى، وهو عدد يزيد أربعة أضعاف على فرقة مأجوري وكالة المخابرات المركزيّة أثناء التدخّل في كوبا في عام ١٩٦١. واهتمّت الوكالة بتشكيل واجهة سياسيّة للكونتراس، تمثّلت في منظّمة "القوى الديمقراطيّة النيكاراغوانيّة" التي تشكّلت على أراضي هندوراس. وهكذا نشأ تهديد لنيكاراغوا من الشمال. أمّا الخطوة التالية لوكالة المخابرات المركزيّة فقد كانت تنظيم رأس وركيزة لها ضدّ نيكاراغوا، بالقرب من حدودها الجنوبيّة. وبحلول ربيع ١٩٨٣، تمّ تجميع أكثر من ألف مقاتل على أراضي كوستاريكا، ومن بين قادتهم، كان الخارجون على الثورة الساندينيّة، الذين كانوا يتظاهرون ب"الديمقراطيّين الحقيقيّين". وقد شكّلوا منظّمة "الاتّحاد الثوريّ الديمقراطيّ". وقد أقنعت الاستخبارات الأميركيّة منظّمتَي "القوى الديمقراطيّة النيكاراغوانيّة" و"الاتّحاد الثوريّ الديمقراطيّ" بتنسق العمل في ما بينهما.

---

١ - Newseek, 1982, November 8.

وعندما أصبحت نيكاراغوا، في عام ١٩٨٣، هدفًا للغزو المكثّف، من جانب القوى المعادية للثورة من الشمال والجنوب، كتبت مجلّة تايم تقول إنّ الأركان الرئيسيّة للعمليّات "كانت، عمليًا، في أيدي الأميركيين، وتتألّف من خبراء المخابرات المركزيّة وممثّلي قيادة المنطقة العسكريّة الجنوبيّة للولايات المتّحدة الموجودة في باناما"[١]. وكانت تتبعها أركان عمليّاتيّة برئاسة ممثّل وكالة المخابرات المركزيّة في هندوراس، واسمه كارلوس، حسب قول مجلّة تايم التي أضافت أنّ سفير الولايات المتّحدة في هندوراس، قد اهتمّ بأن "يشارك هندوراسيّون في هذه العمليّة".

لقد تحوّلت استراتيجيّة العمليّات التخريبيّة السريّة في أميركا الوسطى، تدريجًا، إلى مادّة للنقاش السياسيّ المكشوف في الولايات المتّحدة. وقد ترأس كيسي، في الإدارة الأميركيّة، مجموعة أنصار النهج الصارم. أمّا أعداء العمليّات النيكاراغوانيّة، في الكونغرس الأميركيّ، كما تقول نيويورك تايمز، فقد "كانوا يؤكّدون على أنّ حكومة ريغان تخوض حربًا سريّة ضدّ نيكاراغوا، خارقة بذلك القانون الدوليّ، ومخالفة المنطق السليم والقانون"[٢].

كان يقلق المشرّعين، على نحو خاصّ، أنّ الوضع المتوتّر الذي خلقته وكالة المخابرات المركزيّة حول نيكاراغوا، يمكن أن يصبح مفجّرًا يؤدّي إلى تفجير في أميركا الوسطى بكاملها، ذي عواقب لا يمكن التنبّؤ بها، بالنسبة للأنظمة الممالئة لأميركا في المنطقة.

في ضوء مثل هذه الأفكار، يجب البحث عن سبب القرار غير العاديّ، الذي اتّخذه الكونغرس في أواخر ١٩٨٢، بناء على توصيات لجنتَي الاستخبارات في المجلسَين.

---

١ - Time, 1983, April 4.

٢ - The New York Times, 15, VI, 1983.

ووفقًا لهذا القرار، الذي أيّده ٤١١ في مجلس النـوّاب ولـم يعارضـه أحـد، حظّـر علـى الحكومة الأميركيّة "القيام بإرسال الأسلحة وتقديم الدعم للأعمال العسكريّة الهادفـة إلـى الإطاحة بحكومة نيكاراغوا، أو إشعال النزاعات العسكريّة بين نيكاراغوا وهنـدوراس". غير أنّ موقف أعضاء السلطة التشريعيّة كان مزدوجًا. فقد أغلقوا أعينهم عن أنّ البيت الأبيض الـذي دعـا مـأجوري وكالـة المخـابرات المركزيّـة ضـدّ مـا زعـم مـن "تدفّـق الأسلحة" من نيكاراغوا إلى السلفادور بـ"الأعمال المثيرة للقلق". وكمـا اعتـرف "د. ب. موينهين"، نائب رئيس لجنة مجلس النوّاب لشؤون الاستخبارات، "يصعب التفريق بيـن الأعمـال المثيرة للقلـق والسياسـة المقصـودة الهادفـة إلـى إثـارة القلاقـل أو الإطاحـة بالحكومة"...

كانت نتيجة عدم ثبات المشرّعين، وهم الذين لم يخفوا عداءهم لثورة نيكـاراغوا، سلسـلة مـن الهجمـات الكبيرة لقـوّات الكونـتراس، فـي ربيـع صيـف ١٩٨٣. وقـد قـام بإحدَيها ثلاثة طوابير تتألّف من ألفَـي مخـرّب مـن أنصـار الديكتـاتور سوموسـا، الذيـن تغلغلـوا إلـى أراضـي نيكـاراغوا. وقـد أعلـن النـائب الديمقراطـيّ "ب. بيديـل" عضـو الكونغرس الأميركيّ، إدانته الاستراتيجيّة لوكالة المخابرات المركزيّـة قـائلاً: "لـو كـان باستطاعة الشعب الأميركيّ التحدّث إلى سكّان نيكاراغوا، البلد، حيث يقوم الإرهابيّون، المموّلون بأموال دافعي الضرائب الأميركيّين بخطـف الأطفـال والنسـاء، دون تمييز، وتعذيبهم وقتلهم، لطالب الشعب الأميركيّ، مدفوعًا بمشاعر السخط العادل، بوضـع حـدّ لمثل هذه الأعمال الإجراميّة، بأسرع وقت ممكن".

وقد اضطرّ "ي. بوولند"، رئيس لجنـة مجلس النـوّاب لشـؤون الاسـتخبارات، إلـى الإقرار بأنّ "إدارة ريغان، كما يبـدو مـن كافّـة الظواهـر، تخـرق القـانون الـذي يحظّـر العمليّات السريّة بهدف الإطاحة بحكومة نيكاراغوا".

وقد أصدرت لجنتا مجلس النوّاب لشؤون الاستخبارات والعلاقات الخارجيّة، ومن ثمّ مجلس النوّاب بكامله، في صيف ـ خريف ١٩٨٣، قرارًا يوقف تمويل جميع العمليّات التخريبيّة لوكالة المخابرات المركزيّة في نيكاراغوا. لكن، في أواخر خريف ١٩٨٣، وقفت غالبيّة أعضاء مجلس الشيوخ ضدّ هذا القرار وحصلت وكالة المخابرات المركزيّة، نتيجة لذلك، على الاعتمادات والمخصّصات لأعمالها ضدّ شعب نيكاراغوا. وأشارت نيويورك تايمز إلى أنّ هذا الجدل كلّه، "قد قدّم دفعة لأول تحليل عميق، في واشنطن، لأفضليّات العمليّات التخريبيّة ومساوئها، منذ عهد التحقيقات والمدافعات في لجنتَي تشرش وبايك"[1].

إقترحت وكالة المخابرات المركزيّة على أعضاء لجنة الاستخبارات تقديم خدماتها في تنظيم جولة اسطلاعيّة في بلدان أميركا الوسطى. فتلقّف أصدقاء لانغلي هذه الفكرة، بينما رفض مشرّعون آخرون هذه الدعوة. وفي ربيع ١٩٨٣، ألقى الرئيس ريغان خطابًا حول مشاكل أميركا الوسطى، في الاجتماع المشترك لمجلسَي الشيوخ والنوّاب، مدافعًا، على وجه التحديد، عن إلغاء أيّ قيود على أعمال الاستخبارات في هذه المنطقة. وفي المؤتمر الصحافيّ الذي عقده في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٣، برّر الرئيس عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة بأنّ "مصالح الولايات المتّحدة تتحقّق على أفضل وجه، عن طريق القيام بالنشاط السري"، وأنّ للولايات المتّحدة "الحقّ في مثل هذا النشاط". على هذا النحو، فسّر الرئيس الأميركيّ، لأول مرّة، قانون عام ١٩٤٧ بأوسع معانيه، فاتحًا بذلك الباب على مصراعَيه، لإساءات وأعمال مغامرة جديدة للاستخبارات الأميركيّة.

---

١ - The New York Times, 15, VI, 1983.

كانت الصحافة، منذ شهر أيّار ـ مايو ١٩٨٣، قد نشرت تصريحات كيسي في لجنتَي الكونغرس لشؤون الاستخبارات، حيث تنبأ بانتصار القوى المعادية للثورة في نيكاراغوا، بحلول نهاية العام نفسه. غير أنّ عدوان أنصار سوموسا في ربيع وصيف ١٩٨٣، أمكن ردّه بنجاح. وشرعت لانغلي، دون التخلّي عن عروض الحملات العسكريّة التي روّجت لها على نطاق واسع، بتنظيم أعمال التخريب والحرب الاقتصاديّة، هادفة من وراء ذلك إلى تخريب الصناعة والزراعة والمواصلات والتجارة والتموين في نيكاراغوا. وقد قامت بالهجمات والغارات على المعامل والمصانع ومستودعات النفط والمحطّات الكهربائيّة والجسور ومحصول البنّ والقطن، من البرّ والبحر والجوّ، الأمر الذي ألحق بنيكاراغوا خسائر بشريّة كبيرة وأضرارًا اقتصاديّة ضخمة. غير أنّ هذا كلّه لم يضعف من تصميم شعب نيكاراغوا، بل زاد منه، على الدفاع عن منجزات الثورة الساندينيّة، معتمدًا، في ذلك، على قواه الذاتيّة وعلى تضامن شعوب العالم كلّه معه.

في مثل هذا الوضع اكتسبت أعمال فرسان المعطف والخنجر طابعًا أكثر خطورة. ففي تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٣، سمح الرئيس الأميركيّ للاستخبارات بتلغيم جميع موانئ نيكاراغوا الكبيرة والصغيرة، بناء على توصية ماكفارلين، وفي إطار مخطّط الوكالة الهادف إلى تنفيذ "الأعمال المثيرة للقلق". ونتيجة لهذا العمل، انفجرت، في ربيع ١٩٨٤، سفن عائدة لليابان وهولّندا والاتّحاد السوفياتيّ وباناما. وبهذا الصدد، أكّدت الحكومة السوفياتيّة، في المذكّرة التي أرسلتها إلى الحكومة الأميركيّة، على أنّ "الولايات المتّحدة تنفّذ عمليًّا سياسة الإرهاب الحكوميّ الرسميّ".

إنّ الخرق الخطير للقانون الدوليّ ولحريّة الملاحة الدوليّة قد أثار احتجاجات عاصفة في بلدان أوروبّا الغربيّة وفي الولايات المتّحدة نفسها. وقد أصدر مجلسا

الشيوخ والنوّاب قرارًا يطالب بوضع حدّ للتلغيم، وطرحت، بذلك من جديد، أمام أعضاء السلطة التشريعيّة، مسألة حظر تمويل الحرب غير المعلنة أو الحدّ منه.

في هذا الموقف الناشئ أعرب المراقب الصحافيّ الأميركيّ "ج. كرافت" عن رأي مفاده أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد بدأت ترتعش من جديد كما حدث في عامَي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

شكّلت مسألة التمويل موضوع لعبة سياسيّة ماكرة. وكما ورد أعلاه، لم يكشف البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة، والكونغرس معهما، في الماضي، عن نفقات العمليّات التخريبيّة السريّة. وهنا، واعتبارًا من عام ١٩٨١، بُدئ بإطلاع الرأي العامّ والتأكيد له على أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تنفق على العمليّات المضادّة لنيكاراغوا في العام مبلغًا لا يزيد على ١٩ ـ ٢٢ مليون دولار. وفي عام ١٩٨٤، أدركوا أخيرًا، في واشنطن، أنّ هذا الرقم صغير جدًّا، ويبدو بعيدًا عن الإقناع، فأخذوا يذكرون رقمًا آخر هو ٨٠ مليون دولار. ويبدو أنّ "ي. راي" و"ب. شاب" الباحثَين الأميركيّين في شؤون الاستخبارات، كانا على حقّ عندما كتبا يقولان، على صفحات مجلّة كوفرت أكشين، إنّ الأرقام الرسميّة السابقة والحاليّة لا تشكّل سوى "الجزء العلويّ من الجبل الجليديّ العائم"، أي من النفقات. فقد ازدادت أعداد قوّات الكونتراس، بحلول عام ١٩٨٤ على سبيل المثال، إلى ١٤ ـ ١٦ ألف مرتزق في هندوراس، وإلى ٤ آلاف في كوستاريكا.

من المعروف، على نطاق واسع، الاهتمام الكبير الذي توليه الأوساط الحاكمة في إسرائيل لأميركا الوسطى، حيث تسوّق فيها كميّات كبيرة من المعدّات الحربيّة، كما تقدّم هذه الأوساط للأنظمة اليمينيّة المحليّة في أميركا الوسطى خبرتها في قمع حركات التحرّر الوطنيّ. وفي عام ١٩٨٣، وقّعت وكالة المخابرات المركزيّة اتّفاقيّة خطيرة مع

المخابرات الإسرائيليّة. وأكّدت صحيفة نيويورك تايمز على أنّ هذه الاتّفاقيّة "هي أوسع اتّفاقيّة من نوعها توقّعها وكالة المخابرات المركزيّة مع جهاز استخبارات دولة أجنبيّة"[1]. وينصّ أحد بنود هذه الاتّفاقيّة على التعاون بينهما، وعلى تقديم المخابرات الإسرائيليّة مساعدتها للأنظمة اليمينيّة وللثورة المضادّة في أميركا اللاتينيّة. ويبدو من خلال كافّة الوقائع، أنّ المقصود من هذه الاتّفاقيّة، هو توفير ضمانة لوكالة المخابرات المركزيّة في حال فرض الكونغرس الأميركيّ حظرًا على تمويل الحرب غير المعلنة. وترى الصحافة الأميركيّة أنّ الأموال اللازمة لهذا التعاون هي أكثر من كافية من تلك المساعدة الضخمة، بدون مقابل، والتي تقدّر بعشرات المليارات من الدولارات، وتقدّمها الولايات المتّحدة لإسرائيل على شكل معونة عسكريّة واقتصاديّة.

لقد أظهر النزاع الإنكليزيّ - الأرجنتينيّ على جزء فولكلند - جزر المالوي - في عام ١٩٨٢، وحدة مصالح الشركاء الغربيّين في أميركا اللاتينيّة. فمن بين جميع أنواع المساعدات التي قدّمتها الولايات المتّحدة لإنكلترا، تحتلّ المركز الأوّل، من وجهة نظر المساهمة الحاسمة في انتصار المستعمرين الجدد الإنكليز على الأرجنتين، المعطيات الاسخباريّة التي كانت واشنطن تزوّد لندن بها. فقد نقل الأميركيّون، في تلك الأثناء، القمر التجسّسيّ الصناعيّ من مداره في نصف الكرة الشماليّ، إلى مدار آخر، من أجل مراقبة منطقة جزر فولكلند. كما حصلت إنكلترا على معطيات الاستخبارات والتجسّس اللاسلكيّة، التي كانت تجمعها محطّات وكالة الأمن القوميّ في جنوب الأطلسي، متجسّسة بذلك على الأرجنتين.

---

١ - The Economist, March 3, 1984.

كانت مراتب السلطة العليا في واشنطن غير راضية عن أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تستطع، خلال فترة طويلة، بصورة مستقلّة، القضاء على الثورة المعادية لأميركا في غرينادا. وعشيّة الغزو الأميركيّ لهذه الجزيرة الصغيرة الواقعة في البحر الكاريبي، لم تكن المخابرات المركزيّة قادرة على التنبّؤ بأنّ قوّات البنتاغون ستلقى مقاومة هناك.

وكذلك حدث في لبنان، إذ عزى البيت الأبيض انهيار عمليّة قوّات الإنزال البحريّة الأميركيّة إلى المعلومات الاستخباريّة السيّئة.

رغم هذا كلّه، أكّد ريغان، في خطابه الذي ألقاه في ٦ نيسان ـ أبريل ١٩٨٤ في مركز الدراسات الدوليّة والاستراتيجيّة بجامعة جورج تاون بواشنطن، على أنّه أستطاع "إلى حدّ جوهريّ كبير، تحسين عمل إدارات الاستخبارات، وإعادة الروح المعنويّة إليها، وتعزيز قدرتها على تحصيل المعلومات وتحليلها، ودرء التهديدات المنطلقة إليها من الاستخبارات المعادية". وكان جورج شولتز، وزير الخارجيّة الأميركيّة، قد تطرّق إلى هذه المسألة، بتحفّظ كبير قبل يومَين، حيث تحدّث عن "ضرورة تعزيز مقدرتنا الاستخباريّة من أجل الوقوف موقفًا يقظًا من التهديدات". وقد وجّه نداءه هذا إلى أعضاء "اللجنة الثلاثيّة" ذات النفوذ، وهم ممثّلو الولايات المتّحدة وبلدان أوروبّا الغربيّة واليابان، وأظهر أنّ واشنطن تنتظر من حليفاتها روحًا عدوانيّة أكبر، في النشاط الاستخباريّ والتخريبيّ. وقد أشار "ش. ماكبرايد"، الشخصيّة السياسيّة الدوليّة والإيرلنديّة البارزة، والحائز على جائزتَي لينين ونوبل للسلام، إلى أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تسعى إلى جرّ أجهزة الاستخبارات السريّة الإنكليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة، على نحو أوسع، إلى عمليّاتها الاستخباريّة والتخريبيّة، ونقل الأعمال الأكثر قذارة إلى أكتاف الأنظمة الفاشيّة والإرهابيّة والعنصريّة".

في أوائل الثمانينات قام البيت الأبيض ولانغلي، حسب تعبير مجلّة يونايتد ستيتس نيوز إند وورلد ريبورت، بـ "إعادة الاعتبار إلى العمليّات التخريبيّة السريّة، من حيث هي عنصر أساسيّ في استراتيجيّة الولايات المتّحدة في ما وراء البحار"[1].

في عهد ريغان وكيسي، كانت استخبارات واشنطن تتصرّف بعدوانيّة أكبر بكثير ممّا كانت عليه في عهد سابقَيهما. فقد كانت تستخدم، بصورة استعراضيّة، الابتزاز والتهديدات والضغط السريّ وإثارة القلاقل وتدمير القوى التي تقف عقبة على طريق السياسة الخارجيّة الأميركيّة... إنّ انضمام لانغلي إلى الحملة الخارجيّة يؤكّد على الخطورة الكبيرة الكامنة وراء تطلّعات إدارة واشنطن إلى الهيمنة. وكما أكّد "أندريه غروميكو" في حديثه مع المراقبين السياسيّين السوفيات في كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٥: "فقد كان الوقت قد حان، منذ زمن طويل، لوقف تدخّل الولايات المتّحدة في الشؤون الداخليّة للدول الأخرى على جميع الأصعدة: كالتدخّل السياسيّ والاقتصاديّ للاستخبارات ومختلف أنواع الأجهزة الخاصّة، التي لم توقف ولا ليوم واحد، كما يبدو من خلال كافّة الظواهر، عملها تجاه عدد من الدول". وخلال تاريخ وكالة المخابرات المركزيّة بكامله، منذ تأسيسها، لم تكن في يوم من الأيّام، كما هي في تلك الحقبة أداة طيّعة في أيدي قوى النزعة العسكريّة. وقد أقلق هذا الأمر قسمًا من أعضاء الكونغرس إلى حدّ ما. بيد أنّه لم يكن بالإمكان لجم الاستخبارات بطريقة تشريعيّة.

---

١ - US . News And World Report, 1979, August 1.

رونالد بيلتون وأجراس اللبلاب

في السادس عشر من شهر كانون الثاني - يناير ١٩٨٠، كان رجل في الخمسين من عمره، ذو جبهة عالية ولحية كثيفة، يتهيّأ أمام هاتف في واشنطن، لاتّخاذ قرار من أهمّ القرارات الصعبة في حياته. لم يكن عليه لاتّخاذ هذا القرار المصيريّ إلاّ أن يدير قرص الهاتف مشكّلاً الرقم المطلوب. فقد إتّصال برقم صغير، ويصبح هذا العميل السرّي خائنًا لوطنه وبلده...

وأخيرًا توصّل "رونالد بيلتون" بعد أخذه نفسًا عميقًا إلى إدارة هذه الأرقام التي ستوصله بالسفارة السوفياتيّة. كانت الساعة تشير آنذاك إلى السادسة عشرة وثلاث وخمسين دقيقة، حيث يكون موظّفو السفارة قد غادروا مكاتبهم.

كان بيلتون أخصّائي عمليّة التجسّس الإلكترونيّة، يشكّ بقيام مخابرات شبكة مقاومة التجسّس التابعة لـ FBI بالتنصّت، بشكل نظاميّ، على جميع المكالمات الهاتفيّة الخاصّة بالسفارة السوفياتيّة. ولكن، مهما كان الأمر، فإنّ عليه الاتّصال بالسفارة وسيحاول أن يقلّل كلامه ما أمكن.

أمّا على الجهة الثانية من الهاتف، فكان هناك بالتأكيد ملحق السفارة "فلاديمير سوروكين"...

أصيب بيلتون بخيبة أمل مع عامل مقسّم الهاتف إذ إنّ بيلتون لم يكن يعرف أيّ شخص في السفارة.

ثمّ جاءه صوت يقول: "فلاديمير سورركين" على الهاتف، إسمي هو فلاديمير...

ردّ رونالد بيلتون بلهجة المتردّد قائلاً:

فلاديمير... آه... نعم... إنّني أريد أن أفتح حديثًا معك... أعتقد أنّ هذا الحديث يهمك.

أجاب الملحق في السفارة مؤكّدًا:

- أيمكنك أن تعطيني إسمك؟

أجاب رونالد بيلتون قائلاً:

عليّ الحذر في إعطاء الإسم على الهاتف، ثمّ تمتم بتردّد: إنني س... إنني... إنني... عضو في الـ... إنّني من العاملين مع الحكومة الأميركيّة.

أخذ الملحق يكرّر الكلام مؤكّدًا:

- الحكومة الأميركيّة... هل هناك احتمال في إمكانيّة زيارتنا؟

أعاد رونالد بيلتون الاتّصال مع السفارة مرّة أخرى، وذلك بعد مرور يومين على الاتّصال الأوّل، وبعد موعد الغداء بساعة كاملة. ولكن لم يعطه عامل المقسّم في هذه المرّة الملحق في السفارة، إذ كان يبدو أنّ هذا الأخير قد توصّل إلى كتابة تقريره وأعطاء أمره في تولّي جندي يعمل في الـ KGB أمر هذا الأميركي، إضافة إلى أنّ الرجل الذي أجاب على هاتف بيلتون لم يكن مجهولاً...

كان كلّ من الـ FBI والـ CIA يعمل من خلال لتبّاعهما لـ"فيتالي يورتشينكو" ومراقبته لفترة طويلة، إذ إنّ هذا الأخير شغل مناصب هامّة في قسم شبكة مقاومة

التجسّس التابع للـ KGB، إضافة إلى ذهابه، بعد مرور عدّة سنوات، إلى الغرب، وذلك قبل تغيير رأيه وعودته إلى موسكو...

ـ تعال لرؤيتنا. هذا ما اقترحه يورتشينكو بلطافة، بعد سماعه لاقتراحات بيلتون.

أجاب بيلتون، الذي لم يتمكّن أبدًا من رفض اللقاء المباشر قائلاً:

ـ إتّفقنا.

أمّا ما تبقّى الآن فهو فقط تحديد الطريقة التي سيتمّ فيها هذا اللقاء. إذ ربّما يكون الجاسوس الأميركي قد ألمح إلى إمكانيّة إجراء اللقاء السرّي داخل متحف، أو في الطريق الصحراوي لمعسكر في فيرجينيا.

ولكن زاد يورتشينكو على هذا الظنّ كلمة:

ـ تعال إلى هنا، إلى السفارة.

في حين كان عميل الـ KGB الحذر، يفضّل عدم الخروج من مكانه... إذ إنّ بإمكانه دومًا، في حال كون هذه عبارة عن قضيّة تحريض أو إثارة، طرد هذا الوقح خارج أراضي السفارة السوفياتيّة. وبالمقابل فإنّ القضيّة تصبح أكثر خطرًا، في حال حدوث اللقاء خارج السفارة.

سأل بيلتون يورتشينكو مستفسرًا:

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟ هل سأقرع بابك... وستدعوني لأدخل؟

أجاب يورتشينكو:

ـ إنّك ستدخل بشكل طبيعيّ، من خلال البوّابة الحديديّة!

ـ وهل سيدعونني أدخل دون إحداث أيّ مشكلة؟

- أجل بالتأكيد.

- إذن ها أنذا قادم.

ها هو الرجل أشعث الشعر وسمين الجسم، تختبئ رقبته داخل معطفه الغليظ، يمرّ من أمام البيت الأبيض، دون أن يراه أحد في يوم يعصف الهواء البارد فيه بين شوارع المدينة، كان الإضطراب بادٍ عليه... إضافة إلى وجود ثلاثة تجمّعات سكنيّة تفصله حتّى الآن عن السفارة السوفياتيّة.

مع هبوب العواصف الثلجيّة، بدأ بيلتون يحني ظهره من شدّة البرد. ومع عبوره البوّابة الحديديّة للسفارة، ازداد انشغاله بحماية نفسه ووجهه من البرد... لدرجة أنّه لم يلاحظ خيال عملاء الـ FBI المختبئين في الأماكن المجاورة.

وهكذا توصّل العملاء الفيديراليّون إلى رؤية ظهر بيلتون فقط مباشرة عند دخوله الأرض التابعة للسفارة السوفياتيّة، حيث بدأت الكاميرات الموضوعة في زوايا المكان بالتقاط صور لبيلتون عاتمة، لا تتيح المجال لمعرفة هويّته.

ولكن... بعد مرور عدّة سنوات على هذه الحادثة، وخلال رحلته المختصرة إلى الغرب، هل سيشرح يورتشينكو لضيوفه من الـــ CIA، مفسّرًا بأنّ حدوث أوّل لقاء بينه وبين رونالد بيلتون بدا وكأنّه مهزلة حقيقيّة ضمن رواية جاسوسيّة كلاسيكيّة.

توجّه بيلتون، رغم كلّ شيء، إلى مكتب فيتالي يورتشينكو ليرمي نفسه مباشرة على أريكة مريحة محاولاً إلتقاط أنفاسه، بعد هذه الأوقات العصيبة التي مرّ بها، وألم رأسه كان أن يفجّر دماغه... ثمّ ما إن مرّت بضع دقائق، حتّى أصبح بيلتون جاهزًا لإيضاح ما يريد.

سرعان ما عاد الاضطراب والقلق ليظهرا على بيلتون من جديد، لدى رؤيته محلّلاً خاصًا بالـ KGB يفاجئ الجميع باقتحامه مكتب يورتشينكو، إضافة إلى إحساسه بوجود أشياء غير طبيعيّة تدور في الخارج... وذلك بسبب تنبّه التقنيّين العاملين في مخابرات حماية السفارة لازدياد ملفت للنظر في نشاط أجهزة لاسلكي رجل الشرطة... كانت مخابرات التنصّت صريحة في تفسير هذا الموضوع: إذ معنى هذا أنّ الـ FBI تقف بالمرصاد، وأنّ أجهزة اللاسلكي داخل سيّارات عناصر الفدراليّين تعمل بنشاط جنونيّ بحيث أنّ الرسائل تبثّ لجميع الجهات...

كانت مخابرات التنصّت تقوم بمراقبة جميع المحادثات بين رجال الشرطة، ولكن كانت الرسائل مشوّشة، ومن المستحيل فكّ رموزها.

كما وكان عملاء الـ KGB يعلمون تمامًا بقيام الـ FBI بإرسال جواسيس مزيّفين إليها، بين الحين والآخر، وذلك بهدف تزويدهم بمعلومات وهميّة وخاطئة. وبناء على ذلك فربّما يكون هذا الرجل الماثل أمامهم هو واحدًا من هؤلاء العملاء المدّعين التجسّس.

ولكن مع استعادته لوعيه والتقاطه لأنفاسه، قام رونالد بيلتون بتقديم وثيقة لعميل الـ KGB، يثبّت فيها حسن نيّته.

أدرك يورتشينكو بعد الحصول على الوثيقة أنّه أمام موظّف ذي منصب عال في المخابرات السريّة يحتاج إلى بعض التمرين والتدريب ليصبح جاسوسًا متخفيًا في مخابرات الـ KGB، يعمل على مستوى عال ورفيع. لم تكن الورقة التي وضعها بيلتون على مكتب يورتشينكو إلاّ شهادة ديبلوم مصدّقة تدلّ على اتّباعه دورات داخل مدرسة، تعتبر من أكثر مدارس المخابرات السريّة الأميركيّة سريّة، ألا وهي وكالة الأمن الوطني NSA.

يظلّ رونالد بيلتون، رغم كلّ شيء، أميركيًّا هادئًا، دخل سلك الاستخبارات من باب الصدفة، إذ انتسب بعد إنهاء دراسته العاديّة في مدرسة مدينته الأمّ إلى السلاح الجوّي الأميركيّ، وذلك بعد تخرّجه من المعهد عام ١٩٦٠، ليقرّر بعدها السلاح الجوّي إتمام تربية وتعليم المنتسب الجديد إليها، وذلك بإرساله إلى جامعة "إنديانا"، ليتابع تلقّيه دروسًا في اللغة الروسيّة، تلك المهمّة التي أدّاها بيلتون على أتمّ وجه وبنجاح بارع، من خلال حصوله في النهاية على شهادة الديبلوم بكلّ جدارة.

لم يكن صحيحًا ومؤكّدًا قيام السلاح الجوّي الأميركي بتكلفة نفسه عناء انتظار الطالب بيلتون عدّة سنوات، وهو يعارك الأحرف "السيرليّة"، وهي الأحرف ذات العلاقة بالأبجديّة السلافيّة القديمة والمنسوبة إلى مخترعها القدّيس سيريل، بهدف دفعه لإتمام ثقافته العامّة أو حتّى الاطّلاع على دراما الأدب السوفياتيّ. إضافة إلى أنّ بيلتون نفسه أدرك هذا الموضوع مبكّرًا، إذ أصبحت الحرب الباردة في أوج نشاطها، وبدأ "العمّ سام" في إبداء حاجته إلى الموهوبين في اللغويّات، حيث تمّ، عندئذ، إرسال بيلتون إلى باكستان، بمهمّة التنصّت على محادثات سلاح الجوّ السوفياتي.

اعتُبرت هذه المهمّة عالية التخصّص، إذ إنّها ستتيح المجال أمام بيلتون لإعادة الأوضاع إلى عهدها السابق، عام ١٩٦٤ عند تركه لسلاح الجوّ الأميركيّ، وبدون التعرّض لصعوبات كبيرة.

وهكذا أدركت هيكليّات السلاح الأميركي المختلفة ومخابرات التجسّس وشبكة مقاومة التجسّس أهميّة المراقبة الإلكترونيّة للخصم العدوّ، وحتّى لحلفائه في بعض الأحيان. لذا نجدها تلجأ إلى هذا النوع من المراقبة، ولكن ليس بشكل نظاميّ، من خلال تكليف وكالة الأمن الوطني NSA منذ عام ١٩٥٢، بمراقبة خطّ السير الإلكتروني في جميع أنحاء الكرة الأرضيّة. وتُعتبر الـ NSA من أشدّ المخابرات

السريّة سريّة وتكتّمًا، إذ علم أنّها تستخدم ما يقارب الـ ٢٠٠ ألف شخص، مقسّمين على قواعد موزّعة في جميع أنحاء العالم. وقد أصبحت الـ NSA قادرة، بفضل معدّاتها التي لا تضاهى، على التنصّت على إرساليّات الرادار والتقاط إشارات الأقمار الصناعيّة، إضافة إلى التنصّت على المحادثات التي تتمّ عبر الحاسوب والهاتف في جميع أنحاء العالم. لذا لم يعد هناك أيّ اعتراض على رونالد بيلتون في انضمامه للعمل كباحث في المقرّ العام الضخم التابع للـ NSA والقائم في "فورت ميد" بشمال واشنطن.

إعتاد بيلتون دخول هذا المبنى، وأصبح بعد مرور عدّة سنوات واحدًا من أفراده، ذاك البناء الذي يُعتبر بحقّ أكبر بناء في العالم، والأكثر اتّساعًا، على كلّ حال، من المقرّ العام للـ CIA ومن الكونغرس الأميركي مجتمعين.

تُعتبر إعادة تشكيل هذه الفترة في سيرة حياة رونالد بيلتون الذاتيّة للتعرّف على حقيقة مهمّته، أمرًا مستحيلاً، وذلك لأنّه من الصعوبة بمكان تحديد نشاطات الـNSA خاصّة إذا عرفنا عن بدء بيلتون ارتقاء درجات سلّم بيروقراطيّة التجسّس الإلكتروني، حيث تمّ تعيينه في بادئ الأمر جنديًّا في هذه الوكالة، يعمل في إطار المشاريع الجديدة، إضافة إلى قيامه بتنظيم الميزانيّات الهامّة الموضوعة لإيجاد أجهزة وأدوات استكشاف جديدة. ثمّ ها هم زملاؤه يعتبرونه، مع بدايات السبعينات، واحدًا من ألمع الخبراء، الذين يأخذون برأيه ونصيحته ويستشيرونه في كلّ مشكلة لدرجة أنّ الصحافة الأميركيّة اعتقدت أنّها على علم بقيامه، آنذاك، بتأليف كتاب حقيقيّ يضمّ ستّين صفحة، إذ وصفت صحيفة "وول ستريت جورنال" هذا الكتاب بأنّه عبارة عن ملفّ وثائقي يتحدّث عن ٥٧ قناة إرسال خاصّة بالجيش وبالاستخبارات السوفياتيّة مراقبة من قبل الـ NSA، كشفت عنها وكالة الـ NSA، إضافة إلى وجود دراسة مفصّلة عن تحرّكات

واهتزتزات هذه الأقنية ونماذجها وتغيّراتها. وقد كشف بيلتون أيضًا في عمله هذا عن عدد كبير من الأسرار، حيث علم بالمكان الصحيح والدقيق لتواجد قواعد الـ NSA المكلّفة بمراقبة الإشارات الإلكترونيّة المرسلة إلى الأرض السوفياتيّة.

كما ظلّ بيلتون، من خلال عمله هذا، على صلة تامّة بجميع العمليّات السريّة حتّى، في بعض الأحيان، تلك المخطّط لها بعيدًا عن علم ودراية رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة.

بالمختصر المفيد، أصبح رونالد بيلتون، وهو في قمّة عمله، موظّفًا حائزًا على تقدير وثقة رؤسائه، لدرجة أنّه لم يكن هناك أحد يتخيّل، ولو للحظة واحدة، أنّ بإمكانه أن يذهب في أحد الأيّام ويطرق باب السفارة السوفياتيّة ليبيع أشدّ الأسرار الخاصّة بالولايات المتّحدة الأميركيّة كتمانًا.

في الواقع فإنّه لم يُعرف أبدًا السبب الذي دفع رونالد بيلتون ليقرّر فجأة خيانة بلده. ربّما يكون هو نفسه جاهلاً لهذا السبب. ولكنّ المعروف في المقابل تحوّل حياته مع حلول عام ١٩٧٩، إلى كابوس مزعج وجحيم كامل. إذ إنّه لم يكن بإمكانه أن يوفّر مصروف معيشته اليوميّة مع زوجته وبناته الثلاث، وذلك على الرغم من تقاضيه راتب جنديّ في الـ NSA آنذاك، البالغ ٢٥ ألف دولار سنويًّا. إضافة إلى مرور فكره الديني بأزمة وجوديّة حادّة، وذلك على الرغم من اعتقاداته الدينيّة، إذ كان يواظب هو وزوجته باستمرار على ممارسة طقوس الطائفة الكاثوليكيّة.

ظلّ بيلتون يعيش مع عائلته على مدى عدّة سنوات، داخل بيت متهدّم، أقرب ما يكون إلى كوخ يقع في قرية "هوارد كاونتي" في ولاية "ميريلاند"، لدرجة أنّ جيرانه أنفسهم يصفون حياة عميل الـ NSA اليوميّة مع عائلته بعبارة "الفقر المدقع".

مع نهاية السبعينات، انتقل بيلتون مع عائلته ليعيش داخل مزرعة مهدّمة في مدينة "ليسبون" الصغيرة، القريبة من واشنطن، ويشير واحد من جيرانه مؤكّدًا لصحيفة الـ"واشنطن بوست": "لقد كان هذا المنزل منهارًا حقًّا... إنّه في عداد الأنقاض. لذا قام بيلتون وعائلته بشراء سيّارة متنقّلة لينامو‌ا، على ما أعتقد، بداخلها".

كان هذا العقار مرهونًا حتّى آخر فلس، ومع ذلك اضطرّ بيلتون لبيعه، بسبب تأخّره عن دفع المطلوب منه، إلى عميل الـ NSA، والحزن والتعاسة يسيطران عليه، وإلى وضع الموادّ الضروريّة لبناء مزرعة جديدة، على أرض كان قد اشتراها منذ مدّة قصيرة. ولكن في إحدى الليالي سُرقت جميع هذه الموادّ. عندها وجد بيلتون نفسه مديونًا بستّين ألف دولار، وبذلك بدأ التحوّل في حياته يتدرّج إلى الأسوأ شيئًا فشيئًا...

قرّر العميل السرّي ممارسة سياسة الأرض المحروقة، وذلك عوضًا عن محاولته سداد ديونه. لذا قام بتقديم استقالته إلى الـ NSA دون معرفة السبب الحقيقيّ لعمله هذا. إذ ادّعى أنّ رؤساءه قد يكتشفون، عاجلاً أم آجلاً، مشاكله الماليّة، وبالتالي سيضطرّون لتسريحه، بسبب الخطر الذي يمثّله. وهكذا فها هو بعد مرور فترة من الزمن داخل مكتب فيتالي يورتشينكو، حيث لم يكن في حسابه بالبنك، عندئذ، إلاّ بضع مئات من الدولارات.

أصيب كلّ من يورتشينكو وعملاء الـ KGB بالصمت والذهول، لدى بدء رونالد بيلتون بتوجّهه إليهم في الكلام قائلاً: "إنّني سأحدّثكم عن مشروع ندعوه بأحرف الشيفرة الرمزيّة باسم "أجراس اللبلاب Ivy Bells".

ثمّ انطلق بيلتون يفسّر لهم موضحًا مقام الجيش السوفياتي منذ عدّة سنوات، بوضع كابل تحت مائي خاص بالاتّصال في أعماق بحر "أوكهوستوك"، من الجهة المجاورة للمسافة بين الجهة الشرقيّة للاتّحاد السوفياتي وشبه جزيرة "كامتشاتكا" القريبة من

اليابان. وعن نجاح وكالة NSA بعد مرور فترة على تمديد هذا الكابل، بوضع نظام تنصّت داخله من خلال استخدامه في الغوّاصات. وهكذا تمكّن الأميركيّون من التنصّت على جميع الاتّصالات العسكريّة السوفياتيّة، التي تجري ضمن المناطق الأشدّ حساسيّة على الكرة الأرضيّة، ومن أخذ العلم بجميع أنظمة إرسال المقرّ العام، خلال نفس الوقت الذي يتمّ إرسالها فيه.

ثمّ طلب بيلتون إحضار خارطة له، وذلك ليعطي أهميّة أكبر للمعلومات المؤكّدة التي تحدّث عنها، حيث عيّن للسوفيات المندهشين، بدون أيّ تردّد، مكان كلّ من كابلات الاتّصالات وكابل نظام التنصّت الذي أوجدته الـ NSA على بعد عشرات الكيلومترات.

كان السوفيات يشكّون بصورة فعليّة بحدوث أشياء أكثر صحّة ودقّة في أعماق بحر أوكهوتسك منذ عام ١٩٧٩، حيث كان هناك في تلك الفترة تصادم بين غوّاصتين أميركيّة وسوفياتيّة، وعلى مسافة قريبة من هذا الكابل الهاتفي. ولكن تمكّنت الغوّاصة الأميركيّة من الاختفاء تمامًا، مستغلّة فرصة ظهور الغوّاصة السوفياتيّة على سطح الماء طلبًا للنجدة والمساعدة بواسطة اللاسلكي، هؤلاء السوفيات الذين لم يتمكّنوا، رغم كلّ الجهود المبذولة من العثور على سبب مجيء الغوّاصة العدوّة إلى أعماق مياههم. وهكذا جاء تصريح بيلتون ليعطي القضيّة مزيدًا من الإيضاح، إذ إنّه أضاف إلى المعلومات السابقة، حديثًا عن عمليّة "أجراس اللبلاب" التي تمّت هناك، وكان لها نشاط واسع، ولكن في تكليف الغوّاصة بالإشراف على سير عمل وتشغيل الاتّصالات والتوفيق بين تلاؤم نظام التسجيل والمادّة التي تستخدمها وكالة الـ NSA.

لم يكن هناك في هذه المرّة أيّ مجال للشكّ... وأدرك يورتشينكو أنّ رونالد بيلتون جاسوس حقيقيّ، لذا فمن المفروض العناية به وتدريبه.

هكذا وعد بيلتون يورتشينكو بقوله:

- سأقول لك المزيد من المعلومات، ولكن عليك أن تدفع لي في بادئ الأمر.

كان عملاء الـ KGB الواقعيّون، كغيرهم من زملائهم العاملين في وكالات الاستخبارات، يعلمون تمامًا بأنّ المال هو عصب حرب ما وراء الكواليس. وها هو الاضطراب الذي اجتاح للحظة مكتب السفارة يزول، وتعود الحال إلى ما كانت عليه، وذلك لاتّخاذ المباحثات فورًا مظهرًا سرياليًّا.

قال بيلتون:

- إنّني أريد قبض المال بالذهب.

ليس هناك من ردّ يأتيه... فيعود ليوضح وليضع ثمنًا لخيانته ومعلوماته:

- إنّي أريد بلايين... (أي مليارات)

لم يكن الأمر بالنسبة له يعتمد على تحديده رقمًا معيّنًا، بل يعني فقط رغبته في أن يكافأ بمبالغ كبيرة. كانت البداية في الردّ بالنسبة للسوفيات دهشة ثمّ حيرة وتشاور. إنّه أمر لا يصدّق في طريقة الحصول على المال، إذ إنّ بيلتون قال "بلايين Billions" ولكنّهم فهموها "Bouillon" ومعناها "مرق أو حساء". ما أدّى إلى ظهور الذهول والحيرة على وجوههم جميعًا... إذ تخيّل يورتشينكو ورجاله، للحظة، أنّ عليهم أن يدفعوا ثمن هذه الخيانة دجاجة كاملة!... ولكنّ يورتشينكو قرّر مقاطعة بيلتون في إدلائه باعترافاته، وذلك لدى استيعابه وفهمه لما كان يقصده الأميركي، حيث نبّهه إلى أنّ المكان والزمان غير مناسبين للتفاهم الآن... إذ سبق لرجل الـ KGB أن وقع في خطر فادح وذلك بتركه بيلتون يلج إلى داخل الأبنية الأكثر مراقبة في واشنطن. ذلك أنّ هذه الأبنية تعجّ باستمرار وفي الأوقات

العاديّة بعملاء الـ FBI الذين تضاعف عددهم بعد اتّصالات بيلتـون الهاتفيـة، وتتصنّتهم عليها.

ولكن، كيف بالإمكان إخراج بيلتون من هذا البناء دون أن يُكتشف أمره وتُعرف شخصيّته من قبل شبكة مقاومة الجواسيس؟ يكفي إحداث تغيير في مظهره.

سرعان ما أمر يورتشيكو بيلتون بقوله:

- إخلع ملابسك لأنّك ستغيّرها.

وهكذا أصبح بيلتون جديد يقف أمام يورتشينكو، إنّه رجل حليق الذقن، مرتدٍ اللباس الرسمي للعمّال السوفيات العاملين هناك، بحيث أصبح غير معروف أبدًا. وهذا ما مكّنه من الخروج من أسوار السفارة، دون إحداث أيّ مشكلة، داخل شاحنة صغيرة ووسط مجموعة من العمّال، يغادرون البناء يوميًّا متوجّهين إلى مكان إقامتهم، مع أفراد طاقم العمل السوفياتي. وبالفعل، فقد كان عملاء الـ FBI على بعد خطوات من مبنى السفارة يدوّنون على مفكّرتهم حدث خروج الشاحنة الصغيرة، بحيث كان كلّ شيء يبدو عاديًّا وطبيعيًّا بالنسبة لهم، إذ لم يكن لديهم الوقت لاكتشاف وجود مواطنهم الأميركيّ داخل الشاحنة، والذي بدأ بخروجه هذا يعيش حياته الثانية.

كان على المخابرات السوفياتيّة الـ KGB أن تنتظر قليلاً لتقيّم كلّ ما يمكن أن تستفيده من رونالد بيلتون، وذلك باعتبار أنّها كانت إدارة ذائعة الصيت والشهرة، إذ ما كاد تقرير يورتشينكو حول هذا الموضوع يصل إلى موسكو، إلاّ وكان هناك طاقم يبدأ بالعمل في هذا المجال، بحيث تمّ أرسال غوّاصة للتأكّد من الكابل الهاتفيّ الموجود في أعماق بحر أوكهوتسك، الذي تحدّث عنه رونالد بيلتون

في اعترافاته، وتبيّن أنّ ما أدلى به من معلومات كان صحيحًا ودقيقًا، كما تمّ اكتشاف وتدمير نظام التنصّت الذي وضعته الـ NSA، وأصبح بالإمكان البدء بالمرحلة الثانية من العمليّة.

قامت المخابرات السوفياتيّة KGB في بادئ الأمر، بتعيين عميل مكلّف بمتابعة ومراقبة بيلتون. في حين كان على يورتشينكو المكلّف من شبكة مقاومة التجسّس منع تسلّل عملاء الأعداء، وعدم التآمر على الجواسيس المتخفّين في حين سيقوم جنديّ آخر من الـ KGB موجود في مكتبها بواشنطن بمتابعة القضيّة.

ليس معروفًا ما هو العقد الذي أبرم بين عميل الـ KGB من جهة، وبيلتون من جهة أخرى. مع العلم أنّ معرفة إسم هذا العميل لم يكن أمرًا كبير الأهميّة. وبالمقابل، فمن المؤكّد تقريبًا أنّ هذا العميل لم يكن يعرف بيلتون إلاّ من خلال اسمه المستعار "ميستر لونغ"، مثله في ذلك مثل معظم عملاء الـ KGB المكلّفين بمثل هذه المهمّة. وممّا لا ريب فيه أيضًا هو عدم حدوث لقاء بين هذا العميل وجندي الـ NSA إلاّ مرّة أو مرّتين.

لم يكن من عادة المخابرات السوفياتيّة KGB، من باب الحذر والاحتياط أن تفرّط بموظّفيها لأقلّ سبب، لذا كان على رونالد بيلتون تجنّب الاتّصال المباشر مع العملاء السوفيات الموجودين على الأراضي الأميركيّة، إذ كانت الأوامر التي أعطاها عميل الـKGB خلال اللقاء التمهيديّ، شديدة الوضوح، وتنصّ على أساس اللقاء آخر يوم سبت من كلّ شهر، ليراقب وهو يدخل إلى مطعم "كاستيل" الخاص بتقديم البتزا والموجود في "فول تشيرتش" بفرجينيا، بقرب واشنطن. كان على بيلتون التواجد في تمام الساعة عشرين أمام غرفة الهاتف العموميّ التابعة للمطعم، ليردّ على الهاتف عندما يرنّ منتظرًا التعليمات.

في خريف ١٩٨٠، لم يكن رونالد بيلتون قد رأى أحدًا يظهر أمامه، رغم مرور عدّة أيّام سبت متتالية وهو يتردّد، بشكل منتظم، إلى مطعم "كاستيل" في الفول تشيرتش، ليردّ على الهاتف هناك. ولكن كان عملاء الـ KGB يريدون، بلا شكّ، إمتحانه، ومعرفة ما إذا كان بالإمكان حقًّا وضع كامل الثقة فيه. وأخيرًا حان الوقت ليستمع على الهاتف إلى جملة تقول له: "إنّ لدينا شيئًا لك"!

كانت وكالة المخابرات السوفياتيّة KGB تريد منه زيارة "فيينّا" لإقامة علاقة هناك مع جاسوس سوفياتيّ ثالث.

أعطي الأمر لرونالد بيلتون على الهاتف، وقبل إعادة السمّاعة إلى مكانها، في الذهاب إلى غرفة الهاتف العموميّ الثانية، القريبة من نفس المكان، ليجد صرّة في انتظاره.

أتمّ بيلتون مهمّته بكلّ نجاح ليفتح الصرّة ويجد فيها علبة مغناطيسيّة مخبّأة تحت لوحة دائريّة الشكل، ليكتشف بداخلها وجود ٢,٠٠٠ دولار، وعنوانًا لموعد في فيينّا.

مع بداية شهر تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٨٠، كان بيلتون يتوجّه إلى النمسا. كانت الرحلة ظاهريًّا رحلة ترفيهيّة، لذا نجد بيلتون، الجندي السابق في الـ NSA يزور، باعتباره سائحًا، حدائق قصر "شونبرون"، مكان إقامة أباطرة النمسا.

لم يكن بإمكان بيلتون أن يتغلّب على اضطرابه وقلقه، أثناء مروره بين ممرّات الحدائق. لم يكن مهتمًّا كثيرًا بماضي "هابسبورغ" العريق أثناء تجوّله ومواجهته للسائحين الآخرين. إذ إنّه كان ينتظر أيّ إشارة أو حركة ممّن سيتّصل به.

- "إتبعني من فضلك". هذه هي فقط الجملة التي سمعها في بادئ الأمر، من رجل عازف مزمار.

قام بيلتون بتنفيذ الأمر، دون أيّ اعتراض، وبكلّ هدوء، ليصل معه، في ما بعد، إلى ركوب السيّارة التي ستقودهما معًا إلى السفارة السوفياتيّة.

إنّه عميل سوفياتي يدعى "أناتولي سلافنوف"، قدم خصيصًا من موسكو، يستقبله هناك ويرحّب به ويعانقه حتّى قبل أن يأخذه إلى الشقّة الخاصّة التابعة للسفارة السوفياتيّة هناك. هذا وقد حدّدت صحيفة "وول ستريت جورنال" التي أوردت معلومات حول هذه القضيّة، أنّ الـ KGB لمست بذلك الأثر الدبلوماسي، إذ إنّ السفير لم يكن يقدّر أبدًا أهميّة استعمال هذه الشقق من قبل المخابرات الخاصّة.

إستمرّ استجواب بيلتون ثلاثة أيّام متواصلة، بمعدّل عشر ساعات يوميًّا. ولم ينتج عن الاجتماع الأخير إلاّ الفكرة التالية: إنّ رونالد بيلتون يعرف الكثير حول وكالة NSA، إذ تمكّن السوفياتي المندهش الذي يستجوبه من الكشف عن خلفيّات وكالة التجسّس الإلكتروني هذه، والتعرّف، بشكل خاص، على خطّتها الإجماليّة في الإدارة والتنظيم. وربّما يكون بيلتون قد أوضح لهم مفسّرًا الكيفيّة التي أوجدت بها الـ NSA حواسبها الضخمة المخصّصة لفكّ رموز الشيفرة الشديدة التعقيد. ولكن تُعتبر الطريقة التي تقوم الـNSA من خلالها بمراقبة الاتّصالات خلف ستار حديديّ، هي الموضوع الأكثر أهميّة بالنسبة للسوفيات، إذ من الصعوبة بمكان معرفة كلّ ما رواه وتحدّث به رونالد بيلتون إلى وكالة المخابرات السوفياتيّة KGB، إذ ظلّت المخابرات السريّة الأميركيّة تعتبر دومًا أنّ ملفّه هو اختصاص أمن الدولة... لدرجة أنّ مدير المخابرات الأميركيّة CIA وليام كيسي، توصّل إلى الحصول على حقّ رقابة مقال صحيفة الواشنطن بوست الخاص بقضيّة بيلتون وبمشروع عمليّة "أجراس اللبلاب". ومع ذلك فقد لاحظت الـ NSA إخبار بيلتون وإعلامه للـ KGB عن خمس عمليّات تعتبر "شديدة السريّة". والحقّ يقال، إنّ المخابرات السوفياتيّة KGB كانت على علم بواحدة من هذه

العمليّات، وذلك باعتبار أنّه ورد ذكرها ضمن الملفّ الذي تمّ تأليفه والمتعلّق بالحديث عن الـ ٥٧ قناة إرسال للتنصّت على الجيش والاستخبارات السوفياتيّين، ذلك الملفّ الذي أولته الـ NSA كامل اهتمامها.

أُطلق على هذا الملفّ التقريري إسم "ملفّ حول ثوابت الإشارات". ولم يكن بالإمكان تقدير الثمن بالنسبة للمخابرات السريّة السوفياتيّة، إذ إنّه لم يُتح المجال أمامها فقط للتعرّف بدقّة أقنية الاتّصال التنصّتية التابعة للأميركيّين، بل إنّه تعدّى أيضًا ذلك إلى التعريف بطريقة نقل وفكّ رموز رسائل هذه الأقنية والسرعة التي يتمّ فيها إرسال هذه الرسائل.

قام بيلتون أيضًا، حسب ما ورد على لسان وكالة الـ NSA، بإعطاء السوفيات تفسيرًا وشرحًا حول الطريقة التي توصّل بها الأميركيّون إلى مراقبة وكشف الاتّصالات من مصدرها "بدءًا من أرفع مستوى في الاتّحاد السوفياتي وانتهاء بأدنى مستوى فيه"، وقد يبدو من خلال بعض الأسرار المباحة، قيام الجاسوس بيلتون بإعطاء الـ KGB المعلومات الكاملة حول مكان القواعد السريّة التابعة لوكالة الـNSA وتزويدهم أيضًا بالتقنيّات الدقيقة الخاصّة بأجهزة التنصّت الجديدة التابعة للـ NSA.

لدى عودته من موسكو، قام "أناتولي سلافنوف" بصياغة مذكّرة مطوّلة حول اعترافات رونالد بيلتون، ثمّ التقى بعد فترة وفي أحد الأيّام بـ"فيتالي يورتشينكو" داخل ممرّات مبنى وكالة المخابرات السوفياتيّة KGB، فسأله يورتشينكو قائلاً: "كيف هو خال "ميستر لونغ"؟

- إنّه بخير. لقد خرجت منذ مدّة من استجواب مطوّل معه.

ثمّ أخذ سلافنوف يشرح لزميله أهميّة اعترافات بيلتون، وهما ما زالا يقفان داخل ممرّات بناء الـ KGB بحيث أنّه لم يخفِ إعجابه ببيلتون ولا بطبيعة وكميّة اعترافات هذا الأميركيّ، تلك الاعترافات التي تفوق التقدير والحساب.

يضاف أيضًا إلى ذلك أنّ هناك بعضًا من جلسات الاستجواب التي اعتبرت ضروريّة ليتمكّن سلافنوف من التوصّل إلى استجواب بيلتون بشكل كامل. أمّا اللقاء الثاني بين كلّ من بيلتون وعميله المسؤول عنه، فقد تمّ خلال شهر كانون الثاني - يناير ١٩٨٣ في فيينّا.

يبدو أنّ اللقاءات الأخرى بين كلّ من بيلتون وسلافنوف أخذت تزداد وتتوسّع يومًا بعد يوم. إذ ها هو رونالد بيلتون غير المعروف تقريبًا، يقلع من مطار واشنطن، ليتوجّه إلى موعده التقليديّ في فيينّا، والمؤرّخ هذه المرّة في شهر نيسان ـ إبريل ١٩٨٥.

سافر بيلتون على متن طائرة تابعة لخطّ خاصّ بالعاصمة النمساويّة، حيث ترك زوجته وأطفاله الأربعة، ليعيش، منذ ذلك التاريخ، مع امرأة شابّة، ولكن لفترة عابرة ومحدودة. هذا ولم تمنحه المخابرات السوفياتيّة KGB إلاّ مبلغ ٣٥ ألف دولار، وهذا ما كان مخيّبًا لآماله ولطموحاته، إذ وجد أنّ المبلغ زهيد جدًّا بالنسبة لقيمة المعلومات التي أعطاها لهم. ولكن يبدو أنّ الـ KGB قد "حقّقت قضيّة العصر بالنسبة لموضوع التجسّس"، هذا ما ورد على لسان "دونالد آر باكون" الذي كان رئيسًا لرونالد بيلتون في عمله، قبل حدوث هذه الأحداث.

يُعتقد أنّ بيلتون قد توصّل إلى تسديد ديونه بواسطة الأموال التي قبضها من الـKGB، أو ربّما يكون بدّدها وصرفها في أمور مختلفة، إذ إنّه قد أصبح بائعًا لمراكب اللهو في "سافورد مارين" بالقرب من "أنابوليس". وإنّ الرجل

الذي كان يتسكّع، في أحد الأيّام، متجوّلاً بين حدائق قصر "شونبرون" يفقد خلال بضعة أشهر عشرة كيلوغرامات من وزنه، حيث ترجع الأفكار عودة هذا التراجع المفاجئ في الوزن إلى نتيجة مفادها تعاطي بيلتون الكوكايين وبعض أنواع من حبوب الأفيون.

ظلّ دونالد بيلتون ينتظر وصول السائق السوفياتي إلى الموعد ولكن بلا جدوى. عندها اتّجه في طريقه للعودة وهو يفكّر "إنّه لم يتعرّف عليّ"... ولكن ماذا لو قرّر السوفيات قطع كلّ اتصال معي؟ ربّما يكون هذا هو السبب في عدم مجيء أحد إلى الموعد!

وهكذا بدأت الأسئلة تدور في رأسه، وقد أمضى السبت الأخير من شهر نيسان ـ إبريل وهو قلق جدًّا، ولكنّه عاد مع ذلك إلى مطعم "فول تشيرتش" بهدف انتظار الاتّصال الهاتفيّ.

وأخيرًا رنّ جرس الهاتف، كان الصوت الآتي إليه من خلال السمّاعة معروفًا من قبله، ويتحدّث معه بصوت طبيعيّ وعاديّ... دون التطرّق حتّى إلى موضوع الموعد الذي لم يأت أحد لمقابلته فيه. طلب منه أن يكون جاهزًا للعودة إلى فيينّا خلال شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر المقبل.

أمّا بالنسبة لما يتعلّق بالـ FBI، فقد ظلّت تحاول معرفة الشبح الغامض الذي دخل مبنى السفارة السوفياتيّة في واشنطن والذي لم يتمكّن عملاؤها من تمييزه ولمح شكله... حدثت هذه المحاولة مباشرة بعد دخول رونالد بيلتون إلى مبنى السفارة السوفياتيّة في ذلك اليوم، ولكن كان من المستحيل توصّل الـ FBI إلى التفكير بأنّ هذا الشبح خائن عميل، وموظّف سابق في الـ NSA.

كان من الممكن عدم الكشف إطلاقًا عن شخصيّة وقناع بيلتون لولا قيام فيتالي يورتشينكو بالاختفاء، خلال شهر آب ـ أغسطس ١٩٨٥، داخل ممرّات متاحف الفاتيكان، ليعود ويظهر، بعد وقت قصير، في واشنطن، وذلك أثناء قيامه بمهمّة كلّفته بها الـ KGB في روما، ممّا دفع عملاء الـ CIA المكلّفين باستجواب السوفياتي يورتشينكو، إلى سؤاله عن مكان وجود رونالد بيلتون... وهكذا مضت خمس سنوات استرجع عميل الـ KGB الكثير من التفاصيل الدقيقة في ذاكرته التي مرّت خلالها، إذ لم يكن يورتشينكو يتذكّر أبدًا إسم رونالد بيلتون، باعتبار أنّه معتاد على تسميته "ميستر لونغ"، في حين أنّه كان متأكّدًا من شيء واحد فقط، ألا وهو أنّ الرجل الذي تبحث عنه شبكة مقاومة التجسّس، يعمل مع الـ NSA. عندئذ قام طاقم مؤلّف من عملاء من كلّ من الـ FBI والـ NSA بالبدء في البحث والعمل منطلقًا من الدلالات التي اعترف بها يورتشينكو.

لم تكن مهمّة هذا الطاقم سهلة أبدًا. إذ كان هناك عشرات الآلاف من الأشخاص الذين كانوا يعملون سابقًا في المقرّ العام بـ"فورت ميد"...

قال لهم يورتشينكو: "إنّ الرجل الذي تبحثون عنه شعره أشقر"... فما كان من المحقّقين إلاّ أن تحسّروا وتأفّفوا من هذه العلامة العامّة التي لا تعني شيئًا... وتوصّل عملاء الـ FBI، رغم قلّة الأدلّة التي كانت بين أيديهم، إلى الفرز الأوّل لبطاقات الأشخاص العاملين في ملاك الـ NSA، إذ قاموا بحذف أسماء الأشخاص ذوي الشعر الرمادي والرؤوس الصلعاء. مع ذلك فقد بقي لديهم حوالى ١,٠٠٠ مشتبه به... عندها بدأ يورتشينكو بتجميع أفكاره وذكرياته محاولاً إعادة ترتيب محادثاته ولقاءاته مع سلافنوف، في المقرّ العام للـ KGB في موسكو. وتوصّل إلى التذكّر بأنّ "مستر لونغ" متزوّج ويقود سيّارة خضراء اللون. وأضاف أيضًا معلومات حول عمله سابقًا في

ميزانيّات بعض مشاريع الـ NSA، وأنّه ساهم في ملفّ "أجراس اللبلاب"، بحيث بقي فقط لدى الـ FBI قائمة بأسماء مئة من المشبوهين المشتركين بالصفات نفسها.

توجّه يورتشينكو إلى المحقّقين قائلاً:

ـ هناك أيضًا شيء آخر يمكنه أن يساعدكم في بحثكم وتحقيقكم. لقد كشفنا وتنبّهنا، لدى زيارة "مستر لونغ" إلى السفارة السوفياتيّة في واشنطن، حدوث ازدياد في سرعة راديو اللاسلكي الخاصّ بكم. وبالتالي، فإنّه من المفروض أن يكون في ملفّاتكم تسجيل لصوت المستر لونغ، وذلك باعتبار أنّه اتّصل بنا مباشرة على الهاتف.

بالفعل، دوّن العملاء الفدراليّون أثناء بحثهم في تقارير ملفّات الـ FBI الأرشيفيّة، ملاحظة وجود ازدياد في نشاط المراقبة حول السفارة السوفياتيّة وذلك خلال شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٠.

قام عملاء الـ FBI بالاستماع إلى جميع المكالمات الهاتفيّة التي تنصّتوا عليها خلال تلك الحقبة، ليجدوا أخيرًا مكالمة رونالد بيلتون الهاتفيّة.

رغم ذلك، ما زال هناك أمام عملاء الـ FBI مهمّة الكشف عن هويّة صاحب الصوت من خلال جعل موظّفي الـ NSA الذين يعملون مع المئة موظّف المشتبه بأنّهم مستر لونغ، يستمعون إلى تسجيل المكالمة الهاتفيّة... وقد كان هذا العمل دقيقًا جدًّا، لأنّه يتطلّب عدم وصول التحذير أو التنبيه إلى مستر لونغ، مهما كان الثمن. وأخيرًا، ها هو جندي من الـ NSA يصرّح، بعد مضيّ شهور قائلاً: ها، إنّه صوت رونالد بيلتون.

كان على رونالد بيلتون أن يكون موجودًا في فيينّا. ولكن يبدو أنّه خلال الوقت الذي توجّه فيه إلى مطعم البيتزا "فول تشرتش" لتلقّي التعليمات المتعلّقة برحلته، كان

بيلتون واقعًا في اللحظة نفسها تحت تأثير الكحول ومخدّر مشتقّ من الهيروين، ممّا أفقده السيطرة والقدرة على قيادة السيّارة. إضافة إلى أنّ صديقته الصغيرة التي كانت تقود السيّارة بسرعة جنونيّة كانت هي أيضًا ثملة، لدرجة أنّها لم تلاحظ حاجة السيّارة إلى الوقود، ومع ذلك فقد صحا بيلتون عند توقّف السيّارة المفاجئ، وسط مكان منعزل وخال، فقال لصديقته: "إنّ أحوالنا هي التي ستطير وتذهب بسبب هذا العطل".

إنّ الوقت الذي أمضاه بيلتون في البحث عن البنزين، جعل الموعد المتّفق عليه ليكون بقرب الهاتف يمضي منذ فترة طويلة. لذا لم يذهب رونالد بيلتون لاستلام ثمن بطاقة الطائرة ولا التعليمات المجموعة والموضوعة في مخبإ مجهول، وبالتالي فهو لن يذهب إلى فيينّا، ولن تتمكّن الـ KGB أبدًا من تحذيره، بشكل خاصّ، من اكتشاف أمر "فيتالي يورتشينكو"...

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الصحف الإيطاليّة هي فقط التي تحدّثت، خلال تلك الفترة، عن اختفاء العميل السوفياتي، ولكن دون أن تنشر صورة له. لذا لم يكن بإمكان رونالد بيلتون الشكّ أو التخمين في المكيدة التي يدبّرها له عملاء الـ FBI.

لم تتسبّب عمليّة توقيف عميل الـ NSA السابق رونالد بيلتون بأيّ مشاكل... إذ قام رجال الشرطة الفدراليّة بمحاولة الاتّصال المباشر به، وذلك بعد وضع أجهزة التنصّت الهاتفيّة في كلّ من منزله ومكتبه، واستدعوه بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني - نوفمبر إلى "هيلتون أنابوليس" بهدف مناقشة أمر على غاية من الأهميّة والخطورة، دون إعطائه أيّ تفاصيل أخرى.

قامت الـ FBI بدراسة طريقة القبض على بيلتون بكلّ عناية ودقّة، بحيث تمّ استدعاؤه يوم الأحد، وهو يوم إجازة، ممّا لا يمكّن بيلتون من اللجوء إلى الاعتذار عن القدوم بحجّة العمل. كما تمّ تحديد مكان الموعد في واحد من كبرى فنادق المدينة...

إضافة إلى قيام رجال الشرطة بالإسراف والتبذير هناك، لدرجة أنّهم حجزوا عدّة غرف في فندق هيلتون، تلك الغرف التي تحوّلت إلى قاعات مشابهة للمقرّ العام للـFBI بكلّ طاقمها الوظيفيّ الضروريّ. وتمّ أيضًا إعادة ترتيب أثاث الغرفة المخصّصة للاستجواب، بحيث أبعد عن النافذة الكرسيّ المخصّص لجلوس بيلتون عليه، بهدف تجنّب غضب المتّهم وثورته وبالتالي رمي نفسه من النافذة. أمّا ضيافة هذه الجلسة فهي عبارة عن قهوة مع فطائر بسيطة، توضع داخل آنية ذهبيّة، إذ كان الفدراليّون يعلمون بوجوب ملاحظة بيلتون ومسايرته. وهكذا نجح الفدراليّون في اكتساب ثقة بيلتون ليبدأوا، في ما بعد، بالكشف أمامه رويدًا رويدًا عن المعلومات التي ستقودهم بالضرورة إلى القضاء عليه. هذا وقد تركوا المجال أمامه مفتوحًا، خلال الاستجواب، للخروج والذهاب لمقابلة صديقته الصغيرة في الموعد المحدّد بينهما، ليعود بعد مرور عدّة ساعات، ويتمّم عمليّة الاستجواب.

كان بيلتون شديد الثقة بنفسه، لدرجة أنّه قال لهم، في بداية الحديث: "ليس لديكم شيء ضدّي". وكان معه حقّ في كلامه هذا! إذ إنّ شاهد الإثبات الوحيد ضدّه هو فيتالي يورتشينكو، الذي كان غادر للتوّ متوجّهًا إلى الشرق...

لاحظ رونالد بيلتون متأخّرًا أنّه قدّم هو نفسه المعلومات للـ FBI والأدلّة عليه... أي أنّه لفّ حبل المشنقة حول عنقه... ولكنّه تمكّن بعد ذلك، وأثناء مثوله أمام محكمة "بالتيمور" الفدراليّة، المكلّفة بالحكم والبتّ في التهمة الموجّهة إليه، من التأكيد على أنّ اعترافاته وأقواله أُخذت دون علم منه، إذ إنّه كان متعاطيًا المخدّرات بكميّات كبيرة، إضافة إلى تناوله كميّات من الكحول، وذلك قبل استجواب رجال الشرطة له، وبذلك تكون حقوقه قد تعرّضت للإهانة والسخرية، وهذا ما سيفقده كلّ شيء.

ولكنّ محكمة بالتيمور الفدراليّة أدانت رونالد بيلتون في الخامس من شهر حزيران ـ يونيو ١٩٨٦ بتهمة تحالفه وتجسّسه لصالح العدوّ. ويكون العقاب في مثل هذه الجريمة من أشدّ الأحكام قساوة: الحكم بالسجن مدى الحياة ثلاث مرّات[١]...

---

١ ـ كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة، ص٢٢٧ ـ ٢٤٧.

إرنست هيمنغواي: صاحب تسمية "الطابور الخامس"

على الرغم من ذلك الاحترام الشديد الذي كان يظهره تجاه قدرات ومواهب أحد جواسيسه النافعين الرئيسيين، فإن الكولونيل "جون ثوماسون"، من مكتب الاستخبارات البحرية، اضطر إلى أن يقول له في هذه المرة، إنه على خطأ تام. وقال مخاطبًا إرنست هيمنغواي: "لا، ليس من الممكن، فليست هناك أيّ إمكانية في أن تكون البحرية اليابانية حمقاء إلى هذا الحد حتى تقوم بمباغتة القوات البحرية الأميركية، فهذا يُعد انتحارًا، واليابانيون ليسوا شعبًا غبيًّا".

إختلف هيمنغواي بشدة معه في هذا الرأي، ولكنه لم يجادل أكثر من ذلك، وقبل كل شيء، فإن ثوماسون كان ضابطًا يحمل أوسمة رفيعة تقديرًا لخدماته التي امتدت إلى ٢٠ عامًا، منها ١٠ أعوام في مكتب الاستخبارات البحرية. ولو قال ثوماسون إنه ليست هناك إمكانية لاحتمالات قيام اليابانيين بمهاجمة الولايات المتحدة، فهو عندئذٍ الرجل الذي يفترض فيه أن يعرف. إنه المحترف، بينما هيمنغواي ما زال جاسوسًا هاويًا. ومع هذا، فإن هيمنغواي شعر بالانزعاج، ذلك أن كل شيء سمعه في ذلك الربيع من ١٩٤١ خلال جولته إلى الشرق الأقصى كان يشير في اتجاه هجوم ياباني وشيك ضد البحرية الأميركية.

كان الهجوم على بيرل هاربور بعد بضعة شهور دلالة على أن هيمنغواي كان على صواب، ولكنه لم يتذكر ولم يكتب عن هذه المرحلة من حياته. ولم يفعل ذلك

أيضًا الكثيرون من الأميركيين الذين، مثل هيمنغواي، جرى تجنيدهم قبل الحرب العالمية الثانية للخدمة كجواسيس هواة لصالح بلدهم انطلاقًا من حبهم للوطن. وفي تلك الأزمنة البسيطة، لم يكن الأميركيون يرون أي خطأ في تضافر جهود المحترفين مع جهود الهواة في جمع المعلومات الاستخباراتية لخدمة مؤسسات الاستخبارات الأميركية الناشئة.

وإلى حد ما، فإن استعداد هيمنغواي للقيام بممارسة هواية التجسس لصالح بلده جاء من ذاته الجديرة بالاعتبار. وتخيل هيمنغواي نفسه واحدًا من الجواسيس السوبر، وهو دور بدأ في القيام به أثناء جولاته في إسبانيا خلال الحرب الأهلية. ومن خلال ارتباطاته الرومانسية مع عالم العلاقات الغرامية السرية في العاصمة مدريد المليئة بشبكات التجسس المختلفة، قام هيمنغواي بتمرير قصاصات صغيرة من المعلومات الاستخباراتية إلى صديقه في مكتب الاستخبارات البحرية. وكانت معلومات متدنية الدرجة بالطبع، ولكن هيمنغواي زعم في وقت لاحق أنه هو الذي اخترع مصطلح "الطابور الخامس"، الذي يمثل افتراضًا طابورًا خفيًّا من جواسيس العدو يتحرك في مسيرة في مقدمة أربعة طوابير من قوات الجيش التقليدية. وذهب إلى حد تأليف مسرحية "الطابور الخامس"، وجعل الشخصية الرئيسية فيها، الجاسوس السوبر، كاتب المسرحية نفسه، ولكن بصورة مبطنة إلى حد ما.

وفي وقت لاحق، طلب ثوماسون، من مكتب الاستخبارات البحرية، وهو صديق قديم، من همينغواي تزويده بأيّ معلومات استخباراتية يصادفها أثناء جولاته إلى أنحاء العالم المختلفة. وكان ثوماسون يقدر تقديرًا كبيرًا المعلومات الاستخباراتية التي يقوم بتزويدها صديقة المشهور جدًا، ولكنه تعلم أن يكون صبورًا في كل مرة يأتي بها هيمنغواي إلى واشنطن لتقديم معلوماته، ذلك أن المؤلف كان يصر دائمًا على إضافة

تحليلات مطولة في شرح معنى كلمة الاستخبارات. وفي الغالب، كانت استنتاجات هيمنغواي خاطئة، مع أنّه كان هناك بعض الاستثناءات، مثل استنتاجه في أوائل ١٩٤١ أن اليابانيين كانوا على وشك القيام بهجوم ضد الولايات المتحدة.

ولكن هيمنغواي لم يكن يشعر بالرضا تجاه معلوماته الاستخباراتية، ولذلك قرر قطع اتصالاته مع مكتب الاستخبارات البحرية وتقطيب الجبين والعبوس في بيته في هافانا. وبدافع من رغبته الملحة في القيام بواجبه الوطني، وهو في سن الـ ٤٢ عامًا... وكان متقدمًا في السن للخدمة العسكرية، فقد ذهب مفتشًا عن أي نوع من التجسس يمكن القيام به. وظن هيمنغواي أنه يمكنه العثور عليه بين مئات الآلاف من اللاجئين الإسبان الذين جاؤوا هاربين إلى الجزيرة بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. وكما أبلغ في وقت لاحق صديقه سبرويل برادن، سفير الولايات المتحدة لدى كوبا وقتئذٍ، فهناك على الأقل ٢٠،٠٠٠ شخص من المتعاطفين مع الفاشيين من بين هؤلاء اللاجئين، وهم "طابور خامس" كبير يجلسون منتظرين إشارة من برلين للنهوض والاستيلاء على الجزيرة. وبالإضافة إلى ذلك، زعم هيمنغواي أنه عرف أن هؤلاء الفاشستيين يتعاونون على نحو وثيق مع ركاب القوارب الألمان الذين يجوبون الشواطئ الساحلية.

إعتقد "برادن"، المحنك ورفيع الثقافة، أن هذا محض هراء، وقام بتجنيد هيمنغواي، بالنيابة عن وكالة الاستخبارات في وزارة الخارجية، لتكوين شبكة من اللاجئين الإسبان الذين يثق بهم. وكان من شأن هذا اكتشاف الفاشستيين من بين اللاجئين، وفي الوقت نفسه تمكين هيمنغواي من اختيار الكثيرين منهم للقيام بعملية جريئة لاصطياد ركاب القوارب، الأمر الذي كان يتطلب استخدام قارب الصيد الشهير "بيلر" الذي يبلغ طوله ٤٠ قدمًا ويملكه هيمنغواي نفسه. وقام هيمنغواي بتجنيد شبكة

من ٢٦ شخصًا من عناصر مختلفة من حثالة كوبا، من مهربي الأسلحة والذخيرة والقوادين والعاهرات والساقين في الحانات والمستهترين المنغمسين في الملذات والمقامرين ومجموعة قليلة من رفاق المؤلف في الشرب. وبحصولهم على مبالغ نقدية متواضعة مقابل إزعاجهم، أطلق هيمنغواي عليهم جميعًا "أصدقاء بابا كروك" تيمنًا بكنيته المفضلة.

لم يقدم "أصدقاء بابا كروك" أي إسهام في عالم التجسس، ولكنهم قاموا بالفعل على نحو غير مقصود بدور في قرار هام من جانب الاستخبارات الأميركية: بسبب هيمنغواي وأصدقائه بالدرجة الأولى، تقرّر نهائيًا عدم تجنيد الهواة بعد ذلك في أيّ عملية استخباراتية هامة. وحين النظر إلى سجل "أصدقاء كروك"، فليس من الصعب معرفة الأسباب التي أدت إلى مثل هذا القرار.

إذا كان الدرس المستفاد من "أصدقاء كروك" في نظر الاستخبارات الأميركية هو عقد العزم على عدم تكرار التجربة المرة، فإن هيمنغواي تعلم شيئًا آخر: تلك الرحلة البحرية الأخيرة للقارب "بيلر" في سنة ١٩٤٣، بما فيها المعركة البطولية مع السمكة الأوقيانوسية الضخمة، أدت إلى حبكة رواية "العجوز والبحر"، التي فاز فيها هيمنغواي بجائزة نوبل في الأدب. وهذه الجائزة كانت محلاً لملاحظة قصيرة بدون تعليق في ملف هيمنغواي في مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ ، ص٣٦٣ ـ ٣٦٦.

غراهام غرين: الأديب الجاسوس السّاخر

من خلال محاولة لعدم الظهور بمظهر الرجل الذي أصابه السأم، جلس الكاتب المعروف "غراهام غرين" في غرفة الدراسة مع مفكرين آخرين مثله يستمعون إلى محاضرة حول تعقيدات الحبر غير المنظور. ولم يكن هذا هو ما يأمل به غراهام غرين، غير أنه في ذلك العام الأسود ١٩٤١، تطوع لتقديم كل ما يستطيع لخدمة بلده. وهكذا، أصبح صدق عزيمته محلاً للامتحان.

وبالنظر إلى كونه غير لائق صحيًا للخدمة العسكرية، فإن هذا المؤلف البالغ من العمر ٣٦ عامًا عند اندلاع الحرب، قرر الانضمام إلى وزارة الإعلام. ولكنه لم يكن راضيًا عن الوظيفة المكتبية... ولأنه كان توّاقًا إلى الانهماك على نحو أكثر إيجابية في الحرب، التفت إلى اقتراح من أخته إليزابيث، التي كانت تعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بأنه من الأفضل، والأشد إثارة، استخدام مواهبه في أعمال الجهاز. وافتراضًا منه أن عالم جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 الحقيقي يماثل عالم الخيال في رواياته، فإن غرين رأى أن يقدم طلبًا للانضمام إلى الجهاز.

وكما كان عليه الأمر في تلك الأيام في شبكة أصحاب السلطة المحافظين التي تمثلت في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، فلم يكن غرين يواجه أي صعوبات في اجتياز المقابلة الأمنية المثيرة للسخرية. وعلى الرغم من حقيقة أنه كان عضوًا في

الحزب الشيوعي خلال سنوات الدراسة في أوكسفورد، فلم يواجه غرين أيّ مشكلة في ما يتصل بخلفيته. وما كان يهم هو معرفته الشخصية مع كل واحد يستحق المعرفة في الجهاز، أخته، وإلى حد كبير صداقته الشخصية الوثيقة مع مسؤول يدعى "هارولد فيلبي".

كان غرين واحدًا من بين عدد من المفكرين الذين تقرر تجنيدهم في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. وكان المسؤولون في الجهاز يميلون إلى عدم الثقة بهذه الأصناف، ولكن في ظل ظروف الحرب التي استدعت الاستعانة بأكبر عدد ممكن من العملاء، فإنهم أبدوا استعدادًا لتليين قناعاتهم قليلاً. ولم يكن المسؤولون يعلقون آمالاً كبيرة، وقرروا إعطاء هؤلاء المفكرين دورة تدريبية خاصة ومكثفة بدلاً من الالتزام بنظام التدريب السائد، ثم إرسالهم إلى مناطق هادئة من العالم حيث لا يمكنهم معرفة الطريق.

وبناء عليه، وجد غرين نفسه في تلك الدورة التدريبية المختصرة يستمع إلى محاضرات مطولة من بعض العملاء المخضرمين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 حول أسرار الحبر غير المنظور. ومثلهم كمثل غرين، فإن المفكرين الآخرين، ومن بينهم وجوه لامعة مثل "مالكولم موغريدج"، وجدوا المحاضرة تافهة. هل يتوقع جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 من عملائه أن يحملوا معهم "مرطبانات" الحبر غير المنظور لكتابة رسائل إلى مراكز القيادة في لندن كأنهم ما زالوا يعيشون في زمن "ماتا هاري"؟ وعند نقطة معينة، سأل أحد الطلبة المدرب عمّا يمكن عمله في حالة نفاذ إمدادات هذا الحبر المنظور. وأجاب المدرب: ليست هناك مشكلة، وذكر عددًا من البدائل المؤقتة، من بينها، كما أشار غرين في وقت لاحق، وصفة مثيرة للقرف تتكون من لعاب الإنسان وروث الحمام.

وانتهت الدورة التدريبية، وتقرر إرسال غرين إلى محطة نائية تابعة لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في "فري تاون – سيراليون". وحين وصف هذا البلد الأفريقي الصغير بأنه موقع أمامي دائم، فإن هذا الوصف يرقى إلى مرتبة المبالغة في أهميته. وكما اكتشف غرين، فإن فري تاون تتميز بعناصر الإثارة والحماسة الملازمة لسباق السلاحف. ومع ذلك، فهي تطل على خطوط الملاحة الهامة على امتداد الساحل الأفريقي، ولذلك فإن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 أراد شخصًا هناك من أجل مراقبة أيّ محاولة من جانب الألمان للتجسس على قوافل السفن المارة ونقل تلك المعلومات الاستخباراتية إلى ركاب القوارب المترصدين من الألمان.

لم تكن مهمة غرين في فري تاون تنطوي على عنصر الإثارة أو الرغبة الملحة في العمل. وعكف غرين على التخلص من السأم من خلال عدد من المداعبات السمجة، الأمر الذي أزعج رؤساءه في لندن. وتحت غطاء مفتش لدى اللجنة البريطانية للتجارة في فري تاون، كان غرين يضمّن تقاريره تلميحات أدبية غامضة وتوريات لفظية ومقتطفات من رواياته. وذات مرة، حينما جرى استدعاؤه إلى اجتماع لم يكن قادرًا على حضوره، أرسل غرين برقية إلى مراكز القيادة: "وكما قال المخصي، فلا أستطيع أن أكرر... لا أستطيع الحضور". وكما هي العادة، فإن غرين وقّع البرقية بإسمه الرمزي: ٥٩٢٠٠، ولكنه في مناسبات أخرى كان يوقع إسمه بأسماء شخصيات مختلفة من رواياته الكلاسيكية.

مع حلول عام ١٩٤٤، بعد زوال أخطار التهديدات التي كان يشكلها ركاب القوارب الألمان، وبعدما أصبح بدون عمل بصورة فعلية، بدأ غرين يتخذ الإجراءات الضرورية للانتقال إلى دائرة الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية. ومن جانبه، قام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بتسهيل انتقاله في غمرة شعور بالتحرر من توتر

الأعصاب. ومن خلال عملية ذرف الدموع على هؤلاء المفكرين المزعجين، أخذ جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 على نفسه عهدًا بعدم استخدام مثل هؤلاء الأشخاص كعملاء مرة أخرى.

وفي وقت لاحق، تذكر غرين خدمته في زمن الحرب مع جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، بشيء من الرعب، ولكنه تمكن من الأخذ بالثأر بعد عقدين من الحرب من خلال تأليف رواية هجائية كلاسيكية "رجلنا في هافانا". وهذه الرواية جرى تحويلها في وقت لاحق إلى فيلم سينمائي رائع. وكانت هذه الرواية، وهي من الروايات الأكثر رواجًا، التي تحدثت عن بائع مكانس كهربائية بريطاني في هافانا مجند في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، انتزعت ضحكات هيستيرية من قلوب القراء البريطانيين، ولكن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لم يضحك. وفي حقيقة الأمر، فإن مؤسسة الاستخبارات البريطانية كانت غاضبة جدًا، وكانت هناك خطط جادة جارية في مجراها لاتهام غرين بمخالفات وفق قانون الأسرار الرسمية في بريطانيا. ولكن الرؤوس العالقة تدخلت في نهاية الأمر، وألمحت إلى أن احتمالات الجدل في المحكمة حول الانتهاكات الأمنية، وعلى الأخص ما جاء في الرواية حول بقبقة المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، يمكن أن تقنع الناس بأن مثل هذه الشخصيات الكاريكاتورية شخصيات حقيقية. وهكذا، جرى إسقاط خطط إقامة الدعوى[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٣٦٧ ـ ٣٧٠.

"نوغان هاند" مصرف ليس كباقي المصارف

أثناء تنفيذ اثنين من رجال الشرطة الأستراليّة مهمّتهما الدوريّة في الساعة الرابعة من صباح يوم الأحد الواقع فيه ٢٧ كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٠، استدلاّ على وجود سيّارة "مرسيدس سيدان"، متوقّفة داخل معسكر، وهي تشتعل بالنيران، متطرّفة على محطّة توقّف خاصة بأوتوستراد يبعد ١٠٠ كلم عن مدينة "سيدني". وسرعان ما اكتشف رجال الشرطة وجود جثّة رجل ممدّد داخل السيّارة مع وجود رصاصة أو أكثر، اخترقت رأسه، إذ لم يتمكّن تشريح الجثّة من تحديد العدد الصحيح للرصاصات، وكان هناك بندقيّة صيد ممدّدة إلى جانب الجثّة، إضافة إلى وجود إنجيل مفتوح الصفحات، وتحوي الورقة الإضافيّة فيه على خربشة، يُقرأ عليها الكلمات التالية:

"أعتقد بأنّ هذا اليوم سيكون يومًا عظيمًا، ساحرًا مدهشًا... إنّه معي الآن... يسير المسيح... تخيّلوا وجود ١٠٠ ألف عميل في جميع أنحاء العالم... إلجأوا إلى الصلوات... إنّ خصمنا هو الربّ في DNH وشركاه".

أمّا ما لفت نظر رجلَي الشرطة، ودفعهما إلى أخذ الأمر على محمل الجدّ، فهو عثورهما على بطاقة زيارة داخل جيب الجثّة، تحمل إسم "وليام كولبي" المدير السابق للمخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، واكتشافهما أيضًا وجود يد ما قامت بتدوين المراحل المختلفة لسفريّات العمل على الوجه الخلفي لهذه البطاقة، تلك المهمّات التي

كان على وليام كولبي أن يقوم بها في آسيا، خلال الشهر التالي. هذا ولم يكن وجود هذه البطاقة هناك من باب الصدفة، إذ إنّ كولبي كان يمثّل أيضًا محامي القتيل.

لقد عثر رجال الشرطة من جديد على إسم كولبي لدى فتحهم للإنجيل على الصفحة ٢٥٢، حيث الإسم مكتوب، هذه المرّة، على قصاصة من ورق اللف، مرفقة باسم سياسيّ أميركيّ ذائع الصيت، هو "بوب ويلسون"، ممثّل الحزب الجمهوري في لجنة القوى المسلحّة التابعة للبرلمان.

كانت هذه الجريمة، بلا ريب، بمثابة سرعة للقطات فيلم يتحدّث عن الجاسوسيّة، ومع ذلك، لم يكن لدى أيّ "سيناريست" ما يكفي من الخيال لحياكة قصّة تدور حول أحداث ستتبع اكتشاف جثّة "فرانك نوغان"، الشريك في ملكيّة بنك "نوغان ـ هاند"، تلك المؤسّسة التي يتفرّع عنها فروع تتوزّع في ٢٢ دولة تتمركز فيها حياكة المؤامرات الشديدة التعقيد.

فمَن كان بإمكانه، في الحقيقة، تخيّل عدم تردّد مؤسّسة محترمة مثل نوغان هاند في تنظيم صفقات من تجارة الهيروبين والأسلحة واغتنام الفرصة بإبرام صفقات من تجارة العاج والطيور النادرة؟ والعمل حتّى على تزوير المال والاشتراك في الانقلابات السياسيّة؟

هذا وستتّضح حماقة المحقّقين الأستراليّين لدى اكتشافهم، بهدف الإحاطة بكلّ شيء، أنّ مكاتب البنك الخاصّة جدًّا، يرأسها زعماء سابقون من الجيش الأميركي ومن ضبّاط الصفّ في المخابرات السريّة.

توفّي فرانك نوغان عن عمر يناهز ٣٧ عامًا، وهو يشغل منصب رئيس بنك، ويعاني من أزمة مصيريّة شديدة الخطورة تكمن في تعرّضه لفقدان ملايين الدولارات،

حيث كان يرى عشرات منها، والعائدة لبنك نوغان هاند، تذهب للغالبيّة العظمى من العسكريّين ورجال الاستخبارات الأميركيّة، وقد سبق أن وُجّهت إلى فرانك نوغان تهم القيام بعمليّات اختلاس أموال وعائدات الطبقة الراقية، حيث أنّه اختلس مبلغ ١,٦ مليون دولار من صناديق نوغان هاند. فهو بذلك يختلس بيد ما يحصّله من دين باليد الأخرى.

وها هو فرانك، قبل العثور عليه مقتولاً، يعدّ العدّة لشراء منزل يزيد ثمنه عن مليونَي دولار.

لقد استبعد رجال الشرطة مع بداية التحقيق فكرة الانتحار. والتفسير لديهم لما حدث، هو أنّ البندقيّة لم تعد، بالتأكيد، إلى هذا المكان حيث جُمعت ووضعت إلى جانبه بعد إطلاق الرصاصة في رأسه. إذًا، فقد قتل الرجل حتمًا من قبل أعداء له طمعوا في سرقته أو ابتزازه.

تُرى، هل انتشر خبر وفاة فرانك نوغان بهذه السرعة، لدرجة أنّ رجال نوغان هاند توقّفوا، في جميع أنحاء العالم، عن عملهم وإبرام صفقاتهم... وقد طلب الجنرال "روي ج. مانور" الرئيس السابق للقوّات الأميركيّة في كلّ من آسيا والمحيط الهادي والمسؤول عن مكتب نوغان هاند في الفيليبيّن من ملحقه الصحافي مراقبة الإعلام. أمّا الأميرال "ب. بودي ياتس"، الرئيس السابق للمشاريع الاستراتيجيّة الخاصّة بالقوّات الأميركيّة في كلّ من آسيا والمحيط الهادي، ورئيس بنك نوغان هاند، فتخلّى، عند سماعه النبأ، عن أيّ عمل، قاطعًا إجازته في فيرجينيا، ليغادرها عائدًا إلى سيدني حيث استقبله في المطار "ميشيل هاند"، نائب الرئيس، وهو يضع على رأسه قبّعة خضراء مزخرفة، كما كان يفعل الجندي خلال حرب فيتنام، تلك الحرب الذي ذاع فيها صيت ميشيل هاند كجندي استخبارات.

إستقبل الأخير الأوّل في المطار حيث كان هو أيضًا قادمًا للتوّ من لندن، وعاد الإثنان إلى البنك، حيث تحادثا واتّفقا على إخفاء الأوراق الهامّة... وقد أكّد شهود عيّان على توصّل كلّ من الأميرال والجندي القديم، إلى ترصيص مئات من الصناديق والملفّات. ولم يكن، حينئذ، على الشرطة الأستراليّة إلاّ أن تتمكّن من إعادة تشكيل عمليّات هذا البنك بطريقة تختلف عن غيرها من العمليّات.

لقد كان من الضروري القيام بعدّة رحلات سفر لمعرفة كلّ ما يدور ويتواجد خلف دكّان الجزارة التابع لملازم قديم في فيتنام.

لم تروِ لنا القصّة مصير الملفّات... في حين تدفع كلّ المعطيات إلى التفكير بأنّ مسؤولي نوغان هاند السابقين توصّلوا إلى استخدام هذه الملفّات، بعد استبعاد موضوع إتلافها، بدراية ومعرفة جيّدتين.

بعد مضيّ فترة من الزمن، تمّ القضاء على هذا البنك. وبذلك بدأت الفضيحة. ولكن لم يتوصّل أحد من الناس إلى إدراك كيفيّة التمكّن من دفع عدد ضخم من حرس القوّات الأميركيّة وجنود الاستخبارات إلى العمل في القضاء على هذه الشركة الماليّة. أمّا بالنسبة للمخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، فقد استبعدت، بكلّ فظاظة، أيّ اشتراك لها في هذا العمل، كما أكّدت محافظة الولاية في أميركا على أنّ نوغان هاند لا يخفي، بأيّ حال من الأحوال، أيّ عمليّة سريّة خاصّة بالحكومة الأميركيّة على أرض بلد حليف. مع ذلك، كان هناك، في أستراليا، الكثير ممّن يظنّون العكس.

كان ميشيل هاند قد قام بتسيير نشاطه في جنوب شرق آسيا، مع بداية السبعينات، من خلال وجوده في أستراليا. إنّه ذاك الجنديّ المنتخب من بين جنود الجيش الأميركي الذي كان في فيتنام، وها هو يوظّف، بعد ذلك، في شركة طيران المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA المسمّاة "إير أميركان"، حيث أضيف إلى نشاطه في الخطوط الجويّة،

تجربة أغنى، ألا وهي عقد صفقات تجارة الهيروين مع المجموعات الجبليّة المحليّة. ولم يكن ميشيل هاند يرتبط، رغم كلّ ذلك، بأيّ صلة بالجيش الأميركي، ويبدو أنّه لم يكن منزعجًا إلاّ عند قيامه بأعمال تعتبر، بصورة أو بأخرى، قانونيّة. وهكذا انضمّ ميشيل هاند إلى شراكة فرانك نوغان، واستثمر الإثنان أموالهما، في بادئ الأمر، ضمن محطّة حمّامات قريبة من "غراند بارييز"، واشترك الإثنان، خلال الفترة نفسها، في مضاربة خاصّة بأراضي المناجم، ونجحا، ظاهريًّا، في استثمارهما هذا، باعتبار أنّهما أعادا توظيف أولى أرباحهما في تأسيس بنك "نوغان هاند"، وبذلك اكتمل الحلم الصناعي وبدأ كابوس عالم الاستخبارات...

أخذ بنك "نوغان هاند" يعرف، حسب رأي الخبراء، تزايدًا مدهشًا، وقد حقّق رأسمال هذا البنك في البداية، ربحًا مقداره مليون من الدولارات. ووصل هذا الرقم، بعد مرور أربع سنوات، إلى مليار دولار. وبذلك بدأ البنك يطوّر علاقاته واتّصالاته من خلال مشاركته في التواجد ضمن ١٧ شركة أخرى، ومن خلال افتتاحه المكاتب ضمن ٢٠ بلدًا.

بالمقابل، أخذ بنك نوغان هاند يوظّف عددًا كبيرًا من جنود الاستخبارات الأميركيّة السابقين، إضافة إلى جنود العمليّات السريّة التي نفّذتها المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA في جنوب شرق آسيا. ومن بين تلك الفئة الوظيفيّة الجديدة نجد الأميرال "إيرل بات" والجنرالات "إدوين بلاك"، و"إيريل كوك"، و"لوروي مانور"، و"ريتشارد ف. سيكورد"، إضافة إلى مسؤولين سابقين من المخابرات المركزيّة الأميركيّة يعملون إلى جانبهم أمثال "تيد شيكلي" الذي كان يأتي بمرتبة الشخصيّة الثانية في الاستخبارات السريّة للوكالة... وها هو بنك نوغان هاند يضمّ بعد مرور عدّة سنوات على تأسيسه إلى جهازه الإداريّ، كلّ ضابط يحمل رتبة أركان حرب في القوّات الأميركيّة

الموجودة في المحيط الهادي، إضافة إلى جميع الأسماء الذائعة الصيت والممثّلة للمخابرات السريّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. وبرز "موريس برنارد هوتون بيرني" من بين الموظّفين الأوائل في هذا البنك... إنّه ذلك الجندي القديم في المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، الذي عرف، من خلال صداقته لميشيل هاند، إرتقاء سريعًا في السلّم الوظيفيّ، حتّى وصل إلى استلام إدارة فرع بنك نوغان هاند في واحد من البلدان الهامّة. والجدير بالذكر أنّ المعرفة بين "بيرني" وميشال هاند، تعود إلى تاريخ قديم، إذ كان الإثنان قد وصلا معًا عام ١٩٦٧ إلى أستراليا خلال الفترة التي أصبحت فيها سيدني مركزًا للاستراحة والاستجمام بالنسبة للمجموعات الأميركيّة التي خاضت الحرب في فييتنام.

وهكذا بدأ هوتون، خلال الفترة التي أخذ فيها ميشيل هاند بتأسيس أمبراطوريّته، بالسيطرة على مدينة سيدني بأكملها، أو بالأحرى على أحيائها الفقيرة، حيث افتتح مجموعة من المطاعم والبارات داخل حيّ "كينغر كروس" المحاط بالسمعة السيّئة، كما أصبحت هذه الأحياء مركزًا هامًّا بالنسبة لآلاف الجنود الأميركيّين، وذلك بتأثير قوّة نفوذ رجال الأعمال فيها.

وتمضي الأمور بسرعة مذهلة، حتّى أصبحت مطاعم وبارات هوتون تستخدم كأماكن لقاء مجموعة موظّفي المخابرات الأميركيّة وأعضاء المخابرات السريّة الأوستراليّة (منظّمة الاستخبارات السريّة الأستراليّة ASIO) والشخصيّات المشهورة من طبقة لصوص المدينة. وهكذا أصبح بالإمكان مصادفة "جون دنيس" رئيس محطّة الـ CIA في أستراليا، داخل مطعم "تكساس تافيرن" الذي لم يكن يخفي على الإطلاق علاقات صداقته مع هوتون، أو حتّى مع "ليو كارتر" رئيس الـ ASIO في سيدني. وبذلك توصّل هوتون من خلال علاقاته تلك، إلى الاتّصال ببعض الشخصيّات الهامّة

المحليّة التي أتاحت أمامه المجال ليتعرّف على "سير روبيرت أسكين" حاكم مقاطعة أستراليا في "غال الجديدة" جنوبًا.

ستصبح صداقات البار والمطعم تلك محدّدة تمامًا، وذلك لتعاون كلّ من بيرني وبنك نوغان هاند معًا، بعد مرور عدّة سنوات.

***

ترعرع رجال نوغان هاند على حبّ الأسرار، متّبعين بذلك منهج مدرسة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، وأصبحت التلكسات والرسائل المتداولة بين المكاتب والفروع، تكتب نظاميًّا بشكل رموز، بما فيها حتّى المكالمات الهاتفيّة، حيث تلاحظ عبارة "تمزّق الورقة بعد الورقة" تتصدّر الوثائق الشديدة الأهميّة.

هذا وتعيّن أسماء عملاء البنك بواسطة أرقام رمزيّة، لذا فقد احتاج المحقّقون، لعدّة أشهر طويلة ريثما اكتشفوا أنّ كلمة "الشعير"، على سبيل المثال، التي لم تكن إلاّ نوعًا من المزروعات، هي الأساس في إبرام العديد من اتّفاقيّات الشركة، إذ أنّها تستخدم للدلالة على الفرنك السويسري، في حين كان الدولار يرمز له بكلمة "الحبّ"، أمّا قطعة النقد البرتغاليّة والمسمّاة "أسكودو" فيرمز لها باسم "عنب"...

لقد أدّى هذا النوع من الأسرار إلى تعقيد مهمّة مندوبي المصرف، الذين استلموا رئاسة البنك بعد موت فرانك نوغان إلى الاستعانة بمحتالي البنك، الذين أخذوا معهم عند مغادرتهم حوالى ٥٠ مليون دولار...

كان من الصعوبة بمكان معرفة تفاصيل العمليّات السريّة والصفقات التجاريّة التي تختبئ وراء واجهة هذا البنك. وقد ظهر، رغم ذلك، بعض الشهود الذين أدلوا بشهاداتهم أمام لجنة التحقيق في البرلمان، إذ أنّهم توصّلوا إلى تخيّل طبيعة نشاطات

رجال نوغان هاند. وها هو "جو فلين"، الجندي السابق في المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، يؤكّد على تجنيده من قبل ميشيل هاند عام ١٩٧٣ لمهمّة وضع أجهزة تتصنّت على المكالمات الهاتفيّة التي تجري ضمن غرفة نوم رئيس وزراء أستراليا، آنذاك، "غاوف واتلام"، مستغلاً فرصة انشغاله بقضاء الإجازة في مدينة "كوينسلاند". ويعرف جو فلين أيضًا بأنّه يزوّر، بناء على طلب ميشيل هاند، وثائق خاصّة بأعضاء حكومة وايتلام، تلك الوثائق التي تسبّبت خلال تلك الحقبة بإحداث فضيحة وطنيّة هامّة، من خلال قيام جو فلين بتسليمها للصحافة. أمّا ما تبقّى، فيترك التفكير بأنّه كان لنوغان هاند دور حيوي في سقوط حكومة وايتلام العمّاليّة، وذلك بتنظيم عمليّات تخريبيّة تعتبر مع غيرها من العمليّات جزءًا عاديًا من عمليّات الـ CIA.

كان هناك، في الواقع، أكثر من سبب أمام الحكومة الأميركيّة، وخصوصًا الـCIA لمعارضة حكومة وايتلام العمّاليّة، إذ كان وضع غوف وايتلام، وفق اصطلاحات السياسة الخارجيّة، غير مرغوب فيه من قبل الأميركيّين. إذ أنّ المسؤول العمّالي كان مستعجلاً، فور وصوله إلى السلطة، على الاعتراف بكلّ من كوبا وكوريا الشماليّة وألمانيا الشرقيّة، وعلى استقبال مسؤولي منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وعلى الطلب من بلاده الدخول ضمن مجموعة حركة عدم الانحياز.

وكان رئيس الوزراء العمّالي وايتلام يهدّد أيضًا بأن يصبح المحور المركزي للمخابرات الأميركيّة في المنطقة، من خلال سيطرته على قاعدة "باين كاب" في "الايس سبرينغز"، وهي عبارة عن قاعدة موجودة وسط صحراء أستراليا، تتمتّع بحصانة سياسيّة تبدو مزعجة لغوف وايتلام. أمّا اهتمام الـ CIA بهذه القاعدة، فيعود إلى أنّ موقعها الجغرافي يتيح المجال للتجسّس الإلكتروني في كلّ من الصين والاتّحاد السوفياتي. كما يطلق على قاعدة باين كاب الموجودة ضمن منطقة خالية من الغيوم،

عبارة يردّدها مسؤول سابق في الـ CIA يقول فيها: "إنّ القاعدة هي اللاقط المدهش الذي يلتقط جميع التلكسات والاتّصالات الصوتيّة والصفقات التجاريّة، من خلال مجموعة أسلاك المحيط الهادي شبه المتكاملة". وهكذا تنازل غوف وايتلام عن السلطة قبل شهر من إعادة تجديد استئجار قاعدة باين كاب.

أمّا الوكالة الأميركيّة، فقد نفت بشكل مطلق الاتّهام الموجّه ضدّها من حزب العمل، بأنّها لعبت دورًا هامًّا في حدوث هذا الانقلاب الحكوميّ. ولكن ظلّ الشكّ قائمًا، حيث كان هناك في أستراليا عدد من الشخصيّات يعتقد بإمكانيّة قيام نوغاند هاند بالمساهمة بتمرير الاعتمادات الماليّة الهامّة، وذلك بهدف تمويل المرشّحين التابعين للأميركيّين ضدّ وايتلام.

وهكذا فقد أجبر مسؤول سابق في البنك على الاعتراف بأنّ الـ CIA منحت الحزب الليبرالي مبلغ ٢,٤ مليون دولار. وأنّ هذا المبلغ وصل مرورًا ببنك نوغان هاند قبل أن يصل إلى مكتب المسؤول الليبرالي. أمّا موظّفو الـ CIA فقد لجأوا، بهدف تمرير هذه الاعتمادات، إلى طلب المساعدة من واحد من وكلائهم المحترمين ذي المنصب العالي.

***

إنّ أرشيف بنك نوغان هاند موجود في مكان آمن، ومع ذلك، فقد نسي رجال النوغان هاند، عدّة ملفّات، أثناء عمليّات نقل الأوراق بعد وقوع حادث قتل نوغان، هؤلاء الرجال التابعون لحركات المجموعات الموجودة في جنوب شرق آسيا والمنبثقة عن موظّف بريطاني سابق يدعى "تافي"، هو ممثّل النوغان هاند في بانكوك. وتشير هذه الملفّات إلى أنّ البنك كان يقترح على بعض عملائه، شراء سلاح الحرب من صواريخ ودبّابات وطائرات عموديّة.

في حين تشير بعض الأوراق الأخرى إلى وجود مشروع مثير للدهشة حيث يجابه رجال النوغان هاند إمكانيّة نقل سكّان من "ميوس" في كمبوديا إلى هايتي...

تُرى لصالح من تمّت هذه الدراسة؟

إنّه أمر غامض غير أنّه ما لبث أن تمّت ملاحظة استخدام قبائل الميوس، بشكل نظاميّ، خلال الحروب السريّة للـ CIA في جنوب شرق آسيا، وذلك لإنهاء الصفقات الكبرى لتجارة الهيروين في منطقة مثلّث الذهب. وقد ورد في مذكّرة أيضًا ما يثبّت وجود ميشيل هاند في كلّ جنوب أفريقيا وروديسيا عام ١٩٧٥، حيث كان يبيع هناك الأسلحة الثقيلة ومدافع الهاون ويشتري حمولات من العاج.

والأكثر من ذلك، هو عدم وجود أيّ شكّ في اشتراك رجال النوغان هاند في تجارة الهيروين على نطاق واسع جدًا...

أمّا بالنسبة لـ"موراي ستيوارت ريلي"، رجل الشرطة السابق الموقوف بتهمة تهريب الماريجوانا، فيعتبر عميلاً مخلصًا لبنك النوغان هاند، حيث أقام شركاء ريلي علاقات صداقة متينة مع كوادر نافذة في بنك النوغان هاند في سيدني حيث بدؤوا بإيداع الملايين من الدولارات ثمن المخدّرات بهدف استردادها دولارات ورقيّة من واحد من فروع هذا البنك في آسيا، وقد اعترف ريلي أمام لجنة التحقيق الملكيّة المسؤولة عن التحقيق في تجارة المخدّرات، بأنّ بنك النوغان هاند قدّم التسهيلات لتحويل الاعتمادات من هونغ كونغ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة.

وتشير تقارير رجال الشرطة إلى أنّ رجال النوغان هاند يشتركون، بشكل مباشر، في تجارة الهيروين الدوليّة، تلك المادّة التي تشحن، ضمن حاويات، من أستراليا إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. ولكن لن يكون الأمر مفاجئًا، عندما نعلم أنّ

كلاً من ميشيل هاند وفرانك نوغان هما اللذان اتّهمتهما الشرطة الأستراليّة، منذ بداية السبعينات، بأنّهما تاجرا مخدّرات. ووفق ما ذكر "جو فولكمان"، الموظّف السابق في فرقة المشاة الأستراليّة، فإنّ هناك ضغوطات سياسيّة تمارسها شخصيّات مهمّة ومشهورة لمنع أيّ تحقيق حول موضوع تجارة المخدّرات في النوغان هاند. وتظلّ أستراليا، في الحقيقة، واحدة من الأماكن الهامّة الخاصّة بتهريب الهيروين في المنطقة، وواحدة من الدول القليلة الحليفة للولايات المتّحدة الأميركيّة التي لم يكن لديها هوائي للـ DEA، أي لشرطة مكافحة المخدّرات الأميركيّة. ويؤكّد "جو فولكمان" أيضًا على أنّ طائرات الشحن الأميركيّة من طراز "ستار ليفتر"، تهبط بشكل نظامي على مدرج القاعدة السريّة للـ CIA في باين كاب في "آلايس سبرينغز"، وذلك بهدف تفريغ عشرات من أنواع المخدّرات، ضمن صناديق خاصّة بالعتاد العسكري.

تأتي المخدّرات من "المثلّث الذهبي" الآسيوي، حيث يعاد بيع جزء منها في المنطقة نفسها، بينما يستمرّ القسم الآخر في توجّهه إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة.

إنّ القصّة أكبر من صفقة نقل مخدّرات، إذ أنّ الطائرات لا تعود فارغة، بل تقلع وصناديقها مليئة بحمولات من الطيور النادرة... تلك التجارة الغريبة في عالم الطيور التي تقوم على أساس نقل الطيور النادرة متتبّعة أجواء غامضة ومحميّة من الحكومة الأستراليّة. يتمّ شحن الطيور إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث يعاد بيعها من قبل المافيا بثمن باهظ. وقد أدلى جو فولكمان باسم واحد من مخبريه، الذي كان يعتقد أنّه يختفي في الولايات المتّحدة الأميركيّة. أمّا هدف فولكمان من هذا الاعتراف، فهو منح المزيد من الإثباتات للاتّهامات الموجّهة إليه أمام اللجنة الحكوميّة...

ونتيجة لما سبق، فلن نُدهَش عندما يتوصّل رجال الشرطة الأستراليّة، في خضمّ تحقيقهم الدقيق جدًّا بجميع التفاصيل، إلى إثبات مسؤوليّة بنك النوغان هاند عن سلسلة

من الاغتيالات، وهكذا فقد قام النوغان هاند، من خلال رجاله، بالقضاء على ثلاثة مخبرين من الشرطة الأستراليّة، وذلك بناء على طلب نقابة تجارة الهيروين الآسيويّة والمعروفة باسم "مستر آسيا".

***

أخذ المحقّقون الاستراليّون يكتشفون، مع التقدّم في تحقيقاتهم، طبيعة التصرّفات السيّئة لموظّفي المخابرات الأميركيّة على أرضهم. وذلك باعتبار أنّ البنك لم يكن إلاّ جزءًا منبثقًا من مجموعة كبيرة أجنبيّة مؤلّفة من موظّفي الـ CIA السابقين، ومن ضبّاط خونة ورجال أعمال غير هامّين...

وهكذا فقد كان هناك عناصر قدمت من مجموعة الـ"تاسك فورس ١٥٧"، تقوم بمساعدة رجال النوغان هاند الكثيري العدد ظاهريًّا، الذين قاموا بتغيير حكومة وايتلام، بمساعدة مجموعة التاسك فورس ١٥٧، التي هي عبارة عن مجموعة خاصّة من المخابرات السريّة الخاصّة بالبحريّة الأميركيّة ONI، أحدثت بناء على طلب "هنري كيسنجر"، بهدف تنفيذ العمليّات الشديدة الدقّة التي تتعهد الـ CIA بتنفيذها... هذا كلّ ما يمكن قوله... وكان هناك رجل هو صلة الوصل بين مجموعة التاسك فورس ١٥٧ والـ CIA، يدعى "تيد شاكلي"، هو الرجل الثاني خلال العمليّات السريّة للوكالة الخاصّة بالنوغان هاند، في حين كان شاكلي سابقًا، يتزعّم قيادة فصيلة مركز "شرق آسيا" الذي أُطلق عليه في ما بعد إسم "شرق هيميفير العالم الجديد"...

كان تيد شاكلي على علاقة وثيقة مع معظم زعماء مجموعة التاسك فورس ١٥٧ وخاصّة "إدوين ب. ويلسون"، الضابط السابق في الـ CIA، لدرجة أنّهما أصبحا شريكين بعد حلّ مجموعة التاسك فورس ١٥٧، عام ١٩٧٧.

كان إدوين ويلسون من العاملين بعيدًا عن عين الزبون، ممّا يسبّب له مشاكل حقيقيّة مع المحكمة في بلده، تلك المحكمة التي لم يتمكّن من تحديد وجود واحد من موظّفيها السابقين، يزوّد الإرهابيّين بالأسلحة.

هذا يدعو للقول بأنّ ويلسون، ظلّ الخصم المطلق بالنسبة لرجال النوغان هاند... أمّا بالنسبة للمحقّقين الأستراليّين، فقد توصّلوا إلى إثبات قيام ويلسون بإبرام العديد من صفقات الأسلحة المختلفة، إمّا شراكة، أو لصالح البنك الأسترالي، ولكنّهم لم يتوصّلوا أبدًا إلى معرفة عدد هذه الصفقات وجهتها. كما لم يخف على رجال الشرطة الأستراليّين العلاقة القائمة بين ويلسون وهوتون، مسؤول النوغان هاند في واحد من فروع هذا البنك. إذ لم يصادف الرجلان وهما يتحادثان لفترات طويلة في مدينة جنيف، حيث يمتلكان أكثر من حساب رقميّ... ويؤكّد "تايل إيفانز" الممثّل السابق للنوغان هاند في تايلاند، على زيارة ويلسون إلى بنكوك، بهدف إبرام صفقات من الأسلحة الثقيلة مع ميشيل هاند.

أمّا اليوم، فإنّ ويلسون في السجن، في حين يعيش ميشيل هاند في الخفاء. إذ يقال إنّه يتخفّى في جنوب أفريقيا، ويعيش في مزرعة تابعة لواحد من زعماء المخابرات السريّة المحليّة السابقين... في حين ما يزال فرانك نوغان يحيا مع بقايا الأموات... إذ إنّه يحاول الوصول إلى الراحة الأبديّة... وها هو شاهد عيان يؤكّد عام ١٩٧١ رؤيته لرئيس البنك السابق في "أطلنطا" بولاية "جورجيا"، في الولايات المتّحدة الأميركيّة... إذ تمّ نبش الجثّة التي كانت في قبر فرانك نوغان، حيث حدث خطأ مرعب: ألا وهو تعرّف طبيب أسنان على ترتيب أسنان مريضه "فرانك نوغان"، عندئذ أعيد دفن الجثّة من جديد... ورغم كلّ ذلك، لم تكن هذه القصّة مثبّتة الصحّة...

هذا وما يزال هناك، بعد الإنهيار المالي لبنك النوغان هاند مئات من الأشخاص مشرّدين عبر العالم... ويبدو، في الختام، أنّ هناك أعمالاً أخرى تبرهن على أنّ بنك النوغان هاند، ليس الفريد من نوعه، وعلى وجود أماكن أخرى تابعة للـ CIA ذات رؤوس ماليّة كبيرة، وعلى وجود شبكات أخرى مخفيّة وأشدّ هولاً من سابقتها...

***

لا يمكن اعتبار عمل بنك النوغان هاند، هو المثل الوحيد لتدخّل المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA في المجالات والأوساط الاقتصاديّة الدوليّة، ويحصى من بين هذه الأوساط بنك "ميركانتيل أند ترست" الذي أسّس عام ١٩٦٢ لتمويل العمليّات المشبوهة للـ CIA و"كاستيل بنك"، وكانت هاتان المنشأتان المتمركزتان في جزر الكاريبي، تستفيدان من الحمايات والتواطؤات التي لم يكن لديها أيّ فكرة عنها. وها هي، نتيجة لذلك، لجنة رسميّة أميركيّة تكتشف أنّ "E.R.Fingland"، وهو واحد من أقوى وكلاء المبادلة في المنطقة، لم يكن، في حقيقة الأمر، إلاّ وكيلاً للـ CIA، يغطّي صفقات بنك "ميركانتيل".

كان الفشل في عام ١٩٧٧ حليفًا للميركانتيل بنك بالمصادفة، وبذلك بدأ، خلال تلك الفترة، التزايد الشهير لبنك النوغان هاند. هذا وتمتلك المنشأتان فرعًا في جزر الباهاما، لذا يجدر التساؤل في ما إذا كان لم يكن البنك الأسترالي قد استبدل مكان بنك ميركانتيل، وهو ما أصبح مزعجًا بالنسبة للـ CIA.

يمكن الإشارة إلى وجود عمل مشابه، منذ فشل النوغان هاند المفاجئ، يقوم هذا العمل على أساس وجود شركة استثمار في هاواي هي BBRDW، التي يرأسها رجل أعمال يختصّ بالقضايا الاحتياليّة يدعى "رونالد ريووالد"، قامت مصلحة الضرائب الأميركيّة ضمن فرع BBRDW، مع بداية الثمانينات، بإجراء تحقيق عاديّ، يتيح

المجال لتوثيق العلاقات التي تربط بين BBRDW والـ CIA... ويتغلغل موظّفو الضرائب، بعد ذلك، ضمن حسابات شركة "ريوالد"، ليكشفوا فيها سلسلة من المخالفات الشديدة الخطورة لدرجة تكفي لانهيار هذه المؤسّسة، كلّ ذلك يتمّ مع استمرار ضغوط الـ CIA على هذا التحقيق، حتّى تجبر الـ CIA على الاعتراف بتورّطها في الـBBRDW من خلال التهم الموجّهة من الصحافة.

أمّا المصادفة الثانية فتكمن في التواريخ. إذ يبدأ عمل الـ BBRDW، في واقع الأمر، مع انهيار بنك نوغان هاند. ويلاحظ أيضًا أنّ مجلس إدارة الـ BBRDW محاط بكبار المسؤولين من الـ CIA، على غرار النوغان هاند. وبالتالي، فإنّ مجريات الأحداث تدعو للتساؤل في ما إذا وجدت المؤسّسة الأولى لتأخذ مكان المؤسّسة الثانية. هذا ويمكن التساؤل في هذه الحالة، حول هويّة من سيستلمون المناصب في الـBBRDW، إلاّ أنّه من المناسب تحديد أنّ هذه الأعمال لم تكن إلاّ جزءًا مرئيًّا من الصفقات التجاريّة التي تمّت بواسطة شبكات المخابرات السريّة.

ويستمرّ رجال النوغان هاند أنفسهم بممارسة هوايتهم من مكانهم إلى جميع أنحاء العالم. إذ كانت جميع شركات تجارة الأسلحة، التي تتعامل مع البنك الأسترالي، تمتلك فروعًا لها، وخاصّة شركة "التجارة الدوليّة" التي تتواجد فروعها داخل كلّ من الولايات المتّحدة الأميركيّة وفرنسا وآسيا.

يظهر بين الفينة والأخرى أسماء مطروقة في آذان الأستراليّين، منها على سبيل المثال إسم الجنرال "ريتشارد ف. سيكورد"، صديق وشريك مدير فروع بنك نوغان هاند، و"بيرني هرتون" المتورّط عام ١٩٨٧ في فضيحة إيران غيت وكونترا غيت...

لم ينته الأستراليّون أبدًا من تحديد مؤامرات الـ CIA على أرضهم، وذلك بعيدًا عن أراضي المعارك الدائرة على الكرة الأرضيّة. إذ كان هؤلاء المحقّقون يعلمون

مدى صعوبة مهمّتهم عمليًّا... ولكنّهم، بالمقابل، كانوا متأكّدين من شيء واحد فقط، ألا وهو: تمكّنهم، عاجلاً أم آجلاً، من دفع رجال النوغان هاند إلى التحدّث عن أنفسهم وأعمالهم[1]...

---

١ ـ كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة، ص١٣ ـ ٢٩.

شاكر فاخوري: المصري الذي باع نفسه

.. في أعقاب نكسة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ التي شهدتها البلاد العربيّة في عقب جولة الحرب الإسرائيليّة ـ العربيّة، اشتد نزف الجرح العربي.. وخيمت قتامة قاسية وعم إحساس مرير بالمهانة. ولم تستطع وسائل الدعاية والإعلام العربية التغلب على سطوة هذا الشعور لفترة طويلة.

فإسرائيل لم تكف عن اختراق حاجز الصوت بقاذفاتها كل يوم في السماء العربية، دون رادع يوقفها.. وكأنما هي في رحلة ترفيهية آمنة، فتسخر بذلك من أجهزة الدفاع، ومن قوات العرب التي اندحرت لاهثة أمام ضربات اليهود الفجائية. وتؤكد للعالم على أن ادعاءات القوة العربية ضرب من الوهم والخيال.

وفي سكرة الصدمة القاتلة.. أصيبت الأمة العربية بصدمة أخرى يومي ٩ ـ ١٠ حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ وصفها في مذكراته الفريق أول محمد فوزي قائلاً:

"الإحساس بالضياع النفسي يملأني طوال إقامتي بمقر القيادة العامّة للقوات المسلحة بمدينة نصر. طوال هذين اليومين كانت مصر بلا قيادة... فالقيادة السياسية غير قائمة بإعلان جمال عبد الناصر عن قرار التنحي، والقيادة العسكرية العليا أيضًا غير موجودة باعتزال المشير عبد الحكيم عامر وشمس بدران في منزليهما، بالإضافة إلى قادة أفرع القوات المسلحة الرئيسية الذين قدموا استقالاتهم"...

هذا هو الجو النفسي المحزن الذي خلفته الهزيمة.. التي أجبرت العرب على تنكيس أعلامهم حدادًا على قتل الكرامة والعزة والكبرياء.

وفي خضم هذه المأساة.. كانت إسرائيل على جانب آخر تراقب مراحل سقوط العرب.. وتعلن بغطرسة استحالة قيامهم ثانية.. ولو حدث.. وقاموا.. فقيام مريض أشل يجر أعضاءه زاحفًا.

ومن هنا.. نشطت المخابرات الإسرائيلية وأعدت العدة جيدًا لمراقبة العربي الصريع ومحاولات النهوض من جديد.

لذا.. فقد بثت العيون والجواسيس والأجهزة.. ترصد وتحلل وتحسب.. وتتوقع ما ستتبئ عنه الخطوة القادمة. وكان رأي خبراء المخابرات الإسرائيلية الذي لم يحيدوا عنه.. أن هذه الضربة التي أفقدت العرب قوتهم وتوازنهم.. بل وصوابهم.. لا بد لها من رد فعل حتمي سيتأكد حدوثه في لحظة ما.

وهكذا لم يجلس رجال الموساد في انتظار الضربة المفاجئة.. بل عملوا على كشف تحركات واستعدادات العرب العسكرية والدبلوماسية للتكهن بنواياهم التي يضمرونها. وكان لا بد من تلافي الضربة القادمة.. بالعمل على عدة محاور استراتيجية.. أهمها الإسراع بالبرنامج النووي الإسرائيلي لإرهاب العرب.. وإخضاعهم بالتخويف.. وإحباط عزيمتهم بالدعاية التي تصورهم كأنهم الأساطير. وكذلك بالعمل على تزويد الجيش الإسرائيلي بأحدث مبتكرات تكنولوجيا السلاح العالمية.. لإظهار التفوق الكبير على جيوش عربية لا تستوعب السلاح الحديث. وأيضًا.. تنشيط الأقسام المختلفة في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي بما يضمن الحصول على أدق الأسرار ــ العسكرية والاقتصادية والصناعية ــ من خلال شبكات متعددة من العملاء والجواسيس المهرة.. الذين زرعوا في غالبية المدن العربية، ينقلون لتل أبيب كل مشاهداتهم وتقاريرهم.

لذا.. فلا عجب إن لاحظنا كثرة أعداد الخونة الذين سقطوا في مصيدة الجاسوسية الإسرائيلية بعد نكسة حزيران – يونيو ١٩٦٧.. في ذات الوقت الذي نشطت فيه المخابرات العربية للكشف عن هؤلاء الخونة الذين توالى سقوطهم وشنقهم. وكان من أبرزهم "شاكر فاخوري"، الذي سعى بنفسه للدخول إلى وكر الجواسيس طمعًا في المال..!

نشأ شاكر فاخوري نشأة أولاد الأثرياء. فهو لم يعرف يومًا طعم الفقر.. ولم يذق مرارته.. وبرغم ذلك ظهرت بوادر الفشل في حياته أثناء دراسته الابتدائية، فكان تعثره الدراسي يرهق بال أهله ويحيرهم.

وفي المرحلة الإعدادية وُصم في محيطه بالفشل.. وأحاطته حكايات تداولتها الألسنة عن سرقاته المتعددة لأموال والده.. وتخوف الأقارب من يده الطويلة حين زيارته لهم.

وبعدما ضج أهله وصرخوا من تصرفاته الطائشة الغبية.. ألحقوه بمعهد مهني في "روض الفرج"، فخرج منه كأنه لم يدخله.. واستدعي لتأدية الخدمة العسكرية فتهللت أسارير أسرته التي نُكبت به.. ولحق بها الأذى من سلوكه المعوج.

ما إن أمضى مدة تجنيده في الدفاع الجوي.. حتى وجد نفسه بلا عمل.. ونظرات الحيرة والقلق تنهش جلده ممن يحيطون به. فحمل حقيبته المليئة بالفشل وسافر إلى الكويت.. وعمل بإحدى الشركات الأجنبية في جزيرة "فيلكه" الواقعة بمدخل خليج الكويت.

كانت إقامته في "كرافان" معدني صغير مع فني أميركي، فرصة له، ليتقرب من خلاله إلى إدارة الشركة الأجنبية، التي رأت عدة مرات الاستغناء عنه لافتقاره إلى

الخبرة الفنية. وكان رفيق مسكنه، "جون باليدر"، مكلفًا بتدريبه على أعمال التلحيم الكهربائي. لذلك.. كاد شاكر أن يقبّل قدمي جون، عندما أخطأ خطأ فنيًا من شأنه إحداث أضرار جسيمة بأحد الأجهزة الدقيقة. لكن جون تدارك الخطأ سريعًا ثم صفعه على وجهه وبصق عليه.. فانفجر الرعب في وجه شاكر خوفًا من تقرير جون الذي بسببه سيطرد فورًا من الشركة ويعود إلى مصر بفشله.

وحاول جاهدًا استمالة جون والاعتذار له. لكن جون ظل لأكثر من ساعتين يكتب تقريره المفصل.. وبعدما فشلت محاولات شاكر.. بكى في ضعف فقام جون إليه وقال له:

- أستطيع أن أمزق تقريري عنك ولكن في حالة واحدة فقط.

في ضراعة نظر شاكر إليه قائلاً:

- لن أنسى لك ذلك أبدًا مستر جون.. ماذا تريد مني؟

اتجه جون إلى مفتاح الإضاءة وأطفأ أنوار الكرافان.. وسمع شاكر حفيف ثياب تخلع وأنفاس تتلاحق.. فارتعش وانكمش في مكانه وقد ولت جرأته.

التصق به جون وقال له في صراحة:

- لكي تستمر في العمل لا بد وأن تستجيب لي. لقد ألحقت تحت إمرتي بعد فشلك في عدة أقسام أخرى. وعدم رضائي عنك معناه الطرد. هيا.. هيا قرر الآن وفورًا...

وعندما لم يلق جون ردًا، كان ما كان، ولم يطل الموقف المخزي كثيرًا.. إذ قام شاكر "بالمطلوب" واستراح إليه جون.. وكتب فيه التقارير الكاذبة التي حسنت من وضعه أمام إدارة الشركة.. وجعلته يشعر بالأمن في جزيرة فيلكة إلى حين.

لقد اشترى برجولته سكوت جون عن أخطائه في العمل ولم يكن ليتخيل أن يقوده الخوف من الطرد إلى هذا الفعل الشائن.. وحاول أن ينسى ما حدث معتقدًا أن جون سيتركه لحاله.. ولكن خاب اعتقاده وتكرر الأمر في اليوم التالي أيضًا.. وازدادت مطالب الشاذ يومًا بعد يوم.. بل وحدثت كارثة جديدة وضعت شاكر في مفترق طرق وخيار صعب يكاد يقضي عليه.

جاءه جون بمهندس قبرصي يدعى "روبرت هوب" يشغل وظيفة كبيرة في الشركة.. وطلب منه أن "يتعامل" معه بحرية.. ووجد شاكر نفسه مطالب بتلبية متطلّباتهما دون اعتراض.. بل أسفرت علاقته بالمهندس روبرت عن إحساسه بمهانة ما بعدها مهانة... فزجره روبرت وتهدده بالطرد من الشركة التي رفعت من راتبه كثيرًا بتوصيات دائمة منه ومن جون. ولم تمر عدة أيام حتى استدعاه مدير شؤون العاملين وأخبره بنبأ الاستغناء عنه، وواجه شاكر المفاجأة بحوار واهن وحاول أن يشرح للمسؤولين بالشركة حقيقة الأمر.. لكن صمتهم أخافه.. وكانت اللامبالاة إجابة للتساؤلات التي بعقله.. الجميع بالشركة كانوا جون.. وروبرت. وبعد خمسة أشهر من العمل في الجزيرة حمل حقائبه ولكن إلى بيروت لا إلى القاهرة.

كانت بيروت في تلك الفترة تموج بالفن وبالانفتاح وبالحياة. إنها تختلف كليًا عن سائر العواصم العربية بما فيها عواصم دول المغرب العربي المتحررة. فهي أكثر تحررًا وتحضرًا. وصفعه إعلان غريب جدًا في إحدى المجلات البيروتية لكازينو مشهور.. يعلن عن وجود "كبائن" خاصة للزبائن.. لقضاء أوقات "الراحة"... فترك حقائبه بحجرته ببنسيون "دلعون" بشارع بعلبك.. واستقل أول سيارة صادفته إلى الكازينو المذكور. وهناك وجد ضالته...

غرق شاكر بين أحضان الحسان في بيروت مستهلكًا مدخراته التي وفرها في الكويت.. فالضياع الذي توج حياته كان مدعاة لأن يحس بالخواء وينزلق إلى حالة في اندفاع غير محسوب.. وثمالة تغشاه بلا روية.. وتصادف أن تعرف على فتاة اسمها "أوفيليا" قالت له إنها يوغوسلافية وإن كانت أمها من حلب.

كانت أوفيليا ذات جمال يسبي العقول.. وأنوثة طاغية تربك عمليات الفكر... صادقته الفتاة ودارت به نهارًا بين جبال لبنان.. وليلاً بمواخير بيروت حتى نفذت نقوده. فتركته إلى قبرص حيث تعمل في "لارنكا" بإحدى شركات التجارة الدولية. ومن هناك اتصلت تليفونيًّا به.. وأطلعته على صعوبة عثوره على عمل في قبرص وهو لا زال ببيروت.. فسافر إليها وأخذت تطوف معه أنحاء المدينة بحثًا عن عمل له، وباءت محاولاتهما بالفشل. فقالت له مازحة: "ليس لك إلا اللجوء لسفارة إسرائيل في نيقوسيا".

اندهش شاكر لعبارتها وفوجئ بها تخبره بأن سفارة إسرائيل بالفعل ستحل مشكلته.. كما حدث مع آخرين أُغلقت في وجوههم أبواب الرزق في قبرص. فرتبت لهم أعمالاً مختلفة تتفق وميولهم، تأكيدًا لنوايا إسرائيل "الحسنة" تجاه العرب. وعندما قال لها في استغراب:

هل يعد هذا السلوك خيانة لمصر؟

ضحكت عميلة الموساد وقالت في دلال:

أيها المغفل.. أنت خدمت في القوات الجوية في مصر. ولو أنك ذكرت ذلك للعاملين في سفارة إسرائيل فسيحملونك على أعناقهم.. لأنهم يريدون أصدقاء لهم في مصر على دراية بأوضاع الجيش. ولكنك لا تصلح لأن تكون جاسوسًا أيها "الأبله".

وضحك شاكر وقال لها:

ولماذا لا أكون جاسوسًا؟ إنني فشلت في كل حياتي ولم أفلح في أي عمل قط.

وفي بنسيون "جونايكا" تمدد شاكر على ظهره.. وسلط عينيه إلى نقطة وهمية بسقف الغرفة وقال لنفسه:

"نعم.. أنا إنسان فاشل.. منذ صغري وتطاردني الخيبة تلو الخيبة. حظي العاثر أوقعني في شرك الشواذ في الكويت.. وطردت من العمل لأنني رفضت التمادي... وها أنا أعيش على "إعانة" من أوفيليا بعدما أبيعها رجولتي كل ليلة.. إعانة؟ يا ليتها تكفي مصروفي هنا.. إنها تمنحني بمقدار ما أنفقه لأعيش بالكاد. حتى رجولتي شح معينها أمام هذا النزف المستمر".

وقفز شاكر من فراشه يضمر أمرًا.. وسحب حقيبته من الدولاب وأفرغ بها ملابسه.. وغادر لارنكا إلى الشمال حيث نيقوسيا العاصمة.

من فوره قصد مبنى السفارة الإسرائيلية.. وعلى الباب الرئيسي تقدم إلى موظف الاستعلامات وسأله عن ضابط المخابرات في السفارة. دهش الموظف وطلب منه إبراز جواز سفره ليتأكد من جنسيته. ورفع سماعة التليفون ولم تمض عدة دقائق إلا وكان بمكتب الضابط المسؤول الذي سأله عما يريد بالضبط. فقال له شاكر أنه مر في حياته بظروف صعبة.. وعانى كثيرًا من جراء حظه السيء الذي صادفه في مصر والكويت.. وأنه الآن لا يملك ثمن تذكره العودة إلى مصر ويريد أن "يبيع" لإسرائيل معلومات عسكرية هامة قد تحتاجها. وفي ذات الوقت إنه على استعداد للعمل معهم في المستقبل لإمدادهم بما يحتاجونه من معلومات عن مصر.. بالمقابل. بل وحدد شاكر نوعية المعلومات التي

يستطيع إمدادهم بها بالتفصيل.. وهي معلومات تتعلق بالقوات الجوية التي خدم بين صفوها لمدة طويلة.

أصيب الضابط بالدهشة وتركه يكتب بخط يده كل ما عنده من بيانات ومعلومات، واستغرق شاكر في الكتابة ستّ ساعات، استطاع أن يكتب في خلالها اثنتي عشرة صفحة تضمنت كل ما لديه. فطلب منه الضابط أن ينتظر بفندق "واطسون" حتى يستدعيه.

لازم شاكر حجرته بالفندق لمدة خمسة أيام.. اشتعلت بداخله أثناءها كل أنواع الظنون. وكان لبقائه بمفرده طوال هذه الأيام الخمسة سبب لا يعلمه بالطبع.. فالمخابرات الإسرائيلية لكي تدعم مدى صدق العميل الجديد.. تبحث في حياة العميل وشخصيته وتاريخ حياته.. ويُترك العميل لفترة يُقطع فيها الاتصال به.. وتتم في خلالها أعمال التحريات والمراقبة والتحليل للتأكد من صدق النوايا.. وعندما استدعوه غمرته سعادة كبيرة.. وأسرع إلى السفارة الإسرائيلية فاستقبله ضابط آخر اسمه "هيدار" وهو الضابط المسؤول عن التجسس في "الجمهورية العربية المتحدة".

استعرض معه هيدار تفاصيل ما جاء بتقريره. ولعدة ساعات أخرى خضع شاكر لامتحان صعب من الضابط الإسرائيلي الذي تعامل معه بلطف شديد وقال له: "مرحبًا بك في سفارة بلد صديق.. وعليك أن تعلم جيدًا أن الفن العسكري والسياسي.. يستقي قوته من المعلومات التي يوفرها جهاز المخابرات الفعال في شتى الميادين في زمن الحرب أو السلم".

المعلومات المستقاة من قبل دوائر المخابرات هي أهم ما يعتمد عليه واضعو السياسة.. والقادة العسكريون في كل دولة. تلك الخطط التي تكفل وتؤمن المفاجأة وإرباك العدو في المجالين العسكري والسياسي.

ومن أهم نجاحات رجال المخابرات.. ورود المعلومات في الوقت المناسب.. وبالقدر الكافي قبل بداية الالتحام. وقياسًا عليه.. فإسرائيل لا يمكن لها أن تخطط لأي عملية دفاعية مع العرب.. إلا إذا تجمعت لديها كل المعلومات المطلوبة عن الدول العربية عامة.. والدول المجاورة لها خاصة.

وأضاف "هيدار" بأن القسم الخاص بالدول العربية في المخابرات الإسرائيلية.. قد انتهج مناهج عديدة.. وطبق وسائل مختلفة انتصر دائمًا على العرب. وما حدث في حزيران ــ يونيو ١٩٦٧ هو نتاج المعلومات الغزيرة.. التي تجمعت وتسربت من البلاد العربية عن طريق عملاء إسرائيل المخلصين.

وأشاد هيدار بدور هؤلاء موضحًا لشاكر صراحة أن إسرائيل دولة مزروعة في قلب الوطن العربي.. نتيجة لإرث قديم في أراضي فلسطين.. وأن المخابرات الإسرائيلية لا تترك عملاءها نهبًا للمخاوف وللمخاطر.. بل تضحي بالكثير من أجلهم وتعمل جاهدة على استردادهم بشتى السبل.. ولا تبخل عليهم بشيء طالما هم مخلصون لإسرائيل محبون لها.

وأكد ضابط المخابرات المحنك.. أن الكثيرين يعتقدون بطريق الخطأ أن إسرائيل إنما تهدف فقط إلى الحصول على معلومات عسكرية لها اتصال مباشر بالعمليات القتالية. ولكن المعركة العسكرية تعتمد على نواح كثيرة جدًا لا تقل أهمية عن القوات. بل لها الأثر الفعال على كفاءتها مثل قدرة الدولة على الصناعة.. وتوافر الطاقة الإنتاجية. والحالة الاقتصادية العامة للدولة. والحالة التموينية والاحتياطي العام والمخزون السلعي.. ومدى تماسك الجبهة الداخلية وصمودها.. وقدرة الدولة ومدى استعدادها لظروف الحرب.

كانت الظروف النفسية السيئة مضافًا إليها الحاجة الماسة إلى المال سببًا مهمًا في جلوس شاكر فاخوري أمام ضابط المخابرات الإسرائيلي.. فقد جلس أمامه لأوقات طويلة وعلى مدار أيام عدة كتلميذ ينتبه لإرشادات أستاذه.. وبرأسه تدور عشرات الأسئلة حول معاناته.. والمشكلات التي يمر بها..

ووسوس له الشيطان أن إسرائيل تعرف كل شيء عن مصر.. وأن المعلومات التي قدمها لن تقدم أو تؤخر.. إنها مجرد معلومات عامة هامشية لا تحمل ضررًا ما لأمن وطنه.. أو تدينه أمام الجهات الأمنية إذا ما انكشف أمره.

وظلت تلك الأوهام تسيطر عليه حتى استحالت إلى حقيقة.. يؤكدها ما كان يلقيه عليه هيدار بثقة.. واطمئنان. لقد كانت جل أمانيه أن يخرج من بوتقة الفقر.. ويعيش بمصر آمنًا معيشيًا لا يسأل أحدًا أو يمر بضائقة مالية ترهق باله.

وأمام رغبته الملحة في الإثراء السريع المريح.. ونقص الدافع الوطني.. إضافة إلى الإغراءات الخيالية التي صبت في أذنيه صبًا.. وتملكت منه.. وافق على أن يكون صديقًا للعدو.. أمينًا في إمداده بكل ما يطلب منه من معلومات أو مهام. هكذا دخل شاكر برجليه وكر الجاسوسية راضيًا قانعًا.. غير عابئ بالعواقب أو نهاية الطريق المظلم الحالك.. ووجدها رجالُ الموساد فرصة لا تعوض جاءتهم بلا تعب.. فاستغلوها وأجادوا تلقينه فنون اللعبة الخطرة.. وكانوا قانعين بأن من رضي باللعب مع الثعابين فحتمًا سيلدغ شر لدغة.

إستوعب العميل الجديد مهامه التجسسية جيدًا.. وامتلأت جيوبه الخاوية بأموال الموساد القذرة. وحمل حقائبه إلى القاهرة لمدة شهر.. وعاد ثانية إلى قبرص وأبلغ الضابط المسؤول بالسفارة الإسرائيلية بنتائج رحلته السريعة.

كتب شاكر في تقريره أنه لم يضيع وقتًا في القاهرة. بل شرع في الحال بممارسة عمله بصدق.. وكوّن صداقات عديدة مع رجال ونساء من فئات مختلفة من رواد الملاهي والبارات. وأهم صداقاته كانت مع ضابط مصري يدعى (م. ش. أ) تعرف عليه بأحد الفنادق. وأغدق عليه بكثير من الهدايا دون سؤاله عن أي شيء حتى لا يثير مخاوفه.

وكان التقرير الذي سلمه شاكر لضباط الموساد متخمًا بالمعلومات التي أذهلت الضابط.. فأرسله بدوره إلى تل أبيب.. وجاءت الأوامر العاجلة بضرورة سفر شاكر لإسرائيل.

وتأكيدًا لإخلاصه للموساد وافق شاكر بدون مناقشة، وتسلم جواز سفر إسرائيلي باسم "موشى إبراهيم".. وطار بطائرة العال الإسرائيلية إلى مطار "اللد".. ليجد الضابط هيدار بانتظاره.. وكانت إقامته بتل أبيب في إحدى الشقق المعدة لأمثاله من الخونة.. وهي في العادة مجهزة بأحدث ميكروفونات التنصت والكاميرات الدقيقة.

وكعادة المخابرات الإسرائيلية لكي يضمنوا السيطرة على الجواسيس.. صوروه عاريًا مع مدبّرة المنزل.. وهي فتاة في الثانية والعشرين خمرية اللون قالت له إن جذورها عربية. وأقامت معه الفتاة إقامة كاملة لخدمته ولراحته.

وفي مبنى المخابرات الإسرائيلية. اجتمع به عدة ضباط وخبراء ناقشوا معه التقرير المفصل الذي سلمه في قبرص، وكان بينهم الضابط هيدار.. وضابط آخر اسمه أبو يوسف.. وآخر مسؤول عن التجسس في لبنان. وبعد مناقشات طويلة، قال له كبير الخبراء:

- "لقد سعيت إلينا بنفسك في قبرص. والآن.. نريد أن نتأكد من إخلاصك للموساد.. وأنك لست ضابط مخابرات مصري مدسوس علينا. وهذا ليس ببعيد على المخابرات المصرية التي زرعت خبراء لها في جهازنا مرات عديدة".

صرخ شاكر محتجًّا، وأكد لهم أنه لا يعرف أين يقع مبنى المخابرات المصرية. وأنه بالفعل ذهب بنفسه إلى سفارتهم في قبرص.. رغبة منه في إثبات أهميته ووجوده بعدما أحاطه الفشل من كل جانب.. وأيضًا ليحصل على أموال كثيرة تعينه على مجابهة أهله ومعارفه في مصر. قال هيدار:

- "أنت هنا في تل أبيب لتثبت لنا ذلك، ولكي نعمل معًا بأمان.. فسنفحصك بواسطة جهاز كشف الكذب".

ولم يحتجّ شاكر هذه المرة.. بل أبدى رغبة جادة في تأكيد "إخلاصه" لهم بكل الطرق التي يرونها.

وأُخضع بالفعل للفحص بواسطة الجهاز الأميركي.. الذي أكد صدق خيانته لوطنه وانتمائه للموساد قلبًا وعقلاً.

عند ذلك.. ابتدأ تدريبه على أيدي أمهر ضباط المخابرات.. الذين صنعوا منه جاسوسًا خبيرًا بفنون التصوير، وتشفير الرسائل، والكتابة بالحبر السري، ومسح الأراضي "الطبوغرافيا" وكيفية التعرف على الأسلحة الحربية برية وبحرية وجوية، وتحديد قدرة تسلحها وطاقتها ومداها المجدي، وأُعطي عنوانًا في روما ليبعث برسائله المشفرة.

ومن المعروف أن المخابرات الإسرائيلية تخصص لكل جاسوس يعمل لحسابها شفرة خاصة به.. باستخدام "رواية" عربية معروفة أو أجنبية متداولة.. تكون أساسًا

للإشارات الرمزية المتبادلة بينه وبين المخابرات الإسرائيلية.. ويجري تبديل هذه الرموز بين آن وآخر.

أيضًا تُحدد المخابرات الإسرائيلية نوعية الحبر السري لكل جاسوس، فلكل حبر سري ميزات خاصة تؤكد أن مسطر الرسالة هو العميل نفسه المسلم إليه الحبر.

بعدما حصل شاكر فاخوري على دورات فن التجسس.. عاد ثانية إلى نيقوسيا ثم إلى القاهرة.. وبدأ في الحال في جمع معلومات وافية عن الجيش المصري والقوات الجوية بالذات.. وكذلك عن النشاط السوفياتي في مصر والخبراء العسكريين السوفيات، والأحوال عامة بعد غارات إسرائيل المستمرة على ضواحي القاهرة، وكان يستقي معلوماته من أفواه العامة من الناس.. على المقاهي وفي المواصلات العامة والنوادي الليلية في شارع الهرم.. حيث ترتادها كافة المستويات.

أما المعلومات العسكرية وأخبار الاستعدادات الحربية ونشاط الخبراء السوفيات فكان يحصل عليها من العسكريين الذين يمتّون إليه بصفة القرابة أو الجيرة. وأيضًا من خلال الضابط (م. ش. أ) الذي حمل إليه بعض الهدايا من قبرص على سبيل الذكرى.

لقد ركز شاكر كثيرًا على هذا الضابط الذي استجاب له بسرعة.. وتبسط معه في الحديث وسرد الأخبار مما استتبع ملازمته لفترة طويلة طوال وجوده بالقاهرة، وعمل على منحه الدعوات المجانية للحفلات.. وبعض الهدايا الذهبية الثمينة في المناسبات المختلفة، والتي لا تتناسب وحجم علاقتهما. كل ذلك أدى إلى تخوف الضابط المصري من سلوك الشاب، فبادر على الفور إلى إبلاغ جهاز المخابرات بشكوكه.. ونقل إلى المسؤولين في الجهاز كل ما دار بينه وبين الشاب من أحاديث وما تسلمه منه من هدايا مختلفة.

تم عمل الترتيبات الأمنية اللازمة.. وكان هناك حرص زائد على ضبطه ومعه أدلة إدانته.. وطلبوا من الضابط أن يتظاهر بصداقته، وألا يجعله يشكّ في نواياه.. وأن يطلعهم أولاً بأول على مجريات الأمور.

وبعدما اعتقد شاكر أنه اشترى الضابط المصري بهداياه.. انتهز فرصة مروره بضائقة مالية "مفتعلة"، وعرض عليه إمداده ببعض المال.

وحسب الخطة وافق على طلب شاكر بجلب الوثائق العسكرية.. بحجة الاطلاع على استعدادات الجيش للحرب، ولبس الخائن ثياب الوطني المخلص الذي يحلم بيوم الثأر من إسرائيل، وبأن رؤية هذه الوثائق وشروحه عليها تسعده كثيرًا.. وتشعره بمدى قوة الجيش المصري، خاصة وأنّ الطيران الإسرائيلي قد بدأ يتساقط كالعصافير بعد اكتمال حائط الصواريخ، ولم تعد لديه الشجاعة على اختراق المجال الجوي المصري. وأمده الضابط بمعرفة جهاز المخابرات ببعض الوثائق، ولما تضخمت لدى شاكر الوثائق المعدة سلفًا حملها سريعًا إلى نيقوسيا، وامتلأت جيوبه عن آخرها بأموال الموساد، فعاد بها إلى القاهرة يحمل رغبة الموساد في تجنيد الضابط المصري، وكل مهمته منحصرة في إقناعه بالسفر إلى قبرص لعلاج ابنته. وهناك.. سيتولى رجال الموساد اصطياده بالسيطرة عليه بتصويره عاريًا مع عميلة إسرائيلية... وبمنحه آلاف الجنيهات.

عندما عرض شاكر على الضابط فكرة السفر إلى قبرص.. تظاهر بالموافقة، وأخذ يماطله وفقًا لطلب المخابرات متحجّجًا بدراسة الطلب في قيادة الجيش، حيث كانت طلبات السفر خارج مصر تخضع لظروف عدة بالنسبة للضباط.

ولما طالت مدة الانتظار، أراد شاكر أن يذهب بالضابط إلى قبرص مجندًا.. وترتفع بذلك مكانته في جهاز الموساد.. وبالتالي يتعاظم رصيده المالي.. فمنح

الضابط مبلغًا كبيرًا لقاء بعض الخرائط العسكرية، موضحًا عليها مواقع صواريخ "سام ٦"، وكذلك المواقع التبادلية، وخرائط أخرى تبين محطات الرادار الهيكلية والصواريخ، وأيضًا خطط السوفيات لحماية المواقع الحيوية، وخطط اصطياد الطيران الإسرائيلي المتسلل إلى العمق المصري.

بل إن الخائن الذي اعتقد بالفعل أنه اشترى الضابط.. طلب منه تصوير مواقع عسكرية، وإمداده بوثائق عن الخطط الدفاعية والهجومية العسكرية والأسلحة الحديثة، واستأجر الجاسوس الخائن شقة جديدة من أموال الموساد، خصصها للقاءاته مع الضابط ولتخزين المستندات والخرائط بها.

وبعد عدة سفرات إلى قبرص بالمعلومات التي سربتها المخابرات المصرية إليه لينقلها إلى الموساد.. كان يعود شاكر بالأموال الطائلة، ينفق منها على ملذاته، ويشتري الهدايا للضابط ولأسرته.

وذات مساء عاد مخمورًا من سهرة فسق، وعندما امتدت يده بالمفتاح إلى صالون الشقة، فوجئ بالباب ينفتح فجأة.. ويقف بالداخل عدة أشخاص كانوا بانتظاره ويترقبون مجيئه..

جذبه أحدهم إلى الداخل، وعلى المكتب رأى الأوراق التي جمعها.. خرائط.. ووثائق.. وتقارير كتبها بخط يده، وصورًا لبعض المواقع العسكرية، وعدة أفلام خام لم يجر تحميضها..

وبينما كانت الأيدي تمسك به، ويتجه الركب إلى حيث ينتظره مصيره الذي خطه بنفسه.. أحسن باندفاع بوله الدافئ بين ساقيه.. وقال لمرافقيه:

إلى أين ستأخذونني؟

فقال أحدهم:

لتدفع ثمن خيـانتك.. هـذه الأرض التـي تبولـت عليهـا الآن رعبًـا.. منحتـك الأمـن والأمان فبعتها... فتعال إلى مصيرك المحتوم حيث لن ينقذك أحد من حبل المشنقة[1]...

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة، ٢٠٠٣) ص١٢٣ ـ ١٣٧.

جمال حسنين: الجاسوس الذي مات مرتين

منذ أربع سنوات تقريبًا .. أفرج عن الجاسوس جمال حسنين بعد أن أمضى ٢٥ عامًا خلف جدران سجن "المزرعة" في "أبو زعبل"، حيث لا يزال بين جدرانه عدد من الخونة الذين جندتهم المخابرات الإسرائيلية للتجسس على مصر.

لا ندري كيف يمضي الخونة مدة عقوبتهم طوال هذه السنوات.. كما لا ندري هل لسعتهم أوجاع الندم.. أم أنهم فقدوا الإحساس بعظم جرمهم في حق الوطن؟ وهل كلهم هكذا، أم أن هناك بعضهم أفاقوا إلى رشدهم بعد فوات الأوان؟

ولكن.. كيف سيواجهون الحياة في المجتمع بعد ربع قرن في الزنزانة؟ وكيف يستقبلهم المجتمع والأسرة بعد الإفراج عنهم؟

لا أحد يستطيع التكهن بما في نفوس هؤلاء الخونة، ولم يسبق لصحافي أن أجرى حوارًا مع جاسوس قضى مدة عقوبته ليصف لنا حاله بالضبط.

وعلى كل حال.. بقدر ما يهمّ البحث عن سلوك خائن منح حريته يهمّ أيضًا البحث في الأسباب التي أدت إلى سقوطه في شباك الجاسوسية ودراستها.

فلكل جاسوس ظروف اجتماعية ونفسية مختلفة قادته إلى مستنقع الخيانة، ولكل جاسوس وسيلة اتبعتها الموساد معه.. ونقطة ضعف أسقطته حتى أذنيه.. ليصير جاسوسًا.. لا يدخر وسعًا في إطلاع العدو على أسرار بلده.. وتنفيذ أوامره في التخريب والتدمير وبث الإشاعات المغرضة.

ولا زالت الدراسات الجادة تبحث في الصراعات والمعارك.. التي تشتعل في نفوس هؤلاء الخونة.. وارتطامهم بالمشاكل التي تدمر فيهم خلايا الوعي وإدارك النتائج.. فيسقطون صيدًا سهلاً في يد الأعداء.. ويكونون له عيونًا تنقل إليه ما لا يراه أو يفهمه.

إنها الخيانة.. داء قذر قد يصيب بعض الذين يطمعون في مال.. أو جسد أنثى.. أو منصب فقده في وطنه.

بل يصاب بالخيانة بعض أناس لا يلتفتون إلى تلك الأشياء مطلقًا.. كأن يسيطر عليهم هاجس غريب.. يصور لهم الأعداء بصورة مغايرة تدعو إلى الشفقة أو المؤازرة.

لكن هناك حقيقة لا يجب أن تفوتنا وهي أن الجاسوسية، برغم ما ينتشر عنها من دراسات كل يوم، إنما هي "أمر" سري يغلفه الصمت ويحيطه الكتمان. وما يكتنفها من غموض هو محاولة لإخفاء وجه الجاسوسية ونشاط العاملين فيها.

ولأن الجاسوسية هي "السلاح الرابع" كما يطلقون عليها، بعد سلاح الطيران والبحرية والقوات الجوية، فهي أولاً وأخيرًا تعتمد على عقول ماهرة تبني الحقائق.. وتحلل المعلومات وتستخلص النتائج وتضع الخطط، وتصنع ما لا يتخيله عقل أو منطق من خداع وحرب خفية أسلحتها الذكاء، والشيفرة، والرموز، وأجهزة الإرسال اللاسلكي، وآلات التصوير.. هذا إلى جانب العامل البشري.. واللجوء لشتى السبل من إغراء أو تهديد أو إرهاب وخلافه لتجنيد الجواسيس. لذلك.. أصبحت الجاسوسية هي الأداة الأساسية في تحديد السياسات الدبلوماسية للدولة الحديثة. وكذلك هي "المستشار الخفي" لرؤوساء الجمهوريات والحكومات عند اتخاذ القرارات المصيرية.

وبالرغم من اختلاف جاسوس اليوم عن جاسوس الأمس.. وتطوير التكنولوجيا الحديثة والتقاط الصور الجوية بواسطة أقمار وطائرات التجسس، إلا أن الوسائل "البشرية" لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها، وستظل الجاسوسية أبد الدهر تعتمد على العملاء والجواسيس، مهما قيل عن احتلال الأجهزة والوسائل التكتيكية التي تلاشت أمامها حجب الأسرار وخفاياها.

بل إن فكرة تجنيد الجواسيس بالإغراء أو بالمال أو بالفضيحة والتهديد أصبحت فكرة قديمة وعقيمة. والجديد هو استغلال ثقافة ومعتقدات البعض.. الذين يتفقون في أهدافهم وآرائهم أو نظرتهم إلى الحياة مع مثيلاتها في جهاز المخابرات الذي يجندهم.. إنهم جواسيس الفكر الأيديولوجي ومدّعو التحضر والثاقافات.

حتى الآن.. هناك من أمثال هؤلاء الكثيرين.. الذين سعوا بأنفسهم لدى جهاز المخابرات الذي يتوافق مع أفكارهم لتجنيدهم.. دون النظر إلى أي مطالب أو حاجات. وأقربهم إلى الذاكرة الآن.. الجاسوسية "هبة سليم" التي انخرطت في سلك الجاسوسية دون حاجة إلى مال أو رغبة تود تحقيقها، بل تجسست لأنها آمنت بأن إسرائيل قوة لا يمكن هزيمتها، وكانت ترفض مرارًا آلاف الدولارات التي هي مقابل للمعلومات "الدسمة" التي أمدتها بها.

ولأنها تصورت أن تجسسها واجب فكانت من الطبيعي أكثر "إخلاصًا" و"أمانة" في نقل المعلومات. بل إنها تطوعت وأسلمت جسدها وبكارتها طواعية إلى ضابط الجيش المصري "فاروق الفقي" من أجل الحصول على معلومات منه.. إنه عالم عجيب وغريب، مليء بالأسرار والغموض. عالم يقبض على قوة الحياة والموت...

ومعارك الجاسوسية بين العرب وإسرائيل مستمرة ولا زالت برغم حالة السلم بينها وبين بعض الدول العربيّة.. ولن تتوقف مطلقًا طالما هناك أرض اغتصبت بالقوة.. وشعب أجبر على هجر أرضه أو يدفن بها حيًا.

ولأن إسرائيل هي الدولة المغتصبة.. صاحبة التاريخ الأسود الطويل المليء بالمذابح والإرهاب.. فهي تخشى يقظة العرب وصحوتهم ذات يوم.

ولذا.. أطلقت جواسيسها داخل الوطن العربي.. يجمعون لها الأسرار العسكرية وشتى المعلومات التي تتعلق بالنشاط الاقتصادي أو الصناعي. وتنوعت ألوان الجاسوسية الإسرائيلية.. فالجاسوس لم يعد مجرد شخص يتقصى المعلومات ويلتقط صورًا لأماكن حيوية.. بل أصبح مكلفًا ببث الفوضى والإشاعات المغرضة وإثارة القلق في الشارع العربي.

أما عن الجاسوس "جمال حسنين" الذي أفرج عنه قبل سنوات بعد ٢٥ عامًا وراء القضبان.. فقصته مع التجسس مثيرة ومادة شيقة للتناول. وعظة للشباب الذي يسافر إلى أوروبا بحثًا عن عمل بعدما ضاقت به السبل وأغلقت دونه أبواب الأمل.

ولد جمال في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤١ بالقاهرة لأسرة موظف صغير في وزارة الشؤون الاجتماعية يعول سبعة أفراد. دخل مرحلة التعليم الابتدائي وشق طريقه في التعليم.. متعثرًا. وتمكن عام ١٩٦٢ من الحصول على دبلوم في المساحة.. وعين فورًا في مصلحة المساحة بالقاهرة.. وكان راتبه الصغير يشعره بأنه قزم تافه.

لذلك سعى للحصول على دبلوم المعهد الأوليمبي بالإسكندرية في محاولة للارتقاء بوضعه الوظيفي، وأمكن له بالفعل الحصول على دبلوم المعهد عام ١٩٦٨..

وكانت مصر حينئذ في حالة يرثى لها.. وتسعى للنهوض من عثرة النكسة وتنظيم صفوفها من جديد استعدادًا للثأر من العدو الإسرائيلي.

في ذلك الوقت لم يكن جمال حسنين بعيدًا عن نبض الجماهير .. والإحساس بالمهانة لهزيمة الجيش واحتلال أرض عربية أخرى. وحنق كثيرًا على القيادة العسكرية.. وكثيرًا ما كان يجادل أصحابه ويثور لأنه لم يلتحق بالقوات المسلحة بسبب "الفلات فوت" اللعين. وكظم غيظه وأحلامه وحبس طموحه بداخله إلى أن تحين اللحظة المناسبة للتحرك.

ولكن الوقت يجري و "سماح" تنضج وتفور أنوثتها ولا يزال كما هو بلا حركة.. وخطّابها عرفوا الطريق لبيتها فتملكه الرعب لمجرد أن تخيل خطبتها لآخر. ولما أضناه الأرق وهده الفكر.. صارح والده بحبه للفتاة ورغبته في الزواج منها.. فقال له "عليك أن تدبر حالك".

أسرع الشاب العاشق إلى أسرة فتاته يطلب يدها.. فاشترطوا عليه ما يعجز عن تحقيقه.. ولكنه في سبيل الفوز بها قرر المغامرة وتملكته فكرة السفر إلى بيروت للعمل.

كانت بيروت وقتئذ قبلة الباحثين عن الرزق الوفير وتتعدد بها مصادر الرزق لكل من سعى. وتقدم جمال حسنين بطلب للحصول على إجازة عمله بدون راتب "كان راتبه ١٦ جنيهًا" فسمح له باجازة ستة أشهر. وقبل أن يغادر الإسكندرية إلى بيروت بحرًا.. أُخضع لدورة توعية تثقيفية مع غيره من الراغبين في السفر خارج مصر لأول مرة. والمحاضرون بالطبع ضباط في جهازي المخابرات العامة والمخابرات الحربية. وكان هذا النظام معمولاً به في ذلك الوقت نظرًا لاكتشاف العديد من الجواسيس والذي تبين أن غالبيتهم وقعوا

في براثن الموساد بعد إغرائهم بالمال والنساء. وفي قرارة نفسه.. سخر جمال حسنين من ضعاف النفوس الذين سقطوا في شباك التجسس واحتقرهم. وانتبه جيدًا للطرق المختلفة التي يصفها الضابط المحاضر للإيقاع بالشباب المصري في الخارج.

وفي السفينة إلى بيروت تمدد على سطحها يتأمل وجه حبيبته فتخيله ماثلاً أمامه على صفحة المياه الممتدة.. والتي لا نهاية لها. ولم تكن يده تمتد كثيرًا إلى محفظته الجلدية التي تحوي صورتين لسماح الجميلة. فوجهها الرائع النقاء بكل بهائه محفور في فؤاده وموشم على خلاياه.

كان يمني نفسه بعمل مربح في بيروت، أي عمل، لا يهم. إنها حرب عليه أن يخوضها ليفوز بالحبيبة.

وأيقظه من تخيلاته وأفكاره شاب سوري يعمل في التجارة ما بين بيروت والإسكندرية. وتناول الحديث بينهما نواح عديدة.. ولما سأله جمال عن إمكانية العمل في بيروت أفاده بأن لبنان سوق مفتوح للعمل.. وفرص الكسب به متوفرة إذا ما ذهب إلى مقهى فاروق.. ومجرد أن غادر السفينة تلقفه الزحام وصافحته الوجوه بتجاهل.. وقادته قدماه إلى حي المزرعة جنوبي الميناء.. وفي بنسيون رخيص وضع الرحال وذهب إلى مقهى فاروق أشهر المقاهي هناك.. حيث بالإمكان العثور على صاحب عمل، فالمقهى يعرفه كل المصريين في بيروت ويرتادونه ويتواعدون على اللقاء به. لذا فهو يموج بالوجوه المصرية المرهقة التي تغربت من أجل الحصول على المال.

ومُرت الأيام وجمال حسنين ينفق من الجنيهات القليلة التي حولها إلى ليرات لبنانية. ولم تظهر في الأفق بشائر خير أو تبدو بارقة من أملٍ. حاول كثيرًا ففشل..

وقبل أن تنفذ نقوده حمل حقيبته خائبًا وعاد إلى القاهرة.. تعشش الكآبة بأعماقه ويحس بالقهر يطحن أعصابه.

إستقبلته سماح فرحة بعودته بعد ثلاثة أشهر من الغربة.. وحاولت إقناعه بالعمل في إحدى الشركات بعد الظهر لإنجاز المطلوب منه للزواج.. لكنه كان دائم الشكوى وسب الحال وغير قانع بالمقسوم له. وبات يحلم من جديد بالسفر إلى اليونان.. إنها الحلم الكبير الذي سيتحقق.. وفشل رحلة بيروت لن يتكرر.

لقد ثبت لديه أن لا مناص من الخروج من أزمته إلا بالسفر. وعقد العزم على الاستماتة هذه المرة. وعندما رفض الإنصات لمعارضة سماح.. تركته يائسة بفعل ما بيد.. ولما تقدم للعمل بطلب اجازة أخرى.. رفض طلبه.. فقدم استقالته على الفور. وركب سفينة قبرصية إلى ميناء "بيريه" لا يملك سوى مائتي دولار أميركي وعدة جمل بالإنكليزية.

ولأن بيريه أشهر موانئ اليونان، ففرص العمل بإحدى الشركات البحرية متوفرة. هكذا قيل له في القاهرة. وأظلمت الدنيا في وجهه بعدما تأكد من كذب المقولة. وكان كلما يمر به يوم بدون عمل.. تضطرب أعصابه ويختنق صدره ويقترب من حافة الجنون.

وفي خضم معاناته يلتقي بشاب مغربي يدعى "سمعان" ويشكو له حاله.. فيطمئنه بأنه سيسعى من أجل توفير عمل له. وظل يعده يومًا بعد يوم إلى أن فرغت جيوبه حتى من كسور "الدراخمة"، العملة اليونانيّة المحليّة. فأقنعه سمعان ببيع جواز سفره والإبلاغ عن فقده فوافق جمال حسنين.. واصطحبه المغربي إلى القنصلية الإسرائيلية في بيريه.. بحجة وجود صديق له هناك سيشتري منه جواز السفر.. وقد يدبر له عملاً في أحد الفنادق. وبسذاجة شديدة ذهب معه ليلتقي داخل القنصلية الإسرائيلية

بأحد ضباط الموساد الذي يعده بإيجاد عمل له خلال أيام.. وطلب منه أن يجيب علىالأسئلة المكتوبة في استمارة التعارف عن حياته وأسرته وأصدقائه ووظائفهم وعناوينهم ليتمكن من توفير فرصة عمل مناسبة له. وتفاوض معه بخصوص جواز السفر فاشتراه بمائتي دولار.. بعد ذلك اصطحبه سمعان إلى فندق "ايسخيلوس" الشهير وحجز له غرفة رائعة تخوّف جمال حسنين من سعرها المرتفع، لكن عميل الموساد طمأنه بأنه ضيف على القنصلية الإسرائيلية.. التي لا تدخر وسعًا في مساعدة الشباب العربي بقصد إبراز الصورة الحقيقية للإسرائيليين التي يعمل الإعلام العربي على تشويهها.

بعدما خلا جمال إلى نفسه تساءل عما يدور حوله، وتذكر الدورة الإرشادية التي تلقاها في مصر قبل سفره.. وما قيل له عن أساليب المخابرات الإسرائيلية المختلفة في استقطاب المصريين بالخارج.. والحيل المموهة الذكية، التي تبدو بريئة، لجرهم إلى التعاون معهم.. بدعوى العمل على مساعدتهم.. وبشعارات زائفة رنانة يعملون على إزالة حاجز الخوف من التعامل معهم.. وما كان قصدهم في النهاية إلا الإيقاع بضعاف النفوس الذين تواجههم ظروف صعبة في الخارج.

وقطع تفكيره اتصال من شخص لا يعرفه اسمه "يوسف" أبلغه بأنه كلف بإيجاد عمل له.

فرح جمال كثيرًا بذلك الضيف البشوش ودار بينهما حديث يغلفه الود عن الحياة والدين والطبيعة وتربية الكلاب.. ثم تطرق يوسف إلى مشكلة الشرق الأوسط، والسلام الذي يجب أن يسود المنطقة.. وحقوق الجار التي أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم. ولما عرف منه أن له علاقة خطبة بفتاة في مصر وأطلع على صورتها.. ضحك ضابط الموساد من تواضع ملامحها وقال له:

إنك في اليونان فلماذا لا تستمتع كما يحلو لك؟

وأخذه إلى سهرة لم يصادفها من قبل. وعلى الباب الخارجي للنادي الليلي وقفت سيدة عجوز تمسك بعدسة نظارة ذات عين واحدة تستقبل الزوار بحفاوة كبيرة.. وعندما رأت جمال حسنين هتفت في سعادة قائلة:

"أوه أيها المخلص.. ألا زلت تتذكرني؟!".

وهي تنظر باندهاش إلى الضابط:

"إنه زبون قديم عندي". ضحك جمال بينما يدلف من الباب الداخلي وهو يقسم بأنه لم يرَ المرأة من قبل.

وبعد سهرة جميلة عاد جمال إلى حجرته ترافقه فتاة لعوب استطاعت على مدى يومين أن تستنزف دولاراته.. وتركته خاوي الوفاض في بلاد الغربة. يطوف ضباط المخابرات الإسرائيلية من حوله ويخططون لاصطياده.

وفي قمة محنته ذهب إليه بالفندق شخص آخر اسمه إبراهيم.. وذكر له بأنه صديق يوسف وأنه قرأ استمارة بياناته ومعجب جدًّا به.

كان إبراهيم ضابط مخابرات ماهر.. استطاع التعرف على نقطة الضعف التي يعاني منها جمال.. فركز عليها جيدًا.. واستغل جهله بالسياسة والتاريخ وأخذ يلقي على مسامعه الأكاذيب والمفتريات عن مشكلة اليهود.. وفي خلال اللقاء المسجل بينهما، استطاع أن ينتزع منه اعترافًا ضمنيًا بحق اليهود في فلسطين.. ثم أخذ يضغط على مشكلة الأزمة الاقتصادية التي تعاني مصر منها.. بدليل تواجده في اليونان بحثًا عن عمل ليتمكن من الزواج، وأرجع الضابط هذه الأزمة إلى حالة التأهب الدائم للحرب التي تدمر خطط مصر للتنمية.

ولأنـه أحمق غريـر.. اقتنع جمـال حسنين بـآراء الضـابط الـذي شـحنه نفسـيًا ومعنويًا.. ووصل به إلى المدى المطلوب في الاندفاع والتهور وسب النظام في مصر وانتقاد الحياة بها.

كان الطرق على الحديد الساخن أسهل الطرق لتشكيله.. وأمام حالة الضعف التي وصل إليها جمال فلا مال لديه ولا حصانة وطنية.. بالإضافة إلى كلمات متناثرة فهم منها أنّ له صورًا عارية مع الفتاة الداعرة.. أمور كلها هيـأت مناخـًا مناسبًا لتجنيده. خاصة بعدما أقنعه ضابط الموساد بـأن الجاسوس الـذي يسقط فـي أيـدي المخـابرات المصرية.. لا بد لهم من مبادلته في صفقة سرية بواسطة الصليب الأحمر الدولـي أو الدول الصديقة. وعدد له أسماء كثيرة لجواسيس مصريين تمت مبـادلتهم.. ويعيشـون في إسرائيل في فيلات فاخرة، وجـرى سـحب أسـرهم مـن مصـر تباعـًا. هكذا كـانوا يقنعونه ويضيقون عليـه الخنـاق فيجد صعوبـة فـي التفكير أو الفـرار. وسـقط جمـال حسنين في قبضة الموساد.

وفـي شقة مجهزة بكل أدوات الرفاهيـة.. أقـام الخـائن برفقـة ضـابط الموسـاد ليتعاطى شراب الخيانة وليتعلم مبادئ الجاسوسية.

ولأنه لم يلتحق بالقوات المسلحة فقد دربـوه علـى كيفيـة تمييز الأسلحة المختلفـة بواسطة عرض أفلام عسكرية وأسلحة.. وعقدوا اختبارات له لبيان مدى استيعابه.

ولكونه يعمل في مصلحة المساحة، فقد كانت لديه خبرة كبيرة في وصف المبـاني والمنشآت ورسم الخرائط المساحية، وتقدير المسافات والارتفاعـات، وبالتـالي رسـم الأشكال المختلفة وكل مظاهر الحياة التي تصادفه.

ولم تكد تمر أربعة أسـابيع إلا وأنهـى جمـال حسـنين الـدورة التدريبيـة ببراعـة.. وتخرج من تحت يد ضابط الموساد جاسوسًا خبيرًا، وخائنًا مخلصًا لإسرائيل.

كان ضابط الموساد إبراهيم هو المسؤول عن تلميذه النجيب. وعلى عاتقه تقع مسؤولية توجيهه ومتابعته. ويلزم لذلك ربط علاقة إنسانية قوية بينه وبين الجاسوس.

وفي أمسية سمر لاحظ شروده وقلقه، وحاول جاهدًا مساعدته حتى لا تتوقف مراحل خيانته، فصارحه جمال بمدى تعلقه الشديد بسماح، وخوفه من عودته خاويًا فتضيع منه. فطمأنه إبراهيم وأمده بألف دولار مكافأة، فضلاً عن راتب شهري قدره مائتي دولار، ومكافأة أخرى قدرها خمسون دولارًا عن كل رسالة تحمل معلومات قيمة يرسل بها إلى روما لاسم "كاستالا يوستالي" ص. ب. ١١٧.

وأمضى الخائن التعس في بيريه أربعة أشهر حتى لا يثير الشكوك بالأموال التي معه، ثم أعد حقيبته وسافر بالطائرة إلى القاهرة يحمل فستان الزفاف لعروسه هدية من المخابرات الإسرائيلية.

كان عجولاً جدًا.. إذ لم ينتظر حتى تزف إليه حبيبته، بل شرع في الحال في كتابة رسالة عاجلة، بدون حبر سري، إلى صديقه الوهمي يوستالي.. يخبره فيها بوصوله سالمًا وزواجه قريبًا.

وبعدها عمد إلى زيارة أقاربه وأصدقائه من عسكريين ومدنيين وسؤالهم عن أحوال الجيش والحرب.. وكان يسجل كل ما يصل إليه في مفكرة خاصة حتى جمع بعض المعلومات التي اعتبرها مهمة لإسرائيل.. وأغلق عليه حجرته وسطر، للمرة الأولى، رسالة بالحبر السري.. حوت ما جمعه من معلومات وأرسل بها إلى روما. وادعى أنه يحمل رسائل من أصدقاء في اليونان إلى ذويهم في الإسكندرية ودمياط والمنصورة ومرسى مطروح. وقام بزيارة لهذه المدن لعله يصادف ما يثير انتباهه من تحركات عسكرية.. أو تنقلات للأسلحة بواسطة القطارات أو سيارات النقل العملاقة.

كانت مصر في تلك الأثناء، تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٢، تعيش أوقاتًا عصيبة بسبب حالة اللاسلم واللاحرب التي هيمنت على الجوّ العام. وهناك حالة من القلق والتذمر تسود الشارع المصري يأسًا من خطب الرئيس السادات التي لا تحمل أيّ نية للرد على الصلف الإسرائيلي المستفز، بل نقيضًا بالوعود بالحرب مما خلق شعورًا بالإحباط لدى الشعب.

وكانت المخابرات الإسرائيلية ترسل بجواسيسها الخونة، لاستقصاء حالة الشعب والجيش، ففي تلك المرحلة الحرجة كان الغليان العربي على أشده. خاصة وأن عمليات المقاومة الفلسطينية اتخذت مسارًا آخر في مواجهة إسرائيل، بعدما تقاعست دول المواجهة عن الإقدام على ضربها.

لذلك، فقد كثفت إسرائيل من نشاطها التجسسي داخل الأراضي المصرية، لعلمها أن مصر هي زعيمة العرب وكبرى دول المواجهة التي حتمًا ستثأر وتسترد سيناء.

ويقابل هذا التكثيف التجسسي جهد متزايد من المخابرات الحربية والمخابرات العامة المصرية، لضبط إيقاع الأمن في الداخل والخارج، فسقط عدد كبير من جواسيس ما قبل أكتوبر ١٩٧٣.. وكان من بينهم جمال حسنين الذي أرسل رسالته الوحيدة إلى مكتب الموساد في روما.

فبواسطة رجل المخابرات الذكي الذي يعمل رقيبًا على البريد.. اكتشف الكتابة بالحبر السري في الرسالة. وتبدأ على الفور مطاردة شرسة بين المخابرات المصرية والجاسوس في معركة سرية لا يشعر بها أحد.. وسباق محموم مع الزمن من أجل إلقاء القبض عليه.

وفي فترة وجيزة جدًا.. سقط الخائن في الكمين الذي نصب له مساء يوم ٢٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٢ أثناء نومه في هدوء.. يتنفس هواء مصر النقي ويملأ

معدته بطعامها وخيرها. ومن بين الأدلة الدامغة على تجسسه لصالح الموساد ضبطت المفكرة التي سجل بها معلومات جديدة قام بجمعها، وتقريرًا عن زيارته لبعض المدن، ورسالة انتهى من كتابتها بالحبر السري كان ينوي إرسالها إلى روما في الصباح.

إصطحبوه إلى مبنى المخابرات لاستجوابه، واعترف مذهولاً بكل شيء في الحال. واقر بأن حصيلة المعلومات التي جمعها كانت من معارفه وأقربائه.. الذين كانوا يتحدثون أمامه بما يعرفونه من معلومات.. وهم على ثقة به ولا يتصورون أن بينهم جاسوسًا ينقل ما يتفوهون به إلى إسرائيل.

وأثناء محاكمته أخبروه بأن سماح زُفّت لآخر وسافر بها إلى الكويت، فسرت بشرايينه مرارة شديدة لا تعادل إحساسه بمرارة جرمه وخسة مسلكه.

وحُكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.. أي ٢٥ عامًا.. بين جدران السجن ليلاً وفي تكسير الحجارة نهارًا. فلولا ظروفه التي مر بها قبل وأثناء تجنيده.. وقصر تجسسه على رسالة واحدة تحوي معلومات تافهة لكان نصيبه الإعدام. ومنذ سنوات مضت.. انتهت مدة عقوبته.. وخرج من أبي زعبل وعمره يقارب الستين عامًا.. مطأطأ الرأس منكس الهامة. ترى.. هل كان أهله في استقباله على باب السجن كما نرى في الأفلام المصرية؟ أم أن والديه توفاهما الله غاضبين عليه، وانشغل إخوته في أعمالهم ونسوا أن لهم أخًا جاسوسًا باعهم ذات يوم عندما باع وطنه.

فماذا حدث إذن؟ وأين سيعيش هذا الخائن؟ وهل لا زالت عنده الجرأة لكي ينتسب إلى هذا الوطن، ويقر بأنه مصري مات مرتين. مرة داخل السجن وأخرى خارجه عندما يجتر تاريخه؟

أسئلة كثيرة بحاجة إلى إجابات مطولة.. ولكن في النهايــة لا بـد لنـا ألا ننســى أن النفس البشرية لا زالت تمثل لغزًا غامضًا لم يكتشف بعد. ولا ينبغـي أن نتعجـب مـن تقلبات المشاعر والأحاسيس والنخوة.

ذلك إن عالم المخابرات والجاسوسية.. عـالم لا تحكمـه العواطـف والعلاقـات ولا يعرف الرحمة والمشاعر[1]...

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص١٤١ ـ ١٥١.

سمير باسيلي . . أول جاسوس في العالم يجند أباه

وقف علماء النفس عاجزين أمام أحداث هذه القصة المؤسفة .. وفشلوا تمامًا في تحليل شخصية الإبن المجرم "سمير باسيلي" الذي ورّط أباه عن سابق تصوّر وتصميم في مراتع التجسّس لينتقم منه، ولأن حالة سمير باسيلي حالة فريدة من نوعها، فقد خضعت للعديد من التحليلات النفسية، التي وضعته في النهاية في مصاف المرضى، وصنفه أستاذ علم النفس النمساوي "فردريش يوجان" على أنه "الدوني السيكوباتي التكوين Constitutional Psychopatic Inferior". والسيكوباتي هو دائمًا في حالة توتر، لايستفيد إلا قليلاً جدًا بالخبرة أو العقاب، ولا يدين بأي ولاء حقيقي لأي مبدأ أو جماعة.

حصل سمير على الثانوية العامة بصعوبة شديدة عام ١٩٦٠ وتوقف عن إكمال دراسته بأحد المعاهد. فالأب، كان بخيلاً شديد البخل، شرس الطباع في معاملته لأبنائه، لا يترك قط مساحة ضئيلة من التفاهم تقربهم منه. وكرِه سمير في أبيه سلوكه فأدمن الخروج من المنزل والسهر مع أصحابه، ولم تنطفئ برغم ذلك حرائق الصدام مع والده. لذلك فكر في السفر إلى ألمانيا بعدما ضاقت به الحياة وعضّه الجوع.

عندما عرض سمير الأمر على أبيه، لم يسلم من تهكمه وسخريته اللاذعة، وذكّره بالفشل الذي أصبح سمة من سمات شخصيته، رافضًا بشدة إمداده بنفقات السفر رغم توسط بعض أفراد الأسرة.

إستدان سمير من أصدقائه ووجد نفسه فجأة على مقعده بالطائرة في طريقه إلى ألمانيا، يتنفس الصعداء ويلعن الفقر، ويسب والده الذي حطم كل الآمال لديه فأشعره باحتقاره لنفسه، ودونيته، وبث بأعماقه شعورًا مخجلاً بالضعف والحقارة.

لقد كان يبخل عليه بأبسط بوادر الحنان والأبوة، وحرمه الحب. فعاش معه مزويًا بلا هدف أو كيان. وأخذ سمير يجتر ذكرياته المرة مع والده البخيل، الذي دأب على تسميم بدنه ليل نهار بالسباب والحط من شأنه، وتحريض أمه على طرده من المنزل كلما عاد متأخرًا وحرمانه من العشاء والهدوء، مما أثار فيه الشجن، وكثيرًا ما كان يسأل نفسه أهو ابن شرعي لهذا الرجل أم لقيط وجدوه على الرصيف؟

تحركت به الطائرة على الممر.. وقبل أن ترتفع مقدمتها عن أرض المطار.. أخرج سمير منديله وبصق على معاناته وآلامه وحظه، وكأنه يبصق على كل ما يذكره بأيامه الكئيبة. وظل يسرح طوال رحلته في خيال جميل أفاق منه على صراخ عجلات الطائرة وهي تنزلق على أرض مطار ميونخ، وشرع من فوره في محاولة تحقيق الحلم، فاتصل بمعارفه هناك لمساعدته، وسريعًا حصل على وظيفة معقولة بشركة "سيمنز" الشهيرة، فعاش حياة رائعة لم يكن خياله يقوى على وصفها أو يتخيلها.

مرت الأسابيع والشهور وفتانا منهمك في عمله لا يبغي سوى جمع المال، وبدأ رويدًا رويدًا في استطلاع الحياة الجديدة، والتحرر الصاخب الذي يغشى المجتمع من حوله، وساعده المال الذي ادخره على المغامرة، فانغمس في عالم آخر بعدما ضعف أمام إغراء المدينة الساحرة... بحر هائج من الملذات لا ينتهي مدّ موجه أو يخمد، أفرغ بين ضفتيه حياته السابقة وهو لا يكاد يفيق من نشوته وسكرته إلا ويعود أكثر شراهة وطلبًا.

ضمن له مرتّبه الكبير التكيف مع حياته الجديدة. ولأنه فقد هويته، أراد أن يرسم لنفسه هوية جديدة ابتدعها هو... وهيأت له الظروف خطوطها لخدمة أحلامه وطموحاته، وتبلورت شخصيته الجديدة على مقهى "برنسِس" حيث الخمر والرقص والنساء.

وذات مساء، وكان الزحام على أشده، جلس بجواره رجل أنيق ودار حديث بينهما، وفهم سمير أن نديمه ينتظر صديقته التي جاءت تخطر كظبي رشيق نفر الجمود والوخم... وصاح "هانز مولار" ينادي على صديقته "جنيفيف يارد" في ترحاب زائد، وعرّفها على سمير باسيلي الذي غاص في الذهول والمفاجأة.

كانت أنوثتها الطاغية تقتل، وصدرها العاري ترتج لمرآه الخلايا، وقوامها الممشوق المثير يُطيِّر العقل.

وعندما قامت للرقص معه، حرقته نيران الجسد، وألهبته أنفاسها وهي ترسل صهدًا تسلل إلى عقله فأوقفه ودمر مقاومته، وكانت يداها كالقيد تطوقان رقبته، تمامًا كالقيد الذي كبل به مصيره ومشواره المقبل. وعندما صحبها هانز وخرجا، لم يستطع سمير صبرًا، فلاحقهما بسيل من الاتصالات التليفونية تعمّدا ألا يردا عليها لبعض الوقت، إلى أن أوشك الشاب العاشق على الجنون، فدعاه "هانز" إلى شقته، وجاءت "جين" كفتنة تتحرك فتتحرك معها الرغبات وتثور معلنة عن نفسها.

ترك هانز الشقة إثر مكالمة تليفونية وتمنى سمير لحظتئذ لو منحها كل غال لديه للفوز بقطرة واحدة من شهد أنوثتها، ولكن عندما أفاضت عليه بكؤوس من النشوة خارت إرادته، وود لو لم يفق من سكرته إلى الأبد.

وكانت خطة السقوط التي رسمتها الموساد أغرب من الغرابة، فبينما كان عاريًا في الفراش المستعر، قالت له جين وهي تمرر المنشفة على وجهه:

- أنت مصري رائع، أشعرتني بأن "للحب" مذاقات لذيذة أخرى.

أجابها في ثقة:

- هذا ما تعلمته منكم.

سألته في دلال:

- ألم تكن لديك صديقة في مصر؟

قطب حاجبيه وأجاب بسرعة:

- لا.. لا.. الجنس في مصر يمارس بشكل متحرر في الخيال، وفي السر فقط. والصداقة بين الجنسين لا تعرف الجنس ولكنها تضج بالكبت وتفوح منها أنجزة الرغبة.

في نعومة زائدة سألته وهي تفرك أذنه:

وماذا تقول عني أيها المصري الشقي؟

قال وهو يقبلها: "أفروديت" ابنة "زيوس" و"هيرا" التي ولدت من زبد الماء في بحر "إيجه"... وهي الآن بأحضاني.

قالت وهي تحتضنه في تدلل: لا تبالغ كثيرًا...

ضغطها بين ذراعيه متولهًا وهو يقول: أنت أروع فتاة عرفتها... ولن أتركك أبدًا.

تنهدت الفتاة في حزن وقالت: للأِف يا سمير.. سأتركك مضطرة خلال أيام.

انتفض منزعجًا وهو يبعد وجهها عن صدره ليتأمله، وقال: جين؟ ماذا تقولين؟ عندما عثرت عليك امتلكت الحياة وسأموت بدونك..

عانقته وهي تقبله في حنان بالغ وقالت: فضلت أن أصارحك الآن قبل أن أغادر ميونخ فجأة.

تشبث بذراعيها فتألمت وقال: سأجيء معك حتى آخر الدنيا فلا دنيا لي سواك.

- مستحيل..

تنهد في زفرة طويلة وأردف: سأثبت لك جين أن لا شيء مستحيل..

وفي نعومة الحية قالت: أرجوك.. أنت ل اتعرف شيئًا.. فلا تضغط على أعصابي أكثر من ذلك.

هزها بين أحضانه وهو يردد: أحبك لدرجة الجنون منذ رأيتك في البرنسِس يا أجمل برنسِس في الدنيا.

- "أحبك أيها المصري الأسمر"، قالتها وهي تداعب شعره في ابتسامة عريضة.

مرت فترة صمت قبل أن يضيف:

تركت مصر وعندما رأيتك أحسست أنك وطن آخر. نعم... أنت الآن لي وطن وأهل وحياة... ولن أتركك ترحلين فأغترب وأحترق.

تبدلت نبرتها إلى نبرة حزن وهي تقول:

- أنا أيضًا أعيش معذبة بعدما مات والدي منذ سنوات. إن الوحدة تقتلني وترهقني معاناة القتامة، لذلك فأنا أموت كل ليلة من التفكير والقلق. وبي حاجة إلى صديق وحبيب يؤازرني.

تساءل: أليس هانز صديقًا؟

أجابت مفتعلــة الصدق والألم: لا.. إنـه رئيسـي فـي العمل وفـي ذات الوقت أنـا ملكه... إنني مثل سلعة تافهة يروّجونها مجانًا.

تجهم وجهه وقطب حاجبيه وهو يسألها: من؟ من هؤلاء الذين تقصدين؟

تلتصق به كالخائف الذي يلوذ بمن يحميه... وتصمت

وفي لهجة جادة يعاود سؤالها: أجيبيني من فضلك جين...

وتزداد جين التصاقًا بـه ويرتعش جسدها بيـن يديـه وتهمس بصوت متهدج: لا أستطيع.. لا أستطيع.. مستحيل أن تثق بي بعد ذلك.

وفي إلحاح مشوب بالعطف قال: أرجوك جين.. أنا أحبك ولـن أتركك أبدًا.. من هؤلاء الذين تعملين معهم؟

ركزت نظراتها على عينيه موحية له بالأسف وقالت: الموساد...

- موساد؟!!

ردد الاسم ويبدو أنه لم يفهم.. إذ اعتقد أنهم جماعة من جماعـات الـ"هيبيز" التـي كانت قد بدأت تنتشر في أوروبا وتطوف بالميادين هناك والشوارع.

- نعم الموساد.. ألا تعرف الموساد؟

نظرت فـي عينيـه بعمق تستقرئ مـا طـرأ علـى فكره.. واقتربت بشفتيها منـه وأذاقتـه رحيق قبلة ملتهبـة أنهتها فجـأة وقـالت لـه: إنهـا المخـابرات الإسـرائيلية. واستأنفت تقبيله... ولما رأت جين أن حـرارة تجاوبـه لـم تفتر بـل إن امتزاج الشفاه كان على أشده، تعمدت ألا تحاول استقراء أفكاره، وهيأت رائعات اللذائذ، وأسبغت

عليه أوصاف الرجولة فأنسته اسمه ووطنه الذي هجره.. والذي خط بالقلم أول مواثيق خيانته.

وبعد أن هدأت ثورة التدفق قالت له بخبث:

- هل ستتركني أرحل؟ بيدك أن أظل بجانبك أو أعود إلى تل أبيب..

أجاب كالمنوم: بيدي أنا..؟ كيف؟ لا أفهم شيئًا..

عانقته في ود مصطنع وبكت في براعة وهي تقول:

- لقد كلفوني بالتعرف على الشباب العربي الوافد إلى ميونيخ، خاصة المصريين منهم، وكتابة تقارير عما أعرفه من خلال حوارنا في السياسة والاقتصاد، لكنني فشلت فشلاً ذريعًا بسبب اللغة، فالمصري أولاً ضعيف في الإنكليزية لأنه يهتم بـ"الدويتش"، وهم أمهلوني لمدة قصيرة وعلى ذلك لا مكان لي هنا.

وكأن الأمر ثانويًا بالنسبة له، قال: ماذا بيدي لأقدمه لك؟

بتوسل شديد يغمسه الحنان قالت: تترجم لي بعض التقارير الاقتصادية من الصحف المصرية والعربية وليس هذا بأمر صعب عليك.

أفاق قليلاً وقال: وهل المخابرات الإسرائيلية تجهل ما بصحفنا لكي أقوم بالترجمة لها؟

أجابت في رقة: يا حبيبي أريد فقط أن أؤكد لهم أنني ألتقي بمصريين وأقوم بعملي معهم.. ولا يهمني إن كانوا يترجمون صحفكم أو لا يترجمونها.. أريد أن أظل بجانبك هنا في ميونيخ.

وطال الحوار بينهما، وعندما خافت جين من الفشل في تجنيده.. أجهشت بالبكاء وهي تردد: لا حظّ لي في الحب... ويبدو أن صقيع الحياة سيظل يلازمني إلى الأبد.

أخذتها نوبة بكاء هستيرية وهي تنعي حظها في الحب وافتقادها للدفء والحبيب.. فما كان منه إلا أن جذبها إلى صدره بقوة وهو يقول: مهما كنت.. لن أتركك ترحلين.

وأمام رغبته الجامحة وخدعة المشاعر... أسلم مصيره لها تفعل به ما تشاء.. فجاءته بأوراق، وكتَب بخطه سيرة حياته.. ومعلومات عن معارفه وأقاربه ووظائفهم وعناوينهم في مصر. وطلبت منه بتدلل أن يمدها بأخبار مصر من خلال المصريين الوافدين إلى ميونيخ، فلم يعترض، بل كان شرطه الوحيد أن تظل بجانبه.

هكذا سقط سمير في براثن الموساد. وبعد أن غرق لأذنيه في مهامه التجسسية واستسهل المال الحرام، تركته جين لتبحث عن غيره، وانشغل هو باصطياد المصريين والتقاط الأخبار، وقبع في مطار ميونيخ ينتظر الطائرات الآتية من مصر عارضًا خدماته على الوافدين للمرة الأولى، الذين يسعدون بوجود مصري شهم يرافقهم إلى حيث جاؤوا، ويقوم بتسهيل أعمالهم في المدينة.

أشهر قليلة، واستطاع أن يقيم شبكة واسعة من العلاقات، خاصة مع بعض موظفي مصر للطيران وبعض المضيفين والمضيفات، ويعود إلى مسكنه في المساء ليكتب تقريره اليومي المفصل الذي يتسلمه منه مندوب من الموساد كل صباح، ويقبض آلاف الماركات مكافأة له. وبعد أن استقرت أموره المالية كثيرًا عرف أبوه طريقه، فزاره في ميونيخ عدة مرات زاعمًا أن المشاكل الاقتصادية في مصر تضخمت، وأنه يطلب مساعدته في الانفاق على أسرته.

كان سمير يتلذذ كثيرًا بتوسلات والده، بل يرسل في طلبه خصيصًا ليستمع إلى كلمات الرجاء تتردد على لسانه، وليرى نظرات التودد تملأ وجهه. وتضخم الإحساس بالشماتة عند الابن تجاه أبيه حتى وصل إلى درجة الانتقام، وكان الانتقام بشعًا يفوق كثيرًا حجم الترسبات التي قبعت برأس الابن تجاه أبيه.

لقد دبر سمير كمينًا محكمًا لأبيه أوقعه في شراكه عندما صحبه إلى مكتب "هانز مولار" ضابط المخابرات الإسرائيلية في ميونيخ، والذي يبدو في ظاهره مكتبًا للمقاولات.

ولأن "وليم فريد باسيلي" يعشق النقود، أوضح له هانز أنه سبب الرفاهية التي يعيش فيها ابنه سمير، وأنه على استعداد أيضًا لبدء علاقة عمل بينهما وتأسيس شركة تجارية كبرى في القاهرة تدر عليهما ربحًا وفيرًا..

عندها، تخيل وليم شركته الجديدة والأموال التي ستغدق عليه، تخيل أيضًا مقعده الوثير ومكتبه الفخم وسكرتيرته الجميلة وسيارته الحديثة، وسافر بخياله يجوب شوارع القاهرة يختار موقع المكتب، فأيقظه هانز قائلاً إنه بحاجة إلى معلومات اقتصادية عن السوق المصرية، يستطيع من خلالها أن يحدد خطوطًا عريضة لنشاط الشركة. ولبى وليم الدعوة وجلس عدة ساعات يكتب تقريرًا مفصلاً عن احتياجات السوق، وأحوال الاقتصاد في مصر.

دهش هانز لدقة المعلومات التي سردها وليم ومنحه فورًا ١,٠٠٠ مارك، ووعده بمبلغ أكبر مقابل كل تقرير يرسله من القاهرة.

نشط الجاسوس الجديد في كتابة التقارير وإرسالها إلى ألمانيا، وفي الزيارة التالية لميونيخ فوجئ وليم بثورة هانز بسبب سطحية تقاريره المرسلة إليه. وقال له إن المكتب الرئيسي على استعداد لدفع خمسة آلاف مارك للتقارير المهمة وأنه على استعداد لتدريبه على كيفية جمع المعلومات وكتابتها بعد تصنيفها. وعندما سأله وليم عن المكتب الرئيسي أجابه بأنه في تل أبيب، وهو مكتب مختص بالشؤون الاقتصادية في دول العالم الثالث.

ارتبك وليم، فناوله هانز خمسة آلاف مارك في مظروف مغلق قائلاً إنه هدية من إسرائيل من أجل التعاون المخلص. أما التقارير فلها مقابل أيضًا، وتسلم وليم خمسة آلاف أخرى، فانكمش في مقعده بعدما أدرك حقيقة موقفه ووضعه.

طمأنه هانز بأن علاقتهما لن تكشفها المخابرات المصرية، لأن التقارير ليست مادة سرية، فهي موجودة في الصحف القاهرية. وشيئًا فشيئًا.. تطورت العلاقة بين هانز ووليم إلى علاقة بين ضابط مخابرات وجاسوس خائن، تحددت بدورات تدريبية خاضها الأب على يد ضابط فنيين، وانتفخت جيوبه بآلاف الماركات بعدما كثرت تقاريره التي كان يجيد كتابتها بعد تحليلها، وتعمده مصادقة ضابط القوات المسلحة والعسكريين المسرحّين من المُحيطين به.

وفي كل زيارة لميونيخ كان هانز يحذره من قراءة قضايا التجسس في الصحف المصرية حتى لا يرتبك ويقع في قبضة المخابرات المصرية التي لا ترحم الخونة. وطمأنه على أسلوب عملهم الذي لا تستطيع المخابرات العربية كشفه. وحتى وإن حدث.. فهم سيتولون رعاية أبنائه والإنفاق عليهم من بعده. وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل تتنصل من الخونة بعد سقوطهم. وهناك حالات عديدة لخونة تعاونوا مع الموساد، وبعدها استغنت الموساد عنهم لانكشافهم فتعمدت تجاهلهم ونبذهم.

أما الابن سمير، فقد اتسعت دائرة نشاطه في التعرف على المصريين الوافدين وتصيد الأخبار منهم من خلال الدردشة العادية، وهؤلاء الذين فشلوا في الحصول على عمل، وشرع بالفعل في تجنيد ثلاثة من المصريين، استطاعوا الرجوع إلى مصر وأخبروا جهاز المخابرات المصرية بتصرفات سمير، ودوره في محاولات الإيقاع بهم لصالح المخابرات الإسرائيلية بواسطة فتيات جميلات يجدن استعمال لغة الجسد.

لقد جاءت البلاغات الثلاثة في فترة قصيرة ومن أشخاص لا يعرفون بعضهم. وكانت خطة المخابرات المصرية لاصطياد سمير وأبيه محسوبة بدقة بالغة وإحكام.

كان وليم قد افتتح مكتبًا كبيرًا للمقاولات في القاهرة استطاع من خلاله أن يمارس عمله في التجسس، وجعل منه مقرًا للقاءاته بالأشخاص الذين يستمد منهم معلوماته، خاصة من العسكريين الذين أنهوا خدمتهم، حيث إنهم في الغالب يتفاخرون دائمًا بدورهم وبعملهم السابق بصراحة مطلقة أمام الأشخاص الذين يبدون انبهارًا بما يقولونه ويسردونه من أسرار عسكرية وتفاصيل دقيقة.

وفي أحد الأيام، فوجئ وليم برجل ثري عائد من الخليج، يريد الاستفسار عن إمكانية فتح مشاريع استثمارية وعمرانية كبيرة.

كان الرجل قد أمضى في الخليج سنوات طويلة ويجهل حاجة السوق المصرية للمشروعات، وتباهى وليم في سرد خبراته مستعينًا بإحصائيات تؤكد صدق حديثه، واستطاع إقناع المصري الثري بقدرته على اكتشاف حاجات السوق وإدارة المشاريع. وبدا أن الرجل قد استشعر ذلك بالفعل، إلا أن حجم ثروته ورغبته في عمل مشاريع عملاقة، استدعى من وليم الاستعانة بخبرة سمير، فكتب له يطلب مجيئه وألح عليه في ذلك، وجاءه الرد من ابنه يخبره بميعاد قدومه.

وما هي إلا أيام حتى جاء الابن إلى القاهرة، وبصحبته شاب ألماني وصديقته أراد التعرف على الآثار الفرعونية، فصحبهما سمير إلى "الأقصر" حيث نزلوا فندق "سافوي" الشهير على النيل، ثم مكثوا يومين في إيوان وعادوا إلى القاهرة.

كان سمير طوال رحلته مع صديقته يقوم باستعمال كاميرا حديثة ذات عدسة "زوم" في تصوير المصانع والمنشآت العسكرية طوال رحلة الذهاب والعودة، وفي محطة باب الحديد حيث الزحام وامتزاج البشر من جميع الجنسيات، وقف سمير أمام كشك

الصحف واشترى عدة جرائد، وبعدما هموا بـالانصراف، استوقفه شاب أنيق يرتدي نظارة سوداء برفقته أربعة آخرين وطلب منه أن يسير بجانبه في هدوء.

ارتسمت على وجه سمير علامات الرعب، وحاول أن يغلفها ببعض علامات الدهشة والاستفهام لكنه كان بالفعل يرتجف.

إعتذر الرجل الأنيق للضيف الألماني وصديقته، وودعهما سمير بلطف ومشى باتجاه البوابة إلى ميدان رمسيس، يجر ساقيه جرًا محاولاً أن يتماسك، لكن هيهات فالموقف صعب وعسير.

وعندما دلف إلى داخل السيارة سأله الرجل الأنيق ذو النظارة السوداء.

أتريد أن تعرف إلى أين تذهب؟ أجاب بصوت مخنوق: أعرف!!

وعندما فكر في مصيره المحتوم، أجهش بالبكاء، ثم أغمي عليه بعدما تملكه الرعب وأصابه الهلع، وحملوه منهارًا إلى مبنى المخابرات العامة ليجد والده هناك، نظراته أكثر هلعًا وصراخه لا يتوقف وهو يردد: سمير هو السبب...

واكتشف وليم أن الثري القادم من الخليج ما هو إلا ضابط مخابرات، واكتشف أيضًا أن تقاريره التي كان يرسلها إلى الخارج تملأ ملفًا كبيرًا.

ولم يستغرق الأمر كثيرًا. فالأدلة دامغة والاعتراف صريح. وكان الحكم في أيّار - مايو ١٩٧١ عادلاً لكليهما. الإعدام للابن و ١٥ عامًا أشغال شاقة للأب.. وعار أبدي للأسرة حتى الجيل المائة.. وكانت النهاية الطبيعية لكل خائن باع النفس والوطن[١].

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٢٣٣ ـ ٢٤٤.

الجاسوس فرناند لوغرو: ملك الليل واللوحات الزيتيّة

ينتمي "فرناند لوغرو" إلى أبناء الجاليات المختلفة في مدينة الإسكندريّة في مصر، مثل "داليدا"، و"جورج موستاكي"، و"كلود فرانسوا"... ومن منزلة الصفر قفز بأعجوبة صاروخيّة وأصبح ملك الليل واللوحات الزيتيّة وصديق المشاهير من كافّة القطاعات، وأخذ يؤثّر في سياسة عدد من الدول. من أبرز أصدقائه كان "داغ هامرشولد" الأمين العام السابق لمجلس الأمن، والدكتور "محمود فوزي" السياسي والوزير المصري السابق...

المخابرات الأميركيّة تبحث دائمًا عن أمثال فرناند لوغرو للإستفادة من نشاطاته وعلاقاته مع المشاهير، لذلك لم تتأخّر عن تطبيعه وجعله من عملائها، وأغدقت عليه الأموال، وجعلت الكتّاب الموالين لها ينشرون عنه الكتب باللغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة، حيث وضع عنه "روجيه بيرفيت" كاتب فرنسا المعاصر مؤلّفًا من الأهميّة بمكان تحت إسم "المغامر"، وبسبب وجوده في أوروبّا تعرّف على بعض الثوّار الجزائريّين بدءًا من "كريم بلقاسم" الذي التقى به عند داغ هامرشولد...

في ذلك الوقت، كانت الحكومة الفرنسيّة تضمّ بين أعضائها وزيرًا عرف فرناند لوغرو من صديقه "محمود فوزي" أنّه كان سفيرًا سابقًا لبلاده في مصر، وكانت له في القاهرة علاقات شاذّة... ما سبّب طرده من مصر في ما بعد. وكان هذا الوزير على صداقة جيّدة وحميمة مع هامرشولد الذي يبدو أنّه كان يرعى هذه الطبقة من أهل

السياسة والدبلوماسيّة. وفي عام ١٩٥٨، احتفل فرناند لوغرو بمليونه الثاني من الدولارات بمتابعته مبيعاته الخارقة التي كان من بينها مبيع لوحة للممثّلة "غريتا غاربو" رسمها الفنّان "فويار"، وكأنّ أعياد ميلاده أصبحت تحسب بالدولارات لا بالسنوات. وفي ذلك الوقت قرّر فرناند الذهاب إلى المكسيك وبلاد أميركا الجنوبيّة، فأعطته المخابرات الأميركيّة توصية للرؤساء هناك، كما أعطاه داغ هامرشولد رسائل توصية لأصدقاء له في الحكم، وما كان أكثرهم، بحكم موقعه كأمين عام لمجلس الأمن. ولكن كيف كان فرناند لوغرو يتّصل بعملاء المخابرات الأميركيّة في البلاد التي يزورها؟

كان يذهب حسب التعليمات إلى مكان معيّن في بار أو مقهى، وكان يأتي أحد الأشخاص ويجلس بجانبه ويلفظ على مسمع منه كلمة السر "كوليبري"، ثمّ يطلب من عازف البيانو أغنية "الحياة ذات لون زهري" للمغنيّة الفرنسيّة "إديت بياف"، وهي الأغنية التي كان فرناند يعشقها، ويطلب من رؤسائه في المخابرات الأميركيّة أن تكون "كلمة السرّ". وكان يضحك من ذلك لأنّه كان يعرف أنّ السوفيات كانوا يختارون لجواسيسهم ألحانًا مشهورة يستخدمونها ككلمات سرّ، ويبثّونها عبر إذاعة موسكو مثل لحن "بحيرة البجع"... ولكن كلمة السرّ هذه لم تكن تكفي لأنّها قد تكون أتت بمحض الصدفة. وكانت مرحلة حديث فرناند لوغرو الثانية مع العميل تتعلّق بالفنّ حيث يقول الجملة التالية: "عندي زبون يطلب لوحة لفان غوغ من فترة حياته في آرل"، ومعناها الاجتماع هامّ جدًّا ومستعجل... ويبدأ الطرفان بالحديث عن التجسّس بعد اطمئنانهما لبعضهما.

أمّا عن العمليّات التي قام بها فرناند فهي كثيرة، منها أنّه في ذات يوم تلقّى من المخابرات الأميركيّة صورة رجل تطلب منه القبض عليه، وكانت المخابرات

الأميركيّة على ما يظهر قد عجزت عن إلقاء القبض عليه، لأنّه صعب الطباع، وكانوا لا يريدون قتله. وهذا الرجل المطلوب من المخابرات الأميركيّة كان شاذاً، ولذلك اختاروا عميلهم فرناند لوغرو لأنّه خبير في هذه الأمور الشاذّة، كما كان الهدف المطلوب يحبّ الفنّ والفنون واقتناء اللوحات الفنيّة. فتبعه فرناند في أحد الأيّام إلى المتحف وبدأ معه بشكل الصدفة حديثًا عن الفن، ثمّ جعل جواز سفره الكندي يسقط على الأرض بشكل الخطأ، وهو الجواز الذي كان يستعمله فرناند لوغرو في مهمّاته.

كان هدف فرناند لوغرو من إسقاط جوازه على الأرض، تعريف الرجل بأنّه كنديّ لكي يكسب ثقته، وبعد الحديث دعاه فرناند إلى بيته للتفرّج على بعض اللوحات التي بحوزته، إذ أخبره أنّه "تاجر لوحات".

لبّى الرجل الدعوة، وفي المنزل دسّ له فرناند في كأس قرصًا منوّمًا من إنتاج الـCIA جعله ينام بسرعة، ثمّ أخرج الرجل من المنزل في حقيبة كبيرة من قبل المخابرات، ولم يعرف العميل فرناند من كان ذلك الرجل ولماذا تطلبه المخابرات ولا ما حلّ به في ما بعد.

مع زيادة نشاطه وعمالته، طلب منه رئيسه المباشر في المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA قبول منصب الملحق الثقافي الأميركي في السفارة الأميركيّة في القاهرة، كمكافأة له على إخلاصه لهذه المخابرات، على مختلف الأصعدة، وكان ردّ فرناند لوغرو: "إنّني فخور بكوني أحمل الجنسيّة الأميركيّة الآن، ولكنّي لا أخون بلدي الأصليّ مصر، كما لا أخون الولايات المتّحدة".

ويذكر فرناند لوغرو عن التجارة عن التجارة التي يحبّها ويفضّلها، بعض أعماله التجاريّة، بعيدًا عن اللوحات التي كانت تلاقي النجاح الهائل أيضًا، منها تجارة المباني والمنشآت السياحيّة في البرازيل وجزر الكاراييب، التي ضاعفت ملايينه. ومن

المعروف أنّه كان يحبّ الأوسمة والنياشين لا لشيء إلاّ للسخرية من القدر، وهذه الأوسمة والنياشين كان يملك منها الكثير، ومنها وسام عربي من المونسينيور "جورج حكيم" مطران الكاثوليك سابقًا الذي أصبح البطريرك "مكسيموس حكيم"، وقد منح له هذا الوسام في ١٥ حزيران ـ يونيو ١٩٥٥، وهو وسام "الصليب من الدرجة الأولى"، ويقول فرناند: "استطعت الحصول على وسام من المنظّمة العسكريّة للحلفاء بتاريخ ٢٤ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٨ بلقب ضابط أركان حرب للشجاعة التي أبديتها أمام العدوّ الألماني في الجبهة". وكان الوسام عبارة عن ميداليّة آيزنهاور. ولكنّ مانح الوسام نسي أنّ فرناند لوغرو لم يكن بحياته ضابطًا كما لم يكن هناك أيّ جبهة منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٤٥.

كانت هذه الأوسمة تأتي نتيجة علاقات شخصيّة وصداقات حميمة وأحيانًا بالهدايا والأموال. ويحكي فرناند أنّه في أحد الأيّام تملّكته الرغبة في أن يتحدّى القدر ويعيد قصّة الديبلوماسي الفرنسي "بيرل موسميه" الذي ضبط في "سنترال بارك" في نيو يورك في وضع شاذ، فذهب إلى هناك وكان له ما أراد، ولكنّ البوليس الأميركي ألقى القبض عليه واقتاده إلى المركز حيث طلب فرناند من قائد شرطة هذا المركز أن يتّصل له برقم معيّن ويقول لهم إنّه يتحدّث من قبل "كوليبري"، وهي كلمة سرّ أو إسمه الحركي لدى المخابرات الأميركيّة، وكان أن تمّ إطلاق سراحه بعد لحظات، فخرج وهو يرمق قائد الشرطة بابتسامة ساخرة.

وقد كُلّف فرناند لوغرو بمهمّة صعبة في الصين الشعبيّة، وكانت المهمّة في ذلك الوقت تقضي بأن يسافر إلى "يون نام" ليلتقي بالجنرال "يوهان". وهذا الجنرال كان يهتمّ بتجارة السلاح، وبشكل خاصّ بتجارة الأفيون. وكانت له مع المخابرات الأميركيّة علاقات جدّ سريّة، وكان المطلوب من الجنرال يوهان أن يعمل على وقف تدفّق

الأسلحة لبضعة أشهر نحو ثوّار الفيتكونغ، وأن يوجّه تجارة الأفيون نحو الدول الشيوعيّة لقاء عدّة ملايين من الدولارات، فقام بمهمّته هذه خير قيام. ولدى عودته أضاع المرافق الصيني الذي كان دليله على الطريق، فوقع في قبضة إحدى الدوريّات الصينيّة وأخذ إلى سجن المخابرات الصينيّة بانتظار التحقيق. ولكنّه استطاع الهرب بعد ليلة قضاها وبمعاونة أحد الحرّاس الحمر، فقد كان عند الرجل دائمًا الوسيلة الكفيلة بتليين الحديد، والإنسان صينيًّا كان أم غيره ليس من حديد.

مهمّة أخرى كلّف بها فرناند لوغرو في الشرق الأقصى كادت أن تودي بحياته. فقد كان عليه اكتشاف الخطوط التي تمرّ عبرها الأسلحة المهرّبة بين "برمانيا" و"تايلاند". وذهب إلى هناك بحجّة أنّه راقص جاء ليدرس الرقص الفولكلوري في المنطقة الحدوديّة بين البلدين. وكاد أن يتسمّم من جرّاء تناوله لنوع خاص من السلَطة المعروفة في تلك المنطقة، وهي سلَطة غريبة تختلط فيها الخضار باللحوم والأسماك ومشتقّاتها مع التوابل الحارّة.

كان الأمين العام لمجلس الأمن، في حينه، داغ هامرشولد، قد عرّف العميل فرناند لوغرو إلى صديق من ليبيريا يدعى "أدولفوس تولبير"، الذي كان قد حضر إلى الأمم المتّحدة من أجل قضايا تتعلّق ببلاده حيث كان والده نائبًا لرئيسها. وبناء لنصائح أدولفوس، استثمرّ فرناند أموالاً في مونروفيا عاصمة ليبيريا، في شركات هامّة جعله أدولفوس مديرًا عليها. وبموافقة هذا الصديق الليبيري، نظّم فرناند فرعًا خاصًّا من تجارته للتجارة بالسلاح الخفيف، طالما أنّه بعد مهمّاته في هذا المجال قد أصبح مطّلعًا على أسرار هذه التجارة، وكان التهريب يتمّ عبر مرفأ مونروفيا. وقدّم تولبير بمساعدة والده طبعًا، جواز سفر دبلوماسي لتسهيل أسفاره. وكان فرناند يشتري السلاح من أوروبّا ويرسله إلى مونروفيا، ومن هناك يتّجه إلى أماكن مختلفة من العالم.

كان فرناند لوغرو قد أصبح أسيرًا لأحلام ذهبيّة واسعة بعدما أعلن ملك بلجيكا في حزيران ـ يونيو ١٩٦٠ إستقلال الكونغو، ثمّ انضمّ هذا البلد في أيلول ـ سبتمبر من نفس السنة إلى الأمم المتّحدة. وكان "موييس تشومبي" ينوي الانفصال بكاتانغا عن الكونغو، وكان تشومبي يحوز على اهتمام النخابرات الأميركيّة بسبب رغبته في الانفصال عن الكونغو التي كانت تتّجه نحو خطّ إشتراكي نوعًا ما، وهو ما أزعج المخابرات الأميركيّة لأنّ ذلك يعتبر مضرًا بمصالح الأميركيّين ومخطّطاتهم. وكان هامرشولد يريد الوحدة للكونغو. ومن أجل دعم لومومبا، بطل الوحدة وخصم تشومبي، فقد استطاع هامرشولد الحصول من مجلس الأمن الدولي على قرار بإرسال قوّات دوليّة إلى البلاد. وهو ما أغاظ الأميركيّين وأغاظ أيضًا فرناند لوغرو المتحمّس لأميركا ومخابراتها، رغم صداقته المميّزة لهامرشولد. ثمّ أطاح قائد الجيش موبوتو بلومومبا، وقام بسجن تشومبي كما هو معروف. وعندما قُتل لومومبا في شباط ـ فبراير ١٩٦١، اتّهم هامرشولد تشومبي بتدبير قتله، ثمّ جاء اعتقال تشومبي ثمّ إطلاق سراحه استنادًا لوعد منه بتوحيد البلاد، ولكنّه خنث بوعده. فتمّ حينئذ تجريد الجيش الكاتنغي من السلاح من قبل قوّات الأمم المتّحدة، حيث كان لفرناند دور في كلّ ذلك، وكان يقضي الأسابيع بين نيويورك وواشنطن والكونغو، حتّى وصلت به الأمور من التدخّل بالسياسة لزيارة تشومبي في سجنه الذي لم يدم طويلاً.

وصلت الحال بفرناند أنّه بدأ يكره هامرشولد حيث اعتبره مسؤولاً عن كلّ ما حصل من مشاكل في الكونغو، فقام بمساعدة تشومبي باستقدام المرتزقة للحرب في كاتانغا. وعندما وجدت الأمم المتحدة أنّ الانفصال واقع لا محالة وأنّ الدولة الانفصاليّة تدافع جيّدًا عن نفسها، بدأ التفكير بعمل عسكري ضدّها من قبل الأمم المتّحدة. وسافر هامرشولد لإقناع تشومبي بعدم الانفصال قبل أن تتمّ الحملة العسكريّة ضدّه. وكان

الموعد بين الرجلين في "تدولا" داخل روديسيا الشماليّة. والتقى فرناند بهامرشولد في "ليوبولدفيل"، وكان سيركب الطائرة معه، لكنّه أحرج لأنّ معه مرافقًا من ذوي الوجه الحسن، ومن المعروف أنّ فرناند لوغرو عميل المخابرات الأميركيّة هذا، كان يتباهى بشذوذه، ويُعتقد أنّ هامرشولد هو الذي أمر بمنع فرناند لوغرو من الركوب معه في طائرة واحدة ومعه صديقه الشاذ. و"ربّ ضارّة نافعة"، فقد كان منع فرناند الشاذ من ركوب طائرة هامرشولد سببًا في إنقاذ حياته، لأنّ الجميع يعرف أنّ الطائرة قد تحطّمت بعد ذلك بتدبير من المخابرات الأميركيّة، ومات داغ هامرشولد بتاريخ ١٨ أيلول - سبتمبر ١٩٦١. وذهب فرناند بنفسه لحضور جنازته في ستوكهولم، وقد حضر هذه الجنازة الكثير من الرؤساء والسياسيّين، ومنهم ليندن جونسون الذي كان نائبًا للرئيس الأميركي جون كينيدي...

تتابعت الأحداث في الكونغو، فاستقلّ تشومبي بمساعدة مرتزقته فرناند في كاتانغا، وأدرك فرناند أنّ استقلال كاتانغا لن يدوم طويلاً، وأنّه إذا كان سيستفيد من الوضع فعليه أن يعمل بسرعة، ويستفيد من الوقت والفرص التي لن تتكرّر، فذهب إلى سويسرا لدراسة تطبيق مخطّط كان يراوده منذ زمن، وقد أُعجب تشومبي بهذا المخطّط لغرض في نفسه، فمنح فرناند لوغرو جوازًا دبلوماسيًّا يحمل رتبة "وزير مفوّض".

في سويسرا طلب فرناند من "أليبف بنك" الذي كان يعرف مديره معرفة شخصيّة، ومن بنك "إنترا" الذي كان يعرف أيضًا مديره اللبناني الفلسطيني الأصل "يوسف بيدس" أن يطبعا له عملات كاتنغيّة بقيمة مائة مليون دولار، على أن تضمن قيمة هذه الطبعة شركة اتّحاد مناجم كاتانغا العليا، التي كان تشومبي قد أمّمها، وقد عهد بطبع هذه العملة إلى مطبعة "روتو - ساداغ" تحت حماية البوليس السويسري.

بعدما تمّ الطبع، طلب فرناند من المصرفَين أن يبدلا نسبة ثمانية على عشرة من الأوراق النقديّة الكاتانغيّة بدولارات أميركيّة بلغت ٨٠ مليون دولار، استلمها فرناند لوغرو وحملها عائدًا إلى "إليزابيت فيل" العاصمة بطائرة خاصّة، تاركًا العشرين مليون دولار للحكومة الكاتانغيّة لإبعاد الشبهة، وقام باقتسام المبلغ مع تشومبي، ما سبّب في ما بعد خسارة فادحة للمصرفَين المذكورين، فكانت مأساة إفلاس بنك إنترا اللبناني في حينه...

***

كُلّف فرناند لوغرو بالاتّصال برئيس شركة البترول الوطنيّة الإيطاليّة "أنريكو ماتي" الذي كان يؤيّد الدول المنتجة للبترول ضدّ المصالح الأميركيّة لمحاولة إقناعه بالعدول عن مناهضة المصالح الأميركيّة العداء وإبداء النصح له. فقام فرناند بعدّة رحلات معه في طائرته الخاصّة وتباحث معه في هذه الأمور، وكان ينقل نتيجة هذه المحادثات إلى المخابرات الأميركيّة أوّلاً بأوّل عبر قنوات خاصّة. وفي ٢٧ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٢، طُلب أليه في آخر لحظة أن يمتنع عن ركوب الطائرة مع هذا الرجل... وسقطت الطائرة الخاصّة في مطار "لينات" قرب ميلانو، وقُتل فيها رئيس شركة البترول الوطنيّة الإيطاليّة. وأدرك فرناند لوغرو أنّ سقوط الطائرة هو لعبة المخابرات الأميركيّة الجديدة للأشخاص غير المرغوب في استمرارهم أو في بقائهم في أدوارهم.

بالعودة إلى موضوع صديق فرناند لوغرو موييس تشومبي الذي انتهت مغامرته الانفصاليّة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٣، حيث هرب إلى إسبانيا، فقد كثرت وارتفعت ملايين الدولارات في رصيد فرناند من وراء صفقات السلاح لكاتانغا ومن جرّاء صفقة العملة الكاتانغيّة في سويسرا، وأثناء مغامراته هذه، فقد فرناند لوغرو

صديقتين من أهمّ الصديقات لديه، وهما "مارلين مونرو" التي انتحرت أو نُحرت، و"إديت بياف" المغنيّة الفرنسيّة الشهيرة، فقرّر العودة إلى باريس والإستقرار بها، فاشترى بيتًا في جادة "هنري مارتان" بمبلغ ثلاثين مليون فرنك فرنسي، كان ملك ثريّ عربي معروف سبق أن أهداه إلى الممثّلة "إينشيكا شورو"، التي اعتزلت التمثيل، لأنّ مبلغ الثلاثين مليون فرنك فرنسي ثمن البيت من رقبة الثري العربي ما كانت تحلم بجمعه حتّى لو مثّلت مئات الأفلام...

أقام فرناند في منزله الجديد العامر بالذكريات... فجعله جنّة أرضيّة بحديقته ومسبحه الصيفي والشتوي، كما جعل قبضات الأبواب من الذهب الخالص، والشبابيك والأبواب طلاها بالذهب الأصفر، حتّى حنفيّات الماء طليت بالذهب أيضًا، وركّبت أجهزة الهاتف الذهبيّة في أرجائه، ومع كلّ هذه الرفاهيّة، سرعان ما ضجر فرناند من باريس، وقرّر التغيير، فسافر إلى إسبانيا، واتّجه إلى جزيرة "إيبيزا" الساحرة، وقد استطاع أن يشتري فيلاً في مكان رائع يشرف على البحر حيث ضمّها إلى فيلاّته وشققه الكثيرة. وقد عرّج على مدينة مدريد وزار صديقه تومبي الحزين، فوجده لا يزال يأمل بالعودة يومًا ما إلى كاتانغا...

سنة ١٩٦٣، وفي اليوم نفسه الذي اغتيل فيه الرئيس جون كينيدي، كان فرناند لوغرو في مدينة دالاس أيضًا يقوم بإنجاز عمليّة بيع لوحات، فصعقه الخبر، لأنّ كينيدي وزوجته جاكلين كانا يحبّان كثيرًا الرسم والفنّ، في حين أنّ الرئيس الأميركي السابق آيزنهاور كان يكره المتاحف. لقد وصل حبّ الرئيس كينيدي للفن أنّه أصدر قانونًا لا يزال ساري المفعول يعفي من الضرائب كلّ الأموال التي تُشترى بها اللوحات الفنيّة المخصّصة للمتاحف. أمّا "ليدي بيرد" زوجة الرئيس الجديد ليندن جونسون فقد أخرجت فور دخولها البيت الأبيض لوحة للفنّان "مونييه" كانت جاكلين

كينيدي قد اشترتها... وكان فرناند لوغرو يعرض لوحاته في جميع أنحاء العالم، وكان بعض الأثرياء العرب يشترون لوحاته الخاصّة. وحسب قوله إنّه في عام ١٩٦٤ كلّفته المخابرات الأميركيّة بمهمّة في الخليج العربي، وحمل معه لوحة للفنّان "رينوار"، وهي تمثّل امرأة عارية، اشتراها منه ثري عربي في إحدى الإمارات. والطريف في الأمر أنّ فرناند لوغرو تعرّف عند هذا الثري إلى أحد كبار مهرّبي الذهب في الشرق الأوسط الذي شكا له صعوبة تهريب الذهب إلى بيروت، وكانت بيروت في حينه جوهرة مدن الشرق الأوسط والدول العربيّة، فوعده فرناند بتسليمه الكميّة التي يريدها من الذهب وأكّد له أنّ مكان التسليم هو بيروت...

توجّه فرناند إلى جنيف في سويسرا واشترى طنًّا من الذهب دفع ثمنه نقدًا من حسابه الذي يحوي الملايين، وبدأ هناك ما يمكن أن يسمّى أهمّ عمليّة تهريب وأطرفها في التاريخ. فمن جنيف نقل فرناند بمساعدة فرقة مسلّحة استأجرها خصيصًا كميّة الذهب بسيّارة شحن عبر بها الحدود السويسريّة الإيطاليّة من مكان معيّن، بعيدًا عن أعين الجمارك والبوليس، حتّى وصل الذهب إلى ميلانو، فاتّفق مع أحد الإيطاليّين ليذوّب له الذهب ويصنع منه مرساتين تزن الواحدة منهما ٥٠٠ كيلوغرم، ثمّ طُليت المرساتان بمادة الصدأ، ثمّ تمّ نقل المرساتين بشكل طبيعي إلى مرفإ جنوى حيث تمّ تركيبهما على يخت كمرساتين للطوارئ، ورفع اليخت العلم الليبيّ إبّان حكم الملك إدريس الذي كان يشتري الأسلحة من العميل فرناند، لذلك كانت كلّ الأوراق صالحة ومضبوطة، فأبحر اليخت باتّجاه بيروت، بينما سافر فرناند بالطائرة إلى العاصمة اللبنانيّة، لتحضير وصول واستقبال اليخت الليبي، وقد وصل اليخت إلى ميناء بيروت ورسا في المنطقة الحرّة منه. وفي الليل صعد فرناند إلى اليخت وبمساعدة بعض رجال الضفادع المأجورين تمّ فكّ المرساتين الذهبيّتين ونقلهما إلى البرّ حيث تمّ نقلهما

بواسطة سيّارة شحن إلى منطقة صاحب عمليّة التهريب، وجنى فرناند من وراء هذه العمليّة أرباحًا طائلة.

***

في عام ١٩٦٤، تولّى منصب رئاسة مجلس الوزراء في اليابان "إيساكو ساتو"، وكان فرناند لوغرو صديقه ويعرفه جيّدًا. وكانت فرصة فرناند لكي يجعل هذا الرجل يشتري للمتاحف اليابانيّة بعض اللوحات الفنيّة التي كان يملكها، وما هي إلاّ زيارة إلى طوكيو حتّى أقنع رئيس الوزراء بشراء لوحات بقيمة عشرين مليون دولار بموجب عقد رسميّ يحوّل المبلغ بموجبه إلى حسابه في سويسرا.

لكنّ رئيس الوزراء الياباني أصرّ، بالإضافة إلى وجود شهادة موقّعة من خبير، والتي ترافق كلّ لوحة، على أن يتضمّن ملفّ كلّ لوحة "ضمانًا خطيًّا من شخصيّة فنيّة عالميّة"، ولم يكن الأمر صعبًا على فرناند لوغرو، وهو عميل ومحتال بنفس الوقت. ففكّر فورًا في الكاتب والأديب والمفكّر الفرنسي المعروف الشهير "أندريه مالرو"، ووافق رئيس الوزراء الياباني على هذا الاختيار، فبالإضافة إلى كون مالرو شخصيّة فكريّة عالميّة، كان في ذلك الوقت وزيرًا للثقافة الفرنسيّة، فكان اللقاء بينه وبين فرناند في جنيف أثناء زيارة قصيرة، وتمّ الاتّفاق على السيناريو الآتي:

عندما أصبحت اللوحات المائتان معلّقة على جدران متحف الفنّ الغربي في طوكيو، لعرضها قبل شرائها النهائيّ، حضر الأمبراطور شخصيًّا لرؤيتها، ثمّ حضر وزير الثقافة الفرنسي، شريك فرناند بالعمليّة، إلى طوكيو، بزيارة ثقافيّة. وذهب في اليوم التالي إلى المتحف المذكور، وأعطى تصريحًا صحافيًّا مسبق الصنع للصحافيّين قال فيه "كيف يمكن نزع هذه اللوحات الثمينة والتحف النادرة من فرنسا؟"، وبعد أسبوع كان ثمن اللوحات قد وصل إلى حساب فرناند في سويسرا...

سنة ١٩٦٥، اغتيل الزعيم المغربي المناضل المهدي بن بركة بعد خطفه من باريس، فتأثّر فرناند لوغرو كثيرًا لأنّ المهدي بن بركة كان قد اتّصل في تلك السنة بالذات بفرناند وطلب منه شراء بعض اللوحات الثمينة التي سبق أن باعها فرناند لبعض أعضاء جبهة التحرير الجزائريّة، والتي وقعت بين يديه. ووعده فرناند بأن يجد له من يشتريها... وفعلاً وجد له فرناند الشاري، ولكن إبن بركة كان قد اختُطف وتمّت تصفيته.

في ذلك التاريخ، قرّر فرناند أن يقوم بزيارة رؤساء بعض الدول في الكاريبي وأميركا الوسطى، ومنهم: سوموزا في نيكاراغوا، وفرنانديز في كوستاريكا، وأريلّلو في هندوراس، ودوفالييه في هايتي، وتروجيلو في جمهوريّة الدومينيكان. وكان في اتّصالاته يقدّم نفسه على أنّه "تاجر لوحات"، كغطاء لمهمّاته الأخرى المطلوبة منه من قبل المخابرات الأميركيّة. فالحقيقة أنّ الولايات المتّحدة، أو مخابراتها على الأصحّ، كان يهمّها في ذلك الوقت تقوية نفوذها في هذه البلاد، لتحفظ التوازن مع النفوذ السوفياتي القويّ في كوبا. ولكنّ فرناند كان يقدّم نفسه أيضًا، عندما تسمح الظروف، كمورّد سلاح. وكان هؤلاء الرؤساء يحتاجون إلى الكثير من السلاح لحماية أنفسهم من الانقلابات المتوقّعة ضدّهم التي يخشونها، وفي هايتي بالذات حقّق فرناند إحدى أهمّ صفقاته التجاريّة بسبب علاقاته هذه. لقد اشترى من أحد الصناعيّين النيويوركيّين مصنع نسيج على وشك الإفلاس بمبلغ ٨٠٠ ألف دولار، واستطاع إنعاش المصنع بإضافة طبع القماش في اليابان بواسطة تسهيلات من رئيس هايتي، وبعد عام أعاد بيع المصنع بمبلغ ٢٠ مليون دولار...

***

كان فرناند لوغرو يحمل سبعة جوازات دبلوماسيّة كسفير فوق العادة، ممّا كان يسهّل له الكثير من الأمور، حتّى أنّه كان يخلط بينها أحيانًا فيدخل إلى بلد ما كسفير لنيكاراغوا ويخرج سهوًا كسفير لسيراليون... وفي يوم من الأيّام كان فرناند مجتمعًا مع "جورج بومبيدو"، وكان في حينه رئيس وزراء فرنسا، وبآخرين. وأثناء الحديث قال فرناند، وكان يمازح رئيس الوزراء ومن معه: "إنّني فخور لكوني يونانيًّا"، إذ إنّه كان يحمل الجنسيّة اليونانيّة أيضًا، وإضاف: "ليس فقط لعظمة اليونان القديم، ولكن لأنّه البلد الوحيد الذي تجرّأ رئيس وزرائه ومدح الحبّ اليوناني بين الشبّان في كتاب محاورات آثينيّة، في عام ١٩٦٠، وهو رئيس الوزراء باناوينتيس كانيللو بولوس. في حين أنّ مجلس النوّاب الفرنسي، رغم أنّ فرنسا بلد الحريّات، أقرّ بالإجماع قانونًا يعتبر الشذوذ مشكلة إجتماعيّة كبرى ويحرّمه قانونًا"... فأجاب رئيس الوزراء الفرنسي بومبيدو قائلاً: "ألفت نظرك يا عزيزي فرناند إلى أنّني لم أكن في ذلك الوقت نائبًا... أمّا الآن، فهناك اثنان من وزرائي مثليّان"...

كان فرناند على علاقة وطيدة مع بيكاسّو، وفي كلّ مرّة كان يذهب إليه في إسبانيا ليطلب منه شهادة للوحة إسبانيّة، كان بيكاسو يسأل فرناند أوّلاً: بكم اشتريتها؟ فيجيب فرناند دائمًا: بخمسين ألف دولار... وكان هذا السعر المرتفع يؤثّر في بيكاسو فلا يعود يدقّق في أصل اللوحة، ويعطي فرناند شهادة بصحّتها وأصالتها.

كان فرناند لوغرو ملتحيًا يضع نظّارات سوداء كبيرة وقبّعة سوداء ذات شكل مكسيكيّ، حيث كان مرّة في نيويورك في هذا الزيّ الملفت للنظر، فأحبّ الدخول مع صديق له إلى أحد النوادي، ولكنّ فتاة الاستقبال رفضت السماح له بالدخول بحجّة شكله غير اللائق، رغم أنّ بإمكانه شراء، أو بالأحرى لديه أغلى الملابس. ومع ذلك فقد طُرد من النادي الراقي من أجل لباسه الفولكلوري، وقد تأثّر كثيرًا أمام صديقه...

وبعد أيّام طلب من نفس الصديق أن يذهبا لنفس النادي لعلّ الأمور تكون قد تغيّرت، وذهبا، وتكرّر الموقف نفسه ومُنع من الدخول، فعزّ على نفسه ذلك، وقبل أن تغلق الفتاة الباب، وضع رجله ممانعًا ودخل عنوة إلى النادي مع صديقه، فطلب مدير النادي البوليس، فاقتادوه ولكن بلطف ودون إزعاج إلى الإدارة، وهناك قال لهم إتّصلوا بهذا الرقم لتعرفوا هل يحقّ لي الدخول إلى هنا أم لا. وهكذا كان لأنّ الرقم الذي أعطاه لهم هو رقم رئيسه في المخابرات الأميركيّة، ومع أنّ الاتّصال بالمخابرات كان سبب دخوله النادي، إلاّ أنّه بكرمه جعل الجميع يندم على منعه من الدخول وقدّموا له الاعتذارات الشديدة.

***

من المعروف أنّ الزعيم الجزائري "محمّد خيضر" كان بمثابة وزير المال للثورة الجزائريّة، وكان يجمع المال للثورة الجزائريّة من كافّة الدول العربيّة والإسلاميّة بتفويض من مجلس الثورة الجزائريّة والحكومة الجزائريّة الموقّتة في حينه. وبالتالي كانت الحكومة الموقّتة تشتري مختلف الأسلحة للمجاهدين الجزائريّين، وكانت سويسرا إحدى محطّات شراء الأسلحة، ممّا جعل فرناند يتعرّف على محمّد خيضر هناك ويعرض عليه خدماته في عمليّة شراء الأسلحة. وكانت النتيجة ضياع بعض ملايين الثورة، ومع هذا فقد أقام فرناند أيضًا صداقة وطيدة مع أحد قادة الثورة المعروفين "كريم بلقاسم" الذي تعرّف إليه في الأمم المتّحدة وقد دعاه بلقاسم إلى لقاء في فندق "كونتينانتال أنتر" في فرنكفورت، فلمّا جاء إليه في الموعد المحدّد كان أمام مفاجأة رهيبة، فقد وجد الزعيم الجزائري كريم بلقاسم مخنوقًا في غرفته... ووجدت على جسمه آثار مقاومة. وكان واضحًا أنّه تعرّض لهجوم من قبل عدّة أشخاص، ولم يملك قدرة التغلّب عليهم لأنّه لم يكن يحمل في يده سلاحًا لصدّهم،

أمّا السبب في أنّ الرجل لم يكن يحمل سلاحًا في حينه فقد علم فرناند في ما بعد من أحد المقرّبين إلى الزعيم الجزائري أنّه لدى مغادرته للأراضي السويسريّة باتّجاه فرانكفورت، أخذ موظّفو الجمارك مسدّسه منه حسب الأصول المتّبعة لديهم ووعدوه بأن يعيدوه له عند عودته من فرانكفورت، وهكذا حضر إلى فرانكفورت أعزل من السلاح.

حزن فرناند حزنًا شديدًا على وفاة صديقه بلقاسم لأنّه كان يأمل منه الكثير حيث كان ينتظر صعوده سياسيًّا فضلاً عن مساعدة بلقاسم لفرناند في بعض القضايا التي تعرّض لها ووقوفه بجانبه. لقد كلّف بلقاسم فرناند الكثير من المال من ولائم وهدايا وحسابات فنادق كان يسدّدها عنه ويتركها مفاجأة له ليزيد من تأثيره عليه، وكان فرناند ينتظر أن يحقّق المكاسب الكبرى من وراء بلقاسم خاصّة وأنّ بلقاسم كان قد أجرى اتّفاقًا مسبقًا مع الأميركيّين عبر توصية من المخابرات الأميركيّة، وينصّ هذا الاتّفاق على أنّه إذا وصل بلقاسم إلى الحكم في الجزائر، ويظهر أنّ بلقاسم كان يخطّط من وراء زملائه أعضاء جبهة التحرير الوطني الجزائريّة والرئيس هواري بو مدين للوصول إلى أن يكون رئيسًا للجزائر في تلك الحقبة التي أعقبت الاستقلال، سوف يعطي الأميركيّين حقّ استغلال الغاز والبترول الجزائريّين لشركات أميركيّة، كما اتّفق على موافقته مستقبلاً على إنشاء سلسلة من الفنادق الأميركيّة أيضًا بالإضافة إلى شركة لإنتاج الأفلام السينمائيّة، وكذلك إنشاء ستوديو سينمائي يكون البديل في الشرق لستوديوهات هوليود، وهو شيء سبق أن وعد به "يوسف بيدس" لينفّذه في منطقة "مونتي فردي" قرب بيروت. كما كان فرناند يخطّط أيضًا في حال نجاح كريم بلقاسم أن يحصل على جواز سفر جزائري يضمّه إلى مجموعة جوازاته العديدة كسفير فوق العادة للجمهوريّة الجزائريّة.

كانت الاتّفاقات التي ذكرناها قد ضُربت على الآلة الكاتبة من قبل "دانييل" سكرتيرة فرناند التي كان بلقاسم قد أنشأ معها صداقة، وكان يرتاح لها. وطبعًا هذه الصداقة كانت طعمًا لبلقاسم. وجاء مقتله ليلغي المشروع برمّته لأنّه كان على وشك البدء بتنفيذه، فالمخطّط قد أعدّ لقلب نظام حكم الرئيس بومدين، والسلاح قد أدخل إلى الجزائر بمساعدة فرناند وغيره من عملاء المخابرات الأميركيّة، ولم يبق سوى تحديد ساعة الصفر للتنفيذ والإطاحة بالرئيس بومدين، ولهذا السبب جرى اغتيال بلقاسم في فندقه. كما تمّ بنفس الوقت، من جهة أخرى، خطف تشومبي إلى الجزائر لإغاظة فرناند وتقليم أظافره... وهكذا فقد فرناند بعض كبار أصدقائه واحدًا تلو الآخر، ولكنّه لم يفقدهم جميعًا، فإنّ "محمود فوزي" كان لا يزال من رجال الحكم في مصر، و"جورج بومبيدو" أصبح رئيسًا للجمهوريّة في فرنسا، وها هو يقضي سنته الثانية في الرئاسة... بالإضافة إلى أصدقائه من رؤساء جزر الكاريبي وأميركا الوسطى وكذلك الجنرال "سفرويسنر" في الباراغواي.

عندما نشبت في سويسرا فضيحة مخطّطات طائرات الميراج في شهر نيسان ـ إبريل ١٩٧٠، التي اتُّهم على أثرها المهندس السويسري "ألفرِد فراونخت" بتسليم المخابرات الإسرائيليّة "الموساد" حوالى ٢٠٠ ألف صفحة من مخطّطات طائرة "ميراج ـ ٢" التي كانت قيد التجميع في سويسرا لصالح الحكومة السويسريّة، كان فرناند قد كُلّف من قبل ضابط مخابرات عربي كبير كان يقيم في سويسرا للاطّلاع على مثل هذه المؤامرات، بالتحرّي عن موضوع سرقة تصاميم طائرات الميراج، وكان لا يزال يقيم في سويسرا ينتظر حكم القضاء السويسري العريق في قضيّة لوحات فنيّة مزوّرة كان قد باعها إلى عدد من الأثرياء أثبتوا في ما بعد أنّها لوحات مزوّرة، فأقاموا على فرناند لوغرو الدعاوى التي جُمعت لدى محكمة البداية الجزائيّة

في جنيف بدعوى واحدة، وكانت الجلسات تؤجّل الواحدة تلو الأخرى، وقد استطاع فرناند خلال وجوده في سويسرا أن يتابع نشاطاته في العمالة والاحتيال، سواء في بيع اللوحات أو في ميدان الأسلحة، وقد تعرّف بطرقه الخاصّة على الأمبراطور السابق للحبشة "هيلاسيلاسي" لدى حضوره إلى سويسرا، وحصل على ثقته، وأصبح ليس فقط وسيط استثماراته في سويسرا، بل مورّد الأسلحة له، حتّى أنّه قام برحلة سريّة إلى أديس أبابا، عاصمة الحبشة، لم تعلم بها السلطات السويسريّة، لأنّه مُنع بأمرٍ قضائي من مغادرة الأراضي السويسريّة بانتظار صدور الحكم عليه في قضيّة اللوحات المزوّرة... غير أنّ الأمبراطور هيلاسيلاسي لم يكن يحبّ اللوحات الفنيّة ولم يستطع فرناند أن يبيعه لوحة واحدة رغم أنّه كسب منه آلاف الدولارات من جرّاء بيعه الأسلحة.

أخيرًا قرّر فرناند الهرب من سويسرا قبل أيّام من صدور الحكم، لأنّه كان يخشى الحكم عليه بالسجن، وقد رتّب قضيّة هروبه مع بعض ممّن يعتبرهم أصدقاءه، وكأنّها قضيّة خطف، فاستطاع السفر على متن طائرة خاصّة بواسطة جواز سفر دبلوماسي كسفير لهندوراس إلى مدريد أوّلاً، ثمّ إلى نيويورك، ولا أحد في سويسرا يدري أنّ العميل فرناند قد سافر بهذه الطريقة سوى أصدقائه الذين أثاروا فضيحة في الصحف عن اختفائه المفاجئ... فاهتمّت الشرطة السويسريّة بالأمر، وسُجّل الأمر لديهم بأنّه "عمليّة اختطاف"، نتيجة الآثار التي سجّلتها الشرطة في دارته من اقتحام وتكسير... وهكذا أثار فرناند العميل ضجّة من حوله أخفت الضجّة المنتظرة من الحكم في قضيّة اللوحات المزوّرة الماثلة أمام القضاء السويسري في حينه.

وجاء موعد الحكم، وصدر على فرناند حكم بالسجن ثمانية أشهر "مع وقف التنفيذ"، وحكم آخر بالإبعاد عن سويسرا لمدّة عامين. وهكذا خرج فرناند من هذه

القضيّة المعقّدة الطويلة التي دامت محاكتمها خمس سنوات، بريئًا ناصع البياض، بعدما صرف في سويسرا حوالى عشرين مليون فرنك سويسري، لتمشيط الألغام المزروعة على طريق براءته.

في فندق الخمس نجوم في نيويورك قرأ فرناند لوغرو في الصحف الأميركيّة أنباء الحكم عليه، فسُرّ كثيرًا رغم أنّ الحكم يمنعه من المكوث في سويسرا لمدّة سنتين، لأنّه لا يقيم للحدود الدوليّة وزنًا بالنسبة لحمله العديد من جوازات السفر الدبلوماسيّة، وأغلبها بأسماء مغايرة لاسمه، ويحمل بها لقب "سفير"، أو "سفير فوق العادة". وكانت القضيّة الثانية التي أُقيمت عليه بتهمة "تزوير لوحات فنيّة عالميّة وبيع المزوّر" في مدينة تكساس الأميركيّة أمام القضاء الفرنسي بباريس إستنادًا لإقامته عند المقاضاة في عاصمة النور. وكان القضاء الفرنسي قد غيّر ثلاثة قضاة في هذه القضيّة حتّى أصبح مجموع ملفّ فرناند فيها خمسين كيلوغرامًا... وكانت المحكمة قد طلبت بمذكّرة رسميّة عن طريق وزارة العدل الفرنسيّة من البوليس الدولي "الإنتربول" إلقاء القبض عليه وإعادته إلى فرنسا للمحاكمة فيها لأنّه كان يعتبر أنّ القضاء الأميركي في ولاية تكساس، مكان بيع اللوحات، هو الجدير فقط بمحاكمته، لأنّه كان يعرف مسبقًا أنّ القانون هناك يخلو من موادّ تحاكم التزوير في الفنّ أو اللوحات الفنيّة. وكان محاموه الذين بلغ عددهم أكثر من عشرين محاميًا من مختلف البلدان والجنسيّات، يتابعون القضيّة باهتمام شديد، كما تتابعها الصحف والمجلاّت على اختلاف أنواعها. وكان همّهم نقض أو إلغاء طلب استرداده بواسطة الإنتربول إلى فرنسا. وأخيرًا اختار فرناند الهرب إلى البرازيل، لأنّ له هناك ملجأ، ولكنّ الحظّ لم يحالفه في البرازيل رغم ثرائه، فوقع في قبضة رجال البوليس، ثمّ أحيل إلى القضاء البرازيلي الذي قام بدراسة ملفّ إعادته إلى فرنسا، وهذا النوع من القضايا يستغرق الكثير من الوقت لغاية

السنوات... ولكنّ فرناند بطرقه الخاصّة، حولّ سجنه إلى فندق من الدرجة الأولى، فكان يتناول أفخر المأكولات التي كانت تقدّم له من أضخم المطاعم وعلى أطباق من الفضّة... وكان يشرب الويسكي يوميًا في السجن، وباختصار كان له كلّ ما يريد، فالمال موجود والنفوس الضعيفة جاهزة، وهي في كلّ مكان وزمان متوفّرة ولا بدّ أن تلتقي مع أمثال فرناند. لكنّ تلك الحياة لا يمكن أن تدوم طويلاً ولو كانت حياة مرفّهة نوعًا ما، فهو إسمه سجين حتّى ولو كان يأكل ويشرب في أطباق الذهب كلّ ما يريد، وينام على فراش وثير... ففكّر فرناند بالهرب من السجن البرازيلي، وأعطى أصدقاءه التعليمات بالرموز، فحجزوا له عدّة طائرات صغيرة خاصّة، لأنّه وضع خطّة لتغيير عدّة مطارات للتمويه، وهذه الطائرات سوف تنتظره لكي يهرب بها أثناء حفلة أقامها على نفقته الخاصّة في السجن احتفالاً بعيد البرازيل القومي، وقد انضمّ إلى هذه البهجة الجميع بدون استثناء... حتّى حرّاس السطح وحاملو المفاتيح... حدث كلّ ذلك بتخطيط فعلي كما هي الحال في الأفلام السينمائيّة.

كانت خطّة فرناند كما رسمها واتّفق عليها مع أصدقائه وأعوانه، أن يكون في الويسكي الذي يقدّم للحرّاس أقراص منوّمة، ولكن ضبّاط السجن الذين بدأوا شرب الويسكي لاحظوا أنّه ذو طعم رديء، ولسوء حظّ فرناند، اكتفوا باعتباره ويسكي مغشوش، وطلبوا تغييره... فضاعت الخطّة، وتداخلت الأمور، حتّى أنّ فرناند نفسه شرب من الويسكي الأوّل الممزوج بالمنوّم ونام... بينما كان أعوانه خارج السجن على أتمّ استعداد ويضيئون مصابيح السيّارة المعدّة لنقله إلى المطار ويطفئونها، وهي علامة وجودهم والاستعداد لتهريبه، ولكنّ الرجل كان في غفوة حالمة، وكلّ ما أعدّه للهرب تبخّر في الهواء، وخسر فرناند في هذه العمليّة تكاليف حجز الطائرات الخاصّة التي يكلّف حجز طائرة منها أربعين ألف دولار، بالإضافة إلى الضمان الذي دُفع إلى

البنك. كان ذلك في شهر شباط ـ فبراير ١٩٧٤، وفي الثاني من شهر نيسان ـ إبريل من السنة نفسها، مات جورج بومبيدو رئيس جمهوريّة فرنسا، ونتيجة لموته، أحسّ فرناند بحزن شديد وقنوط حادّ وهو في سجنه البرازيلي، ولأسباب عديدة كان بومبيدو، ربّما، يفضّل أن لا يُعاد صديقه فرناند إلى فرنسا وتجري محاكمته ولا يستطيع أن يمدّ له يد المساعدة نظرًا لتصلّب القضاء الفرنسي. ولكنّ قنوط وحزن فرناند على بومبيدو تبعه فرح وسعادة وسرور لمجرّد أن أعلنت الصحف البرازيليّة أنّ فرناند سيفرج عنه ولا يعاد إلى فرنسا، وأنّ هذا القرار سيتّخذه القضاة البرازيليّون في ٢٦ نيسان ـ إبريل ١٩٧٤.

في الرابع عشر من شهر شباط ـ فبراير من العام نفسه، قام البوليس الفرنسي بالاتّفاق مع البوليس البرازيلي وبدون إذن السلطات القضائيّة المختصّة في البرازيل باختطاف العميل فرناند لوغرو من سجنه مكبّل اليدين حيث نُقل إلى مطار "ريو دو جانيرو"، ووضع في طائرة خاصّة غادرت في نفس اليوم إلى باريس، ولكنّ فرناند الذي وصل إلى البرازيل هربًا من اعتقال البوليس الفرنسي، كان حانقًا جدًّا ممّا جرى معه، ولم يحتمل فكرة إعادته إلى باريس بالقوّة وبالخطف، فأعدّ الخطّة المعاكسة، وقبل وصول الطائرة إلى باريس للهبوط في مطار "أورلي"، ذهب إلى المرحاض، وهناك ابتلع أنبوبة كاملة من مادّة "الباربيتوريك" السامّة مفضّلاً الانتحار على المثول أمام القضاء الفرنسي، ولكنّه لم يمت... حيث انتبه إليه بعد فوات الأوان أحد رجال المباحث بعد أن دخل وراءه إلى الحمّام، فوجد غلاف المادّة السامّة مرميًّا على الأرض، وهكذا جرى اتّصال مباشر من الطائرة مع السلطات المختصّة فنقل فرناند من الطائرة إلى مستشفى أورلي رأسًا حيث أجريت له عمليّة "غسل معدة". وبعد ثمانية أيّام استفاق فرناند فوجد نفسه في السجن الخاصّ بالموقوفين تحت عناية طبيّة وأمنيّة

مشدّدة. وقد نشط محاموه العشرون الذين استنفروا وحضروا إلى باريس وأبلغوا القضاء الفرنسي بأنّ موكّلهم قد اختُطف بالقوّة وأُحضر إلى باريس، وأنّ سجنه غير قانونيّ، ولكنّ ذلك لم يؤدّ إلى الإفراج عنه، رغم رفع الطلب إلى رئيس الجمهوريّة فاليري جيسكار ديستان، غير أنّ هنري كيسنجر أرسل برقيّة باسمه الشخصي ونفوذه المخابراتي إلى السفير الأميركي في باريس يقول فيها: "كيف أنّ مواطنًا أميركيًا اختطف من البرازيل إلى فرنسا من قبل رجال أمن نظاميّين وضدّ كلّ القوانين الدوليّة ولا يزال في سجن باريس"؟ وأجابه السفير في اليوم التالي: "سيدي الوزير، إستنادًا لبرقيّتكم سوف نسهر على مصير السجين وقد أرسلنا عضوًا من السفارة قام بزيارته واطمأنّ على رعايته الصحيّة، كما تقدّمت باحتجاج شديد إلى وزارة الخارجيّة الفرنسيّة واحتجاج آخر إلى وزارة العدل والقضاء العالي الذي يدرس قضيّة فرناند وذلك عن طريق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة أيضًا".

وفي واشنطن، استدعى وزير الخارجيّة الأميركيّة هنري كيسنجر السفير الفرنسي وتباحث معه في القضيّة طالبًا نقل رغبته إلى الحكومة الفرنسيّة بإصلاح هذا الخطأ، وهكذا قبل القاضي المكلّف بقضيّة فرناند أن يخلي سبيله بكفالة ماليّة قدرها ٥٠ ألف فرنك فرنسي... حتّى أنّ معاون مدير السجن حمل له بنفسه حقائبه لدى مغادرته سجن "سانتيه" في باريس، وكأيّ زعيم، كان ينتظره العشرات من "مؤيّديه" بالإضافة إلى رجال الصحافة خارج السجن.

إلاّ أنّه في منتصف شهر كانون الثاني - يناير ١٩٨٤، أدخل فرناند لوغرو السجن في فرنسا بتهمة قيادة سيّارته الرولس رويس وهو مخمور، وحكم بالسجن لمدّة أربعة أشهر. وعقب خروجه من السجن في أوّل تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٨٥، اختفى عن الأنظار نهائيًّا، ولم يعد يظهر للمغامر أيّ أثر لكلّ من يسأل عنه. رحل فرناند الذي

كان القفل والمفتاح لأسرار كثيرة، إلاّ أنّ سرّه هو، فلم يكن مفتاحه مع أحد. فقد خرج فرناند من السجن كئيبًا حزينًا وتوارى عن الأنظار في دارته بباريس، ولكنّ عائلته لم تتركه، زوجته الأميرة الإيرانيّة وولداه كانا يحيطان به حيث أصيب بمرض القلب، وأخيرًا أصيب بنوبة قلبيّة حادّة مات على أثرها وتمّ تشييعه بشكل لائق وسار خلف نعشه أصدقاء الأمس يحيطون بأرملته وأولاده بشكل مؤثّر. وهكذا انتهى عميل من عملاء المخابرات الأميركيّة نهاية طبيعيّة ذلك لأنّ فرناند لوغرو كان قد استقال من المخابرات الأميركيّة قبل ذلك التاريخ... فكان عميلاً من نوع خاصّ جدًّا[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣: ١٦٣ ـ ١٩٦.

تقنيّات جاسوسيّة

تتفنّن أجهزة الاستخبارات والتجسّس في بعض التقنيّات التي تعتمدها في أعمالها من أجل تحقيق غاياتها من دون أيّ حساب لحقوق الإنسان ولوازع الأخلاق... ومن تلك التقنيّات: عمليّات الساتر، وعمليّات المعاونة، وعمليّات اختراق الأحزاب، وتأمين العمليّات، وصفقات تبادل الجواسيس.

أمّا عمليّات الساتر، فهي عبارة عن منظمات تنشأ وتقام وتؤسس للامداد بالغطاء والمعونة وجعل العمليات تتابع مسيرها مستقلة دون أن تبدو لها أي صلة بالحكومة، ودون أن تكون الحكومة مسؤولة بوضوح عما تقوم به من نشاط، ولذلك لا يكون نشاط المنظمة هو الأمر المستتر بل يكون المستتر هو حلقة الصلة بين المنظمة والحكومة، ويحتفظ بمثل هذه المنظمات للنشاط في كافة مبادئ الحياة الدولية والحركات السياسية ومنظمات الشباب ـ حمائم السلام ـ الجماعات الدينية ـ منظمات المجتمع المدني ـ الفنون ـ دور النشر ـ مؤسسات الثقافة ـ الجمعيات والاتحادات والروابط المهنية والقطاعية المختلفة ـ جمعيات الصداقة والمؤسسات والمصارف والغرف التجارية وغيرها، وتعتبر عملية الامداد بالمال هي من أعقد المراحل في العمليات السرية، فكثيرًا منها تحل وتصفى بعد إنهاء الغرض من تكوينها، وتعتبر منظمات الساتر من أهم وسائل تنظيم استخدام الرأي العام وإخفاء عمليات تورط الحكومة المعنيّة فيها.

إن بعثـات المعونـة الفنيـة لإدارة التعـاون فـي كثـير مـن الـدول تتضمـن بعثـات للمخـابرات مكونـة مـن فنيين، وقد يعمل ضبّاط مستترون على أنهم رجـال أعمـال أو سـياح أو أشـخاص متقـاعدون أو رجـال اعـلام أو سـكرتاريات رئاسـة وفود زائرة، ذلك لأن عمليات التستر من شأنها المساهمة فـي العمليـات السـرية بإخفاء هوية المستخدم الحقيقي مـن عنـاصر المخـابرات لمنـع كشفه، وينطبق ذلك على المباني والشـقق والعربـات والطـائرات والسـفن وأسـاليب التمويـل حيث تبدو الأعمال وكأنها مشروعة، وإذا كشفت عملية واحدة لأي سبب فيـؤدي ذلك إلى كشف أمر المزيد من العمليات الأخـرى، وخصوصًـا إذا حـدث الخلـط بين عنـاصر المخـابرات العلنيـة والسرية، حيث أن هنـاك عمليات ساتر مكشوفة لا تستطيع أن تؤدي الغرض في تقديم الغطاء المطلوب لأن عناصرها معروفيـن لأجهـزة مكافحة التجسس، وإن كانوا يعملون في وظائف خارج إطار مبنى السفارة حيث من الممكن أن يقدموا عملاءهم المجندين بواسطتهم للمعاونة في تنفيذ أي من العمليات السرية.

وهناك عمليات ثانوية مهمة إلى أقصى حد تسمى "عمليات المعاونة"، وتضمن هذه العمليـات استخدام جماعـات الرقابـة لمتابعـة النـاس فـي الشـوارع واسـتخدام مراكـز لملاحظـة الداخلين إلـى المبـاني والخـارجين منهـا... والأشـكال المتعـددة للتصويـر الفوتوغرافي، والتلصص علـى المراسـلات للاطـلاع علـى البريد والمكاتبـات، وعلـى الاحصائيات والملفات السرية لمعرفة شخصية كلّ من العاملين في الشـرطة والأجهـزة الأمنية الأخرى، ومتابعة قوائم السفر والشحن بالطائرات والسكك الحديدية والبواخـر، واستخدام الأجهزة الفنيـة للتسـمع علـى المكالمـات التليفونيـة وتسـجيلها واسـتراق التسجيلات البرقية..

والواقع أن هذه العمليات يمكن أن تؤدي إلى الحصول على معلومات حساسة ذات قيمة كبيرة جدًّا، ولكن الأغلب أنها تستخدم للتعرف على شخصية كلّ من الناس المطلوب الاتصال بهم والذين يمكن تجنيدهم كعملاء لتجميع المعلومات، وتعتبر عمليات المعاونة ضرورية لمعرفة الشخصيات المستهدفة من أجل اكتشاف الدوافع التي تجعلهم يقبلون أو يرفضون المفاتحة في أمر تجنيدهم، والتعرف على نواحي نقاط الضعف والمشاكل والمطامع والاخفاقات والعداوات ونواحي القوة ومدى التقدير لحالات التعرض لانكشاف أمرهم.

وهناك علاقة شائعة تتم بين أجهزة المخابرات الخارجية لدولة ما مع أجهزة الأمن المحلية لدولة أجنبية، وتعرف الاتصالات بالأجهزة الأجنبية بـ"عمليات الاتصال"، والغرض منها هو تبادل المعلومات والقيام بعمليات مشتركة حيث أن القاعدة العامة لتبادل المعلومات بين الأجهزة الاستخبارية والأمنية لا تعطي شيئًا ما لم يكن ذلك ضروريًا والاستفادة من الكسب في صفقة تبادل المعلومات. وتستخدم عمليات المعاونة في المساعدة في تنفيذ برنامج التسلل إلى داخل الأحزاب والتكتلات والحركات السياسية، فبإستطاعة فرق المراقبة اكتشاف أماكن عقد الاجتماعات السرية التي يمكن أن تثبت فيها أجهزة تجسس إلكترونية... كما أن التلصص على الخطابات البريدية يوفر الاطلاع على المراسلات الهامة للحزب... كما وأن استراق المكالمات التليفونية يكشف قدرًا كبيرًا من المعلومات عن النشطاء في الحزب والأعمال الروتينية لزعمائه... والعمل على الدخول خلسة إلى مقر الحزب يتيح الحصول على سجلات وقوائم عضوية الحازبين.

إنّ عمليات اختراق الأحزاب والتنظيمات المتطرفة وغيرها من التكتلات السياسية تهدف إلى تجميع المعلومات عن المخططات والبرامج والقدرات ونقاط الضعف ونقاط

القوة وعن الأعضاء والمتعاطفين والممولين والاتصالات الدولية والعلاقات الخارجية للحزب المعني. وتختلف أساليب الاختراق بين أحزاب وأخرى... فبالنسبة للأحزاب التي تعمل في الخفاء يفضّل أسلوب التجنيد من افرادها مقابل المال... ودراسة عملية الاختراق تتم على أساس المعلومات المستقاة من صحافة الحزب وأقوال زعمائه ونشرات دعايته وأنشطة تنظيماته الطليعية ودرجة التزامه بالمنهاج المعلن. وهناك من يأتي من تلقاء نفسه وهو عضو في الحزب بسبب حاجته إلى المال أو دوافع أخرى فيقرر عرض خدماته على جهاز المخابرات الأجنبية، ويُجري اتصالاته المبدئية إما بأن يذهب بنفسه للسفارة أو يكون أكثر حذرًا لحماية نفسه من الانكشاف وغضب الحزب عليه فيسلك طريقًا آخر... ودائمًا يتم فحص الملفات وعمل التحقيقات اللازمة قبل المخاطرة بعمل اتصال مبدئي مع الشخص القادم، وإذا بدت النتيجة مبشرة بالنجاح فثمة اجتماعات طويلة تعقد معه لكي يشرح بالتفاصيل أنشطته السياسية ودوافعه للاتصال بالمخابرات الخارجية، وبعد ذلك يتخذ القرار بشأن قدراته ومدى استعداده للعمل مستقبلاً كجاسوس ضد الحزب المنضم له مع وضعه تحت الاختبار، فإذا سارت الأمور على ما يرام يبدأ العمل في إقامة اتصالات سرية معه وفي التحضير لعملية تسلل جديدة إلى نفس الحزب أو داخل حزب آخر... كما أن هناك طريقة أخرى للتسلل داخل الأحزاب عن طريق تجنيد شخص لينضم إلى الحزب ثم يشق طريقه إلى أعلى في الوسط القيادي وهذا طريق طويل وشاق وعادة لا يُلجأ إليه إلا إذا توافرت الظروف الملائمة.

وهناك عمليات التجسس الإلكترونية على منازل أعضاء الحزب القياديين وأماكن اجتماعاتهم، وتأتي هذه العمليات بمعلومات ممتازة بسبب انعدام العنصر البشري الذي قد يحرّف أو يبالغ أو يقلل في التقارير الواردة من العملاء أو يشوهها.

أمّا تقنيّة "تأمين العمليات"، فهي الأساليب والأدوات التي يتم استخدامها لتنفيذ العمليات السرية والمحافظة على سريتها، ويتوقف ذلك على طبيعة المناخ السائد ومجموعة الظروف التي تحدد درجة السرية المطلوبة وقدرات الأجهزة المحلية المستهدفة التي ستوجه العمليات ضدها، وكلما كانت البيئة العامة في استرخاء كانت الأساليب السرية أبسط وأقل تعقيدًا، وتستخدَم أساليب السرية للمحافظة على سرية العملية ومنع اكتشافها لعدة أسباب من بينها "أنّ حياة الناس دائمًا في خطر ولا بد من الاهتمام والعناية بحياة العميل"، وتتضمن الأساليب الفنية السرية ما يلي:

١ ـ الاختيار الصحيح لمكان اللقاء.

٢ ـ المراقبة المضادة قبل الاجتماعات السرية وبعدها.

٣ ـ وسائل الاخفاء.

٤ ـ الاحتياطات في استخدام التليفونات.

٥ ـ طرق مقاومة التسمع المحتمل على أماكن اللقاءات.

٦ ـ إستخدام الوسطاء لتجنب الاتصال المباشر المتكرر بين العملاء وعنصر المخابرات المسؤول.

٧ـ الأساليب الفنية للمواصلات.

كما يرتبط التستر ارتباطًا وثيقًا بأمن العمليات لأنه الستار الخادع الذي يستخدم لجعل العمليات السرية تبدو وكأن لها هدف شرعيّ، ويمكن استخدام مؤسسة علنية كجهاز لستر تمويل العمليات، أو شركة ملاحة لستر العمليات البحرية، أو شركة خطوط جوية لستر المعاونة الجوية للعمليات شبه العسكرية... ويمكن استخدام عمل تجاري قانوني كمظهر يتستر وراءه عناصر المخابرات المتواجدون في دولة أجنبية.

وربما تُعتبر الاتصالات بالعملاء أخطر عناصر أساليب السرية وأمن العمليات وأكثرها حرجًا بالرغم من فاعليتها، ويستلزم ذلك عمليّات أمن وتستر بالغة التعقيد. ويمكن اتمام المقابلات في الفنادق أو الشقق الآمنة المستأجرة خصيصًا لهذا الغرض، أو العربات أو الانفاق أو الحدائق العامة أو الأحياء المنعزلة أو الأماكن السياحية... وتتم الاتصالات العادية عن طريق الوسطاء، أمّا الاتصالات السرية مثل "اللقاء اللحظوي" لتسليم رسالة فيمكن اتمامها في دورات المياه العمومية أو أنفاق المشاة حيث التحركات غير معاقة والمراقبة العادية صعبة.

أما الاتصالات مع العملاء في المناطق التي تكون فيها أجهزة المخابرات المعادية قوية فتتم غالبًا عن طريق الاشارات اللاسلكية الشيفرية التي ترسل للعميل والتي يمكن سماعها بأجهزة الراديو المنزلية العادية، وقد أدخلت حديثًا طريقة استعمال التليفون النقال. أما تقارير العملاء فتكتب بالحبر السري وترسل إلى عنوان متفق عليه، ويتم الآن استعمال الإنترنت. وعادة يقتضي في كل عملية سرية إجراء نوع من التدريب بدءًا بالتذكير باحتياطات الأمن وانتهاءًا بالتعليمات التخصصية العليا عن استخدام المعدات الفنية المعقدة، كما يتطلب الأمر التدريب المستمر للعميل لكي يتقن كتابة تقاريره من حيث التمييز بين الحقيقة وبين الاشاعة والرأي وتحديد مصادر الأنباء وذكر التواريخ والأماكن والأسماء الحقيقية وهجاء الكلمات والشكل والصياغة وأدوات الكتابة السرية المتغيرة والمتطورة باستمرار وحل الشفرة.

بالنسبة لصفقات تبادل الجواسيس، فإنّ كل دولة لديها أجهزة مخابرات تستوعب عملاء وجواسيس لجمع المعلومات السرية والعلنية في الدول الأخرى، وبالرغم من ذلك لا تعترف أيّ دولة بأن لديها جواسيس، وتعمل أجهزة المخابرات وفقًا لأساليب الخداع والتمويه، وفي حال اكتشاف شبكات التجسس تبدأ خطة محاولة استرداد

الجواسيس بالإدعاء بأنهم أبرياء من التهم الموجهة إليهم، وأنهم ضحايا إجراءات الأمن والاتهامات الملفقة والمكايدات السياسية. وتتصاعد حملات التعبئة الإعلامية مع استخدام البعد الانساني في القضية للمطالبة بسرعة الإفراج عنهم. ويشمل ذلك المؤتمرات الصحفية واللقاءات السياسية والنداءات والاسترحامات التي ترفعها أفراد أسر الجواسيس للمنظمات الانسانية، وفي بعض الأوقات تحدث عملية محاصرة للقضية للحيلولة دون تصعيد المشكلة خوفًا من أن يؤثر ذلك سلبًا على العلاقات السياسية والاقتصادية المشتركة بين البلدين، ومرات تحدث حملات تضخيم للمشكلة وتُثار بشكل أوسع باعتبارها عمليات تهدد الأمن والسلامة والاستقرار للدولة وخصوصًا عندما تكون العلاقات غير طبيعية ومتوترة بين الدولتين المعنيّتين.

إنّ صفقات تبادل الجواسيس، لا تخضع لقواعد أو قوانين أو بروتوكولات محددة، ولا تنطبق عليها الاتفاقيات الأمنية، ولا يشملها إطار الإنتربول الدولي، إنما تتم عبر مفاوضات على درجة عالية من السرية، يتّخذ فيها القرار بواسطة القيادة السياسية في الدولة اعتمادًا على التقارير الأمنية التي تستهدف تحقيق سياسات الأمن الوطني وتغليب المصالح والأهداف العليا.

العرف السائد في هذه العمليّات يفرض إقامة موازنة بين ما هو مطلوب من استرداد العملاء وما يقابل ذلك، وخصوصًا عندما تكون الدولة حريصة على تنفيذ الأحكام ضد المتورطين بالتجسس.

وينحصر اهتمام أجهزة المخابرات باستعادة عملائها في عدة مفاهيم منها:

أولا: توصيل رسالة غير مباشرة إلى كافة العملاء الآخرين في نفس الدول أو في الدول الأخرى تفيد بأنّ الدولة المعنيّة تحمي عملاءها وتساندهم حتى

النهاية، وأنها لن تتركهم يواجهون المصير المجهول حتى ولـو اعترفوا بتورّطهم بعد سقوطهم.

ثانيًا: التأكيد على عدم تورط عمـلاء الدولـة المعنيّـة فـي الكشـف عن المزيد من المعلومات التي قاموا بالتجسس عليها لأجهزة المخـابرات المعادية، ومحاولـة ضمـان تفردهم وحيازتهم للأسرار والوثائق السرية التي أمروهم بالتعاطي معها.

ثالثًا: عدم التضحيـة ببعض العمـلاء المحتجزين من أصحـاب القدارت الخاصـة والخبرات النادرة في مجال التجسس للاستفادة منهم في مجالات تدريب عملاء جدد أو تكليفهم للقيام بتنفيذ عمليات خاصة أخرى.

رابعًا: الحرص على تأكيد صفة الوفاء من جانب أجهزة المخـابرات للعمـلاء فـي شتى أنحاء العالم، والتحذير من خطر الخيانة على الجانب الآخر.

خامسًا: تحقيق التنافس وزيادة فرص التعاون بيـن أجهـزة المخـابرات مـع بعضـها البعض من خلال تبادل الجواسيس وتبادل المعلومـات والأسـرار المشـتركة، ومحاولـة كل جهاز أن يثبت للجهاز الآخر مدى تفوقه وقدراته علـى مواجهـة عمليـات التجسـس المضادة.

وفـي كثير من الأحيان تتـم عمليـات خاصـة تهـدف إلـى تهريـب الجاسـوس المعتقل أو التخلص منـه داخل السجن عن طريق طعام مسموم، أو الإلقـاء بـه من مكـان مرتفـع، أو خنقـه بحيث يبدو الأمـر فـي النهايـة كمـا لـو كـان محاولـة انتحـار أو وفـاة طبيعيـة. وكثيـرًا مـا تُستخرج شـهادات الوفـاة علـى أن سـبب المـوت هـو الإصابة بنوبة قلبية حادة. وغالبًا تتم عمليات "الموت الغامض" قبل اسـتكمال إجراءات التحقيق.

يسعى جهاز الموساد الاسرائيلي دائمًا لاسترداد الجواسيس المقبوض عليهم، وكذلك لاسترداد جثث الجواسيس الموتى سواء من نفذت فيهم أحكام الإعدام، أو الذين ماتوا خلال فترة تنفيذ عقوبة السجن، أو الذين قد انتحروا خلال فترة حبسهم. وتقوم إسرائيل بصفة مستمرة باحتجاز عشرات المواطنين العرب من الفعاليات الهامة كسجناء داخل السجون الاسرائيلية لاستخدامهم كورقة ضغط ومساومة خلال أيّ مفاوضات أو صفقات تتم لمبادلة الجواسيس، وقد ذكر تقرير أصدرته منظمة العفو الدولية أن إسرائيل تحتجز عددًا كبيرًا من السجناء العرب المحتجزين بدون محاكمة والذين تم اختطافهم من بعض الدول العربية ونقلهم سرًا إلى إسرائيل بدون تهمة أو محاكمة وبعضهم لا يزالون في السجن بالرغم من انقضاء مدة أحكامهم، ومن العديد من عمليّات التبادل.

في بداية عام ١٩٦٨ تم اتفاق لاطلاق سراح الأسرى العسكريين المصريين الذين تم أسرهم في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ في مقابل أن أفرجت مصر عن الجواسيس والأسرى الإسرائيليّين الذي سبق وان تم القبض عليهم في فضيحة "لافون"، ومعهم الجاسوس "لوتس" وزوجته بعد أن قضوا ١٤ عامًا في السجون المصرية، كما تم إرسال جثث رفات الجواسيس الإسرائيليين الذين تم إعدامهم سرًّا إلى إسرائيل. وعندما اعتقلت المخابرات السورية العميل الإسرائيلي "إيلي كوهين" قامت إسرائيل بتقديم ٤٣ محاولة وعرضًا إسرائيليًّا للإفراج عنه ومبادلته بعشرة جواسيس معتقلين لدى إسرائيل، إلا أن سوريا قد أصرت على رفضها وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٨٢ ـ ٨٩.

لائحة المراجع

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

فيتالي فاشيلفتش بتروستكو، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (دمشق، ١٩٨٩)

كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة، دار الجيل (بيروت،١٩٩٨)

Colby W., *Forbath P. Honorable Men, My Life in the CIA,* (New York,1978)

Covert Action.

Evans P. , Novak R., *The Reagan Revolution,* (New York, 1981)

Ford G, A, *Time To Heal,* (New York, 1979)

Foreign Policy.

Harper's, November, 1973.

International Herald Tribune.

Newsweek.

Powers Th., *Thinking About The Next War,* (New York, 1982)

Roase A.E,*One Sweet Guy And What He Is Doing To You* (Washington,1981)

Salisbury H. E., *Without Fear Or Favor, An Uncompromsing Look at the New York Times,* (New York,1980)

Stockwell J., *In Search Of Ennemies, A CIA Story,* (New York,1978)

Summers A., *Conspiracy* (New York,1980)

The Economist.

The Nation.

The New York Magazine.

The New York Times.

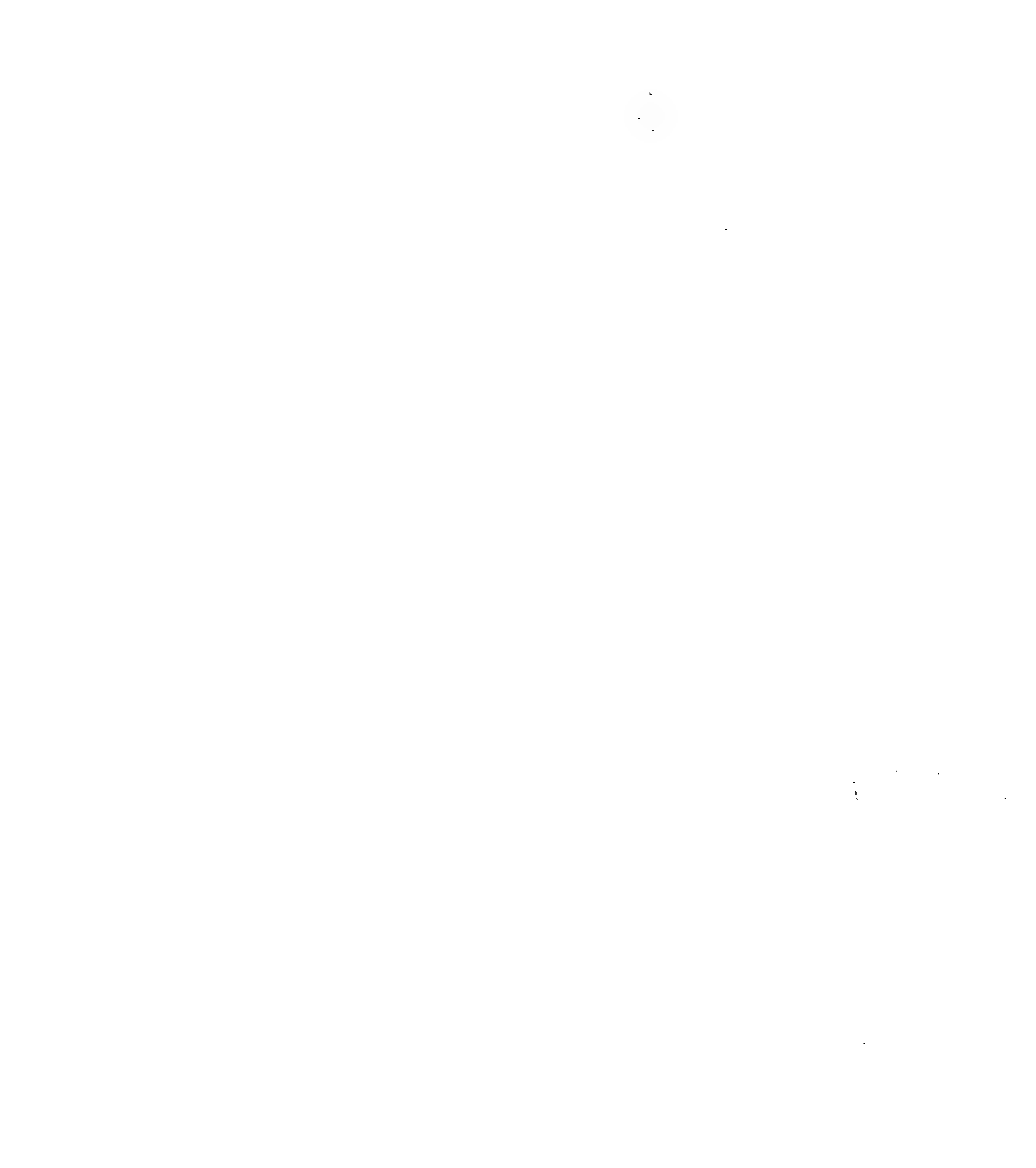
US . News And World Report.

Wall Street Journal.

Washington Post

الفهرس










Bibliotheca Alexandrina
0586418